الإســلام

شــريعة وطــريقــة وحقــيــقــة

الجزء الثالث

أنوار

الإحسان

(أصول الوصول)

صلاح الدين القوصي

الطبعة الأولى

رمضــان ١٤١٨ - ينـــاير ١٩٩٨

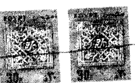
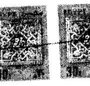
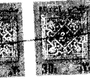
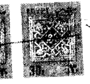
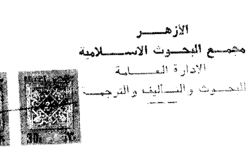
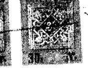
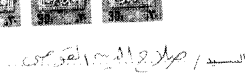


بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـامة
للبحـوث والتـأليف والترجمـة

نموذج رقم ١٧
AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٨٥ ٤ م

السـيد / صلاح الدين القوصي

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : أنوار الإلهام ... تأليفكم

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعـه على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والاحاديث النبـوية الشريفـة .

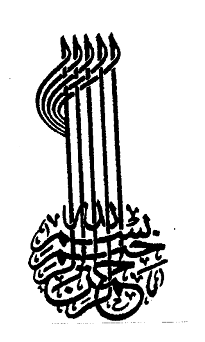
واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

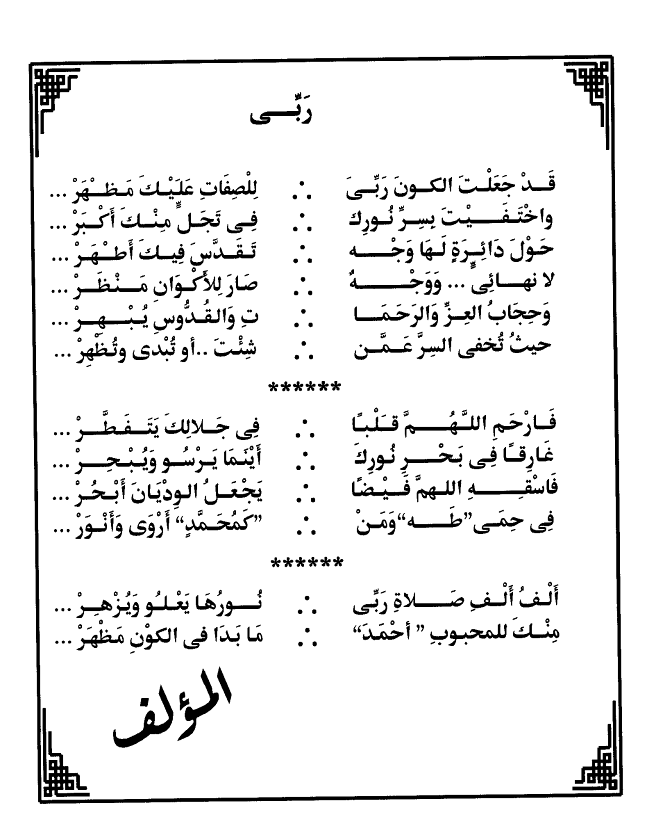
مدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

تحريرا في / / ١٤ هـ
الموافق ٢ / ١٠ / ٢٠٠٦ م









رَبِّــى

قَــدْ جَعَلْــتَ الكــونَ رَبِّــىَ ∴ لِلْصِفَاتِ عَلَيْكَ مَظْـهَرْ ...
واخْتَفَــيْتَ بِسِــرِّ نُــورِك ∴ فِــى تَجَلٍّ مِنْـكَ أَكْـبَرْ ...
حَوْلَ دَائِـرَةٍ لَـهَا وَجْــه ∴ تَـقَـدَّسَ فِيـكَ أَطْـهَرْ ...
لا نهــائِى ... وَوَجْــهُ ∴ صَارَ لِلأَكْـوَانِ مَـنْظَـرْ ...
وَحِجَابُ العِـزِّ وَالرَحَمَــا ∴ تِ وَالقُدُّوسِ يُبْــهِـرْ ...
حيثُ تُخفى السِرَّ عَـمَّـن ∴ شِئْتَ ..أو تُبْدى وتُظْهِرْ ...

******

فَــارْحَمِ اللَّهُــمَّ قَــلْبًا ∴ فِى جَـلالِكَ يَتَـفَطَّــرْ ...
غَارِقًـا فِى بَحْــرِ نُورِكَ ∴ أَيْنَمَا يَـرْسُـو وَيُبْحِــرْ ...
فَاسْقِــهِ اللهمَّ فَـيْضًا ∴ يَجْعَـلُ الوِدْيَانَ أَبْحُـرْ ...
فِى حِمَـى "طَــه" وَمَـنْ ∴ "كَمُحَـمَّدٍ" أَرْوَى وَأَنْـوَرْ ...

******

أَلْفُ أَلْـفِ صَــلاةِ رَبِّى ∴ نُــورُهَا يَعْـلُو وَيُزْهِـرْ ...
مِنْـكَ للمحبوبِ "أحْمَدَ" ∴ مَا بَدَا فى الكوْنِ مَظْهَرْ ...

المؤلف


٨

قال رسولُ اللَّــه ﷺ عندما سأله سيدُنا جبريلُ عليه الـــسلامُ عـــنْ الإحسان ، " الإحسانُ أنْ تَعْبُدَ اللَّـــهَ كأنَّكَ تَرَاهُ ، فإنْ لَمْ تَكُـــــنْ تَرَاهُ ، فإنهُ يراك "

متفـــق عليـــه

وقال ﷺ لحارثة أو حُذَيْفة (على روايتين) : " كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟.. "

فقال رضِىَ الـــلَّـــهُ عنه " أَصْبَحْتُ بالـــلَّـــه مُؤْمِنًا .. "

فقال ﷺ " لِكُلِّ حَقّ حَقِيقَةٌ .. فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكْ ؟ "

فقال رضى الـــلَّـــه عنه " عَزَفَتْ نَفْسِى عَنْ الدُنْيَا ، فَاسْتَوَى عندى حَجَرُها وَمَدَرُهَا ، ولو كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا ، وَكَأَنـــى أَرَى عَرْشَ الرحْمَنِ بَارِزًا ، وَكَأَنِّى أَرَى أَهْلَ الجَنَّـــةِ يَتَـــزَاوَرُون ... وكأنـــى أَسْمَعُ أَهْلَ النَّارِ يَتَعَاوون فِيهَا "

فقال ﷺ : " عَرَفْتَ.. فَالْزَمْ.. عَرَفْتَ فَالْزَمْ "

رواه الطبرانى فى الكبير عن " الحارث بن مالك "، ورواه البزّار عن "أَنَس"

" صدق رسول اللَّه صلىَّ اللَّه عليه وسلم"

المحتويات

مقدمة

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

والحمد للّه المستحقّ لجميع المحامد ، والصلاة والسلام على إمام كُلِّ شاكرٍ وحامد ، وعلى آله وصحبه وكل عابد ...

وبعد ،

ليس من كتابٍ لا يُؤخَذُ منه ويُردُّ عَليْهِ .. إلاَّ كتابَ اللَّهِ تعالى وحديث رسوله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم....

وليس من كتابٍ مبرَّأ من الخطأ والنُقْصان ... إلاَّ كتابَ اللَّه تعالى وحديث رسوله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ...

وليس من فرضٍ علينا أن نأخذ بكتابٍ أو قول قائلٍ .... غير كتاب اللَّه تعالى وقولِ رسوله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ....

أمَّا ما سواهما .. كتابَ اللَّهِ .. وحديثَ رسولِهِ ... فيؤخذ منه وَيُرَدُّ ....

وكُلُّ مُجتَهِدٍ عَارِفٍ بأصولِ الاجتِهاد .. مُحِبٍّ للَّهِ ولرسولِهِ ، خالصاً لوجه اللَّهِ الكريم .. يجزيه اللَّه خيرًا عن الإسلام والمسلمين ....

وكتابنـا هـذا يتحـدث عـن أنـوار الإحـسان ... وهـى ثمـرة الالتـزام بـشريعة اللّـه تعـالى وسُنّـة رسـوله ﷺ .. والـسيرِ والـسلوكِ والـنهجِ علـى طريقتـه عليـه الـصلاة والـسلام .... فهـو الخلاصـة المرجُوّة من الإسلام والإيمان.

والنـاسُ متفـاوتون فـى تحـصيلهم ... ومتفـاوتون فـى أرزاقهـم .. ومـا كانـت أرزاقهـم علـى قـدر مـساعيهم ... فالمـساعى على قدر طاقاتهم .. والأرزاق حسب قسمة الرزّاق جَلّ وعلا ....

وحـديثى إليـك فـى هـذا الكتـاب ، لـيس محـشواً بـالمنقول مـن أقـوال الـصالحين ومـصطلحاتهم ... ولكنّـى خاطبتـك فيـه بـالمنطق المعتـاد ، والعقـل الفِطْـرى الـسليم ، مـع الاسـتدلال بآيـات كتـاب اللّـهِ تعـالى وحـديثِ رسـوله ﷺ مـا وَجَـدْتُ إلى ذلـك سـبيلا .. وذلـك حتـى لا تَمِيـلَ بالكتـاب وصـاحبه إلى طائفـةٍ مـن الطوائـف ، ولا طريقـةٍ مـن الطـرق .... فـنحن فـى البدايـة والنهايـةِ لا نقـصِدُ إلاّ وجـه اللّـهِ تعـالى ورضـاه ، ومعرفـة حَـقّ توحيـدهِ وعبادتـه قدر ما نستطيع ...

ومهما تحدّثت الخلائِقُ كُـلُّهَا .. عن عظمة اللّـه تعالى وصفاته وَنِعَمِهِ وأنواره ... فما عرفوه حقّ معرفته ... ولا قدّسوه حقّ تقديسه ...

فإن رأيـتَ فـى كتـابى هـذا غـير مـا تـرى لـنفس المـسمَّياتِ فـى المصادرِ الأُخرى ، فلا تعتبر هذا منكرا أو شاذّاً .. ولكـنْ اجمـعْ مـا قـرأت

هنا وما قرأت هناك - والجميعُ لا يصبح ذرَّةً فى عِلم اللّـه تعالى - ثم خُذْ منه ما يناسبك وما يستريح له قلبك ....

والحـديث فيـه إيجـازٌ شـديدٌ .. وإشـاراتٌ دقيقـةٌ .. فـإذا أدركتهـا فهـى خـير ، وإن لم تـدركها .. ، فخـذ مـا بـدا لـك منـه ودع ما سواه ....

ويشتمل الكتابُ على أقسامٍ خمسةٍ كما يلى :-

تقديم هـام : ذكَرْتُ فيه بعض التعريفات كالإيمانِ ودرجاته والولاية العامّـة والخاصّـة ، والظـاهر والبـاطن ، والسـير والسـلوك إلى اللّـه تعالى ....

الباب الأول : اشتمل على تعريف الإحسانِ لغةً وشرعًا ، والمقصودِ من النور ، والرؤية ، والحُجُبِ وما شابهها ...

الباب الثانى : وأوجزتُ فيه وصفًا مبسَّطًا عن العوالم الظاهرة والخفيّة ، وهـى التـى تسبحُ فيهـا الأرواحُ والأنْـفُس ، كمـا تعرضـنا فيـه لمفهوم الروح والموت والبرزخ و غيرهما ....

الباب الثالث : هو فى الحقيقة يدورُ كله حول أنوار رسول اللّـه ﷺ ، وحـول معنى الرسالة والنبوة .. والقرآن والحديث .. وأهمية نوره ﷺ فى الكون كله ... وحتى تقوم الساعة .

الباب الرابع : تعَرّضْنَا فيه لمفهوم الحضرات وأنواعها .. ، والفرق بين الحضرة والمُلْك .. ، وإلى مفهوم الحب الإلاهى ، وشعراء هذا الفن ..، وبعض رموزهم وإشاراتهم ...

وما نقلنا عن غيرنا فى كتابنا هذا رأيـًا ولا نظريةً ... ولكنَّنا قد استعنَّا فى بعض الروايات بما رواه السابقون من وقائع موثَّقَةٍ لا غير ...

وبعــد

ما قصدنا من كتابنا هذا إلا وجه اللَّـهِ تعالى ، وأن يأتنس السائرُ السالك إليه سبحانه بما فيه ، فلا تختلط عليه الأمور ، ولا تلتبس عليه بعض الظواهر ، فيحارُ بين الوهمِ والخيال والجهل والغرور ....

وما أكثر المَفْتُون فى هذا المجال .. وما أشَدَّ خَطَرَ من لا يكون فهمه على علمٍ شرعيٍّ صحيح ...

ونحن لا نحصُرُ الحقائق فى مفاهيمنا التى عرضناها فقط ، فاللَّـهُ تعالى واسِعٌ علـيمٌ ، وما عَرفَ اللَّـهَ تعالى إلاَّ اللَّـه ، ولا يُحيطُون بشيئٍ مِن عِلمِهِ إلاَّ بما شاء ، جَلَّ جَلالُ اللَّه .

ولا نقُولُ إلاَّ كما قَالَ ساداتنا الكِرام : " رأينا صوابٌ يحتمِلُ الخطأ ، ورأيُّ غيرنا خطأٌ يحتمِلُ الصواب "

وطُوبى لِمَنْ أهدى إلينا أخطاءنا ، قاصداً وجه اللَّـهِ

تعـالى ، وأعاننـا علـى سُلُوك الطريـقِ إليـهِ جَـلَّ شـأنُهُ .. ونحـن نـستعيذ مـن كُـلِّ قـولٍ أو عمَـلٍ أو رأيٍ يخـالف شـريعة الله تعـالى وسُنَّـة رسوله ﷺ ، بِقصْدٍ أو بغيرِ قصدٍ ، و نستغفِرُهُ ونتُوبُ إليْهِ ..

ونـسألُ اللــه تعـالى أن يجعلنـا نَحْـنُ وأعمالَنَـا وكُـلَّ حياتنـا و مماتنـا فـي سـبيلِه تعـالى ، وأن يجعَلَنـا فـي كِتـابِ نبيِّـهِ ﷺ صـلاةً وتسليماً و بركاتٍ ورحماتٍ ورِضوانًا ....

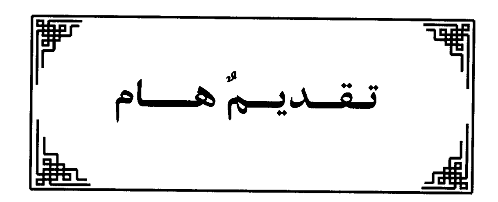
وأستغـفِرُ الله العـظـيمَ وأتـوبُ إلـيْـهِ ..
وأشهَدُ ألاَّ إله إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شرِيكَ له
وأنَّ مُحـمَّداً عبـدُهُ ونَـبيُّـهُ
ورسولُهُ والحمدُ لِلَّهِ
ربِّ العالمين.

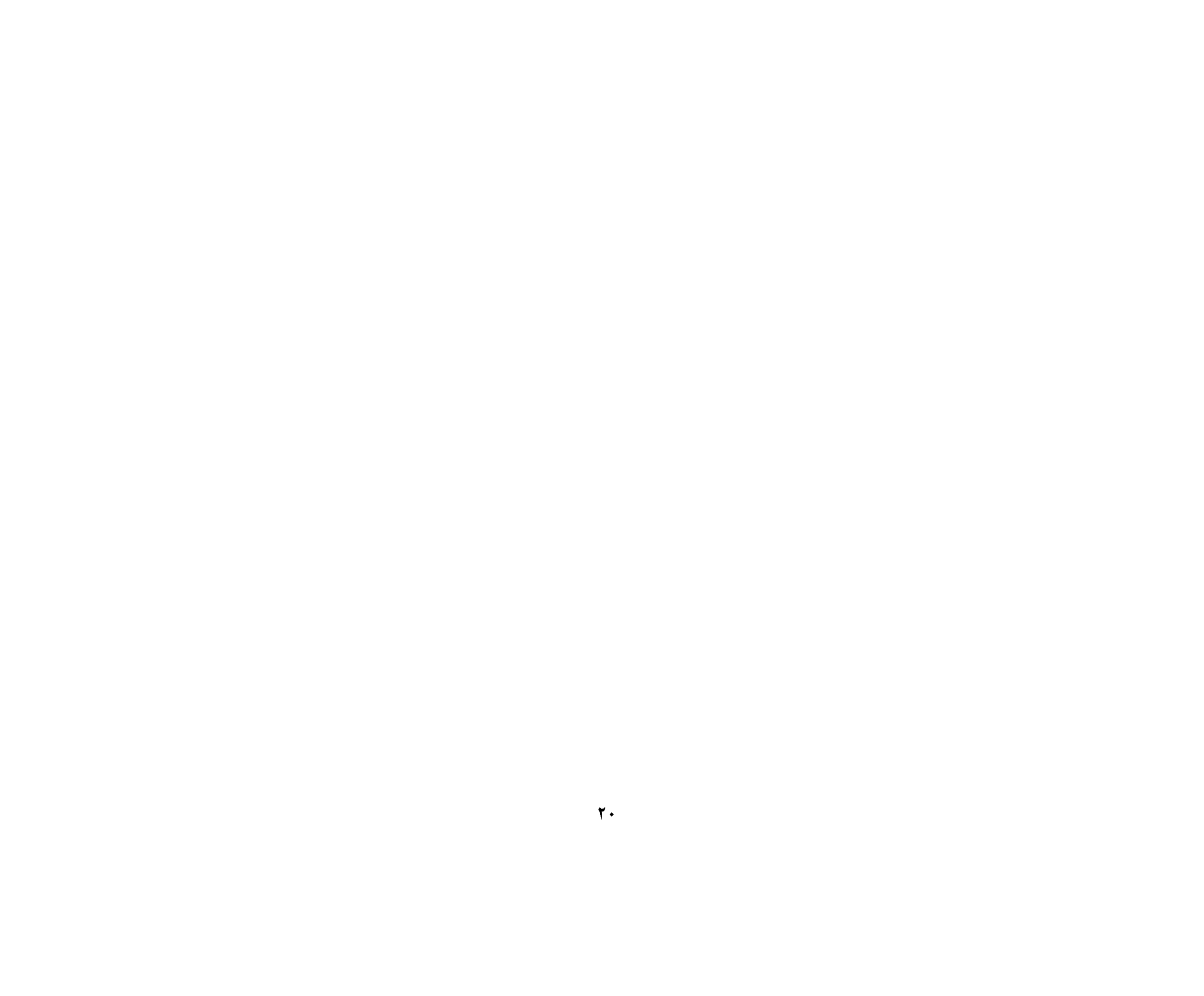
صلاح الدين القوصي

القاهرة

رمضان ١٤١٨ هـ

ينـايـر ١٩٩٨ م


تقديمٌ هام



ذَكَرْنَا فى الجُزْء الأول من هذه السلسلة ، وهو " أركان الإسلام " أو " دليل العبادات " مُوجزاً مبسَّطاً لأهَمِّ الأحكام التى يحتاجها المسلم لتحقيق شهادة التوحيد بِشِقَّيْها ، ثم ما يحتاجه من شروطٍ ، وأركانٍ ، وواجباتٍ ، وَسُنَنِ الأركانِ الخمسةِ للإسلام لإقامة الشعائر ، وهذا يعتبر الكمّ الأدنى - لمعرفة المسلم - الذى تصحُّ به عبادته.

واشتمل الجُزْءُ الثانى وهو " قواعد الإيمان " أو " تربية النَّفْس " على تحليلٍ عقلانيٍّ وروحيٍّ مُبَسَّطٍ ، يُنَاسِبُ العصر الحديث ، لقواعد الإيمان باللَّه تعالى ، ومعنى كلمة التوحيد ، والمقصود بأسماءِ اللَّهِ وصفاته وتجَلِّيَّاته ، مع نظرةٍ عامةٍ على النَّفْس والروح وقواهما الظاهرة والخَفِيَّة ، وتبسيطٍ لمعنى تربية النفس وتزكيتها والسمو بها ، وقد تعَرَّضْنَا فيه لبعض المعانى الدقيقة التى وردت فى القرآن الكريم ، وبعض أحاديث رسول اللَّه ﷺ .

- **السير والسلوك:**

فالجُزْء الأول هو دليلُ السلوك وإقامة شعائر اللَّهِ تعالى من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ ، وهذه أحكامُ أوجزناها من المراجع الفقهية ، وأعدنا ترتيبها وعرضها ، بما يناسب العصر الذى نحن فيه ، دون تعليقٍ ولا اجتهادٍ منا .

أما الجُزْءُ الثانى وهو دليلُ السيْرِ بالقلب والنفس إلى رضوان اللّه تعالى وأنواره ، فقد كان حَديثاً طويلاً بينى وبين القارئ ، خاطبته فيه بمنطقه وعقله هو ، فكان لِزامًا أن أحاور وأداور واستشهد وأقْدِم وأُحجِم معه ، حتى أعرض بضاعتى عليه ، وحتى أقنعه بما أعْرِضُهُ .

وفى الحقيقة لا غنى للمسلم عما جاء فى الجزئين ... الأول لتربيةِ ظاهره ، والثانى لتربيةِ باطنهِ الروحى .. ، واللّهُ تعالى هو الظاهر والباطن .. ولابد أن تكون عبادةُ اللّهِ بالظاهر والباطن ، فأحكامُ الصلاةِ من طهارةٍ وركوعٍ وسجودٍ لازمةٌ للمسلم .. وهذا هو الشِقُّ الظاهر .. والخشوع فى الصلاةِ لازمٌ أيضا ، وهذا هو الشِقُّ الباطن.

والامتناع عن الطعام والشراب ، وما ينقضُ الصيام ، لازم لأداء الصوم ... ، و هذا هو الشقُّ الظَاهر .. ، ومراقبة اللّه تعالى فى صيامه ، وحسن الخُلُقِ ، والأدب مع اللّهِ ، هو الشِقُّ الباطن ..

فباجتماع الظاهر مع الباطن تَتِمُّ عبوديَّةُ العبْدِ وعبادَتُهُ ، وهذه هى التجارة مع اللّهِ تعالى ... سَيْرٌ .. وسُلُوكٌ ..

يقـــــول تعـــــالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

ويقـــول جَـــلَّ شـــأنه : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

(١) سورة الزخرف آية: ٧٢. (٢) سورة الأحقاف آية : ١٤.

ويقـــول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [1].

وقـول رسـول اللّـه ﷺ : " لَـنْ يَـدْخُلَ أَحَـدُكُم الجَـنَّةَ بِعَمَلِهِ .. قَـالُوا وَلا أَنْـتَ يَـا رَسُـولَ اللّـهِ ، قَـالَ وَلا أَنَـا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِـي اللَّـهُ بِرَحْمَتِهِ " ، يَدُلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ دُخول الجنَّة أصلاً لا يكـون إلاَّ برحمةِ اللّـه تعالى .. فبدونها لا يكـون للعَبْد نـصيب ... حتـى أعماله لا تُجْدِي .. فإن العمل من العبد يلزمه الإخلاصُ ، ثم الإتمامُ ، والكمالُ .. ثم التزكيَةُ من اللّه تعالى .. فيُطَهِّرُهُ جَلَّ شأنه ، ثم يُزَكِّيه ، ثم يقبَلُهُ ، ثـم يُنَمِّيه ، ثـم يجعله شافعًا لصاحِبِهِ ، وكُلُّ هـذا بفضلِ اللّـهِ تعالى ورحمته ، فيدْخُلُ العبدُ الجنَّةَ برحمة اللّـه تعالى وفضله ، ثم تتفاوتُ درجَاتُهُ في الجنة على قدر عَمَلِهِ ، وما زكّاهُ اللّـه مِنْهُ وقَبِلَه وَنمَّاهُ لَهُ ، فافهم يا أخي هذا المعنى الدقيق .

ورغم أن هذا المكان ليس مكان الاستطراد والإفاضة ، إلا أنَّنا نحب أن نشير إلى نقطتين :

الأولى :

من رحمة اللّه تعالى بالعبد أنْ يُحَبِّبَ إِلَيْهِ الإيمان ، وأنْ يزيِّـنه في قلبه ، وأنْ يُوَفِّـقَهُ للأعمالِ الصالِحةِ ، يقول اللّه تعالى :

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

---

[1] سورة الصف آية : ١٠.

﴿ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (١)

ويقول تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (٢).

فمن الواضح أنَّ فضل اللّـه تعالى ونعمته سابقةٌ إلى العبد ، بشرح صدره للإسلام والإيمان وتوفيقه للعمل الصالح على قدر استطاعته ، حيث يقول تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ (٣) ...

ثم يأتى بعد ذلك دور العاملِ .. وكُلٌّ يعملُ على شاكِلَتِه .. على قدر يقينه ، وعلى قدر علمه ، وعلى قدر طاقته ، وعلى قدر إخلاصِه ، وعلى قدر حُبِّه للّـهِ تعالى .. فعمل المؤمن غير عمل التقيِّ ، غير عمل الورِع ، غير عمل البارِّ ، غير عمل المُقَرَّب ، غير عمل الصدِّيق .. غير عمل النبيِّ ..، وقد يكون العمل فى مظهره واحداً ، ولكنه يتفاوت فى وزنه عند اللّـه تعالى.

يقـول تعـالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ (٤) .. والعبرة هنـا بالكيفيَّـة ، ولم يقـل مـاذا تعملون ولكن " كيف " والكيفية تحوى الإتقان ، والإخلاص ، والخشية ،

---

(١) سورة الحجرات آية : ٧، ٨ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .
(٣) سورة التغابن آية : ١٦.
(٤) سورة يونس آية : ١٤.

والمحبّة ، وكثيراً من أعمال القلب في هذا العمل.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾[1]

ويقــول جَــلَّ شَــأْنه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[2] ويقــول : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[3]

فهناك تفـاوتٌ بين الخَلْق فـي خشيتهم مـن اللّـه تعالى ، وفـي حبهم له جَلَّ شأنه ، وفي العلم به ... وهكذا .

ثـم بعدَ كُلِّ هـذا وذاك يقـول سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[4] ، أي أنَّ كل عِلْمِهِم ومعرفتهم وعملهم وخشيتهم ، إنَّمَا هـي علـى قـدر أقدارهم هـم أنفسهم ، وعلـى قـدر طاقـاتهم الإيمانيّـة باللّـه تعالى .. ولكن الإطلاق هو أنّهم جميعاً ما قَدَرُوا اللّـه حـقَّ قدره ، ولا عبدوه حَقَّ عبادته ، ولا ذكروه حَقَّ ذِكره ...

انظر إلى قوله ﷺ " سُبْحَانَكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " .. فما عرف اللّـهَ تعالى إلا اللّـه ، وما قَدَّسَ اللّـهَ حقَّ تقدِيسِه سواه هو تعالى ..

وبعد أن يَتِمَّ عمل العامل على قدره .. يتفضَّلُ اللّـه تعـالى علـى من أراد من عباده ، فَيُنَقِّي هـذا العمـل مـن الـشوائب التـي فيـه ، يقـول تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[5]

---

(١) سورة فاطر آية : ٢٨ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٦٥.
(٣) سورة المائدة آية : ٥٤ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٩١.
(٥) سورة النساء آية: ٤٩.

ويقـولُ جَـلَّ شـأنه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [1] ،

ثـم يقبلـه تعـالى عنـده ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [2] ، ثم ينمِّيه له، يقول تعالى : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [3]، فمرة يُؤْتَى الأجرُ لصاحبه مضاعفاً ، ومرة بعشرِ أمثاله ، ومرة بسبعمائة ضعفٍ ، ومرة يضاعِفهُ اللّهُ تعالى لصاحبه كما يشاء سبحانه ، كما ذكر جَلَّ شأنه فى كتابه العزيز .... .

ألا ترى إلى الرجُل الذى سقى الكلْبَ ماءً فشكر اللّه تعالى له وَغَفَرَ لَهُ وأدخله الجَنَّة ، وماذا يساوى هذا الفعل القليل من العبد بالنسبة لحياته وأعماله الأخرى ، وبالنسبة لذنوبه وتقصيره مع اللّه تعالى!!.... فلوْلا أنّه تعالى قد قَبِلَ منه هذا الفِعل الصغير القليل ، ثم زكَّاهُ وطَهَّرَه ونمَّاه وربَّاه عنده حتى ازداد وزنه عن كل الذنوب ، فاستَحَقَّ بِهِ الجنَّة فى ميزان اللّه تعالى ، لَمَا دخلَ الجَنَّة بهذا العمل .

وهذا كله بفضل اللّه تعالى ورحمته .

فلا تناقض مطلقًا بين قولِ اللّه تعالى أن دخول الجنة والتمتع بدرجاتها يكون بالأعمالِ وعلى قدْرِها ، وبين قولِ رسوله ﷺ أن دخولَ الجنَّة إنَّما هو بفضلِ اللّه تعالى ورحمته .

---

(١) سورة الأحقاف آية : ١٦.
(٢) سورة المائدة آية : ٢٧.
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٦.

وإيجازاً لما جاء في هذه النقطة نقول أنَّـهُ إن لم يسبق فضلُ اللّـه ورحمته إلى العبد فلن يعمل أصلاً الأعمال الصالحة .. وحتى لـو فعلها فلا تُزَكّى وتُطَهَّر وتقبل وتنمَّى بغير فضل اللّـه تعالى ورحمته ... فالفضل كله للّـه تعالى أولاً وأخيراً ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (١) .

الثانـية :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ (٢) ،

ويقول تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (٣) ، ويقول : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ (٤) ، ويقول : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝ ﴾ (٥)، ويقول : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ﴾ (٦) ويقول : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ (٧).

إذاً .. فهناك قلبٌ سليمٌ ، وقلبٌ مريضٌ ، وقلبٌ به زَيْغٌ ، وقلـبٌ بـه

---

(١) سورة النور آية : ٢١.
(٢) سورة الشعراء آية : ٨٨ ، ٨٩
(٣) سورة البقرة آية : ١٠.
(٤) سورة الأحزاب آية : ٣٢ .
(٥) سورة الحج آية : ٤٦.
(٦) سورة آل عمران آية : ٧.
(٧) سورة البقرة آية : ٧٤.

قسوةٌ ...، واللّه سبحانه وتعالى يريد منا القلب السليم النقيَّ الطّاهر .. المُطَهَّر من أمراض القسوة والنفاق والرياء وكل الأمراض الأخرى.

وهذا أمر باطني .. فعِلْمُ القلوب عند رَبِّى ... ولذلك قال تعالى ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [1].

وماذا يكون فى القلوب غير التوحيد ، والإخلاص ، والتقوى ، والورع ، والخشية ، والهيبة ، والمحبة ، والشكر ، والتَوَكُّلِ ، والرضا ، والتسليم وصدق النيات !!! ، وكلها وكذلك أضدادها ، إنما هى أمور باطنية فى القلوب .. وهى التربة الحقيقية التى تزرع فيها أعمال العباد ، فإن كانت التربة صالحة زكيَّة ترعرعت فيها هذه الأعمال وَنمَت وبورك فيها ، وإن كانت غير صالحة رُدَّت على صاحبها ، ولُطِمَ بها وجهه والعياذ باللّه ، ولم يُكْتَبْ لصاحبها أىُّ عمل منها ، كما يقول تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ [2]... فإنَّ أعمالهم ضاعت ، وأضحت هباءً منثوراً ..

فسير القلوب إلى اللّه تعالى ، وطهارتها وسلامتها هو الأساس فى عبادة اللّه تعالى ، ورضا اللّه عن عبده ، وهذا ما يسمى بالسيْرِ إلى اللّه تعالى .. بينما تسمى الأفعالُ بالسلوك إلى اللّه تعالى ، وبالسلوك والسير يَتِمُّ للعبد عبادته للّه جَلَّ شأنه ، فاللّه هو الظاهر والباطن ، فحضرات

---

(١) سورة النجم آية : ٣٢ .   (٢) سورة البقرة آية : ٢٦٤ .

اللّـه الظّـاهرةُ فيهـا مظهـر العبوديـة مـن العبـد بالأفعـال والعبـادات ، وحضرات اللّه تعالى الباطنة فيها سِرُّ العبودية من العبد بأعمال القلب.

وأعمالُ القلوب هذه لا توضع فى ميزان عند اللّـه تعالى ، لأنها أكبر وأعظم من الميزان ، إِنَّمَا الميزان للأعمال ، وما فى القلوب إلاّ عظمة اللّـه تعالى وتوحيده وتقديسه ، وكيف توزن هذه العظمة . !! ولكن يكون أجر أعمال القلوب الهِبَاتُ من اللّه تعالى والعطايا منه لعبده من واسعِ فضْلِهِ وعظيم رحمته .

وبهذا التقديم المبسَّط تجد أن العابِدِينَ للّـه تعالى ينقسمون إلى صِنْفَيْن :

الأول :

صِنْفُ وفَّقه اللّـه تعالى للتجارة معه جَلَّ شأنه ، وغلب عليه السلوك والأعمال وأفعال السير الظاهرة .

الثانى :

صِنْفُ وفَّقه اللّه تعالى للتجارة معه جَلَّ شأنه ، وغلب عليه السير والقرب من اللّه بالأعمال الباطنية.

ولكن إعلم أن الصنف الأول لا بُدَّ أن يكون له نصيب من أعمال القلوب ، كما أن الصنف الثانى لا بُدَّ وأن يكون له نصيب من أعمال الجوارح الشرعية .. ولكن مقصودنا من هذا التصنيف أنّ قوما غلب عليهم الظاهر ، وقوما غلب عليهم الباطن ، والصِنْفَانِ مجذوبان إلى اللّه تعالى ، ولكن لكل منهما قدراته التى تناسب روحه وجسده..

يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (1) ، فجعل اللّه تعالى الإنشغال بالتفَكُّر فى ملكوت السماوات والأرض أعلى درجات العبادة ، وهى المرحلة الأعلى ، بعد أن يكون العبد قد استغرقه ذكر اللّه تعالى فى جميع أحواله ، من قيام وقعود، بل ونوم ويقظة ، وإعمالُ الفكر يكون بالقلب والسكون ، وهى أعمال باطنية ..

ولكن لاحظ أن السلوك إلى اللّه تعالى ينقطع بموت العبد .. لأن الميت انقطع سعيُه ، وانقطعت أعماله بموته ، فَيُحْشَرُ المرء على ما مات عليه كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وابن ماجة عن " جابر" : " يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ "حديث صحيح.

وكما قال عليه الصلاة والسلام " إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثلاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ ولدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ " كما رواه البخارى ومسلم والترمذى عن" أبى هريرة "، ولاحظ أنّ ما ذكره الرسول ﷺ هو كله من أعمال العبد فى حياته ، ولكن يظلُّ الميِّتُ يحصُدُ ثوابها ، طالما أن لها نفع للناس فى الدنيا ، فبقاء أثرها فى الدنيا يفيد الميت ، لأن هذا الأثر نتيجة لأعماله .. أما عمله بجوارحه فقد انقطع بموته ...

---

(1) سورة آل عمران آية : ١٩١.

أمَّا سَيْرُ القلوب إلى اللَّه ، والأعمَالِ الباطنية التى ذكرناها ، فإنها من أفعال القلوب والأرواح .. والأرواح لا تفنى بالموت .. بل تظل على ما هى عليه .. وأعمالها مستمرة ... ويكون ما انشغلت به فى الدنيا هو نفسه ما تنشغل به فى الآخرة ... فإذا أحَبَّ العبْدُ رَبَّه بقلبه وروحه قبل الموت ، فبعد الموت حُبُّه أشدّ .. وقربه أعظم ، ... فقد انقشعَ حجابُ المادَّة ، وتخلَّص من قيودها .. وانطلق إلى اللَّه تعالى ، حيث يزيده اللَّه من فضله ، لا فارق بين موته وحياته ... بل إنَّهُ بِمَوْتِهِ يُصْبِحُ أكثرَ انطلاقاً وصفاءً ...

ويضرب اللَّه تعالى لذلك مثلا بالشهداء ... فإنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون .. ورزقهم فى الآخرة ليس من رزق أهل الدنيا .. فهو ليس الطعام والشراب .. ولكنها درجات وأنوار و تجَلِّيَّات لا يعلمها إلا اللَّه تعالى ..

وهذا الثواب العظيم لا يخطر على بالك أنه نتيجة لأفعالهم.. فقد لا يكون لهم فعلٌ يُذْكَرُ ، فقد يذهب للحرب ، وقبل أن يرفع سيفه يكون قد قُتِل ... ولم يقل جَلَّ شأنه أنَّ مَنْ قَتَلَ عشرة ، أو مَنْ قَتَلَ مائة من الكفار يكون له ثواب الشهادة .. ولكنَّهُ حَدَّدَها بِرَجُلٍ أَحَبّ اللَّه تعالى ، وأَحَبَّ نَصْرَهُ ، ونَصْرَ حزبه ، ونَصْرَ كلمته ، فهانت عليه الدنيا ، وتعلق باللَّه تعالى ، وباع نفسه له ، فذهب مع المجاهدين قاصداً وجه اللَّه ... فَقُتِلَ فى سبيل اللَّه ، وهو على هذه النِّيَّةِ ، حتى وإن لم يرفع سيفه أو يقتل كافراً ..

فالجزاء على ما فى القلب من صِدْق النيَّة فى حبِّ

اللّـه ، وتعظيمـه ، والغيرة علـى دينـه ، والحـرص علـى نُـصْرَةِ كلمتـه ، والزهد فى كل ما سوى اللّـه .... وهذا كله من أعمال القلوب ....

فإن عاد من هذه الحرب فهو من المجاهدين ، وله أجره العظيم عند اللّـه تعالى بلا شك ، على قدر ما أبلى وقَدَّم ...

فـإن قُتِـل ، وسـالت نفسه ، وأريـق دمـه ، وهـو علـى هـذه النِـيَّة العظيمـة ، فقـد حَسُنَ خِتامُـه ، وفـاز بحُسْنِ الخاتمـة ، فهـو مـن الـشهداء المذكورين .. والقتلُ عملٌ سلبى وليس بإيجابى ، فهو لم يقتل نفسه .. بل قتله الكفار ، ففاز بالشهادة ، ثمنا لدمه ونفسه وحسن ختامه فى سبيل اللّـه ، فتنبه للفارق بين الحالتين .

وهذان الـصنفان مـن العبـاد : أهلُ الظاهر ، وأهـل البـاطن إذا جـازت لنـا هـذه المُـسَمَّيَات يـدورون فـى عبـادتهم وصِلَتِهِمْ باللّـه تعالى حول محورين أساسيين ...

الأول هو صدق الإيمان باللّـه تعالى ..

والثانى الصدق فى معاملة اللّـه تعالى ...

صـدق فـى الإيمـان ، وصـدق فـى النـيَّـةِ ، وصـدقٌ فـى العمـل ظاهراً باطناً ، وصدق فى معاملة اللّـه تعالى ...

فإنْ صَدَقَ العبـدُ بتوفيـق اللّـه تعـالى فـى مجاهـدة نفسه وفـى الإقبال على فعل الخيرات وترك المنكرات ، ينقله اللّـه تعالى مـن درجـة الإيمـان العـامِّ إلى درجـة الإيمـان الخـاصِّ ... يقـولُ ﷺ " إنَّ الـصِّدْقَ يَهْدِى إلى البِـرِّ وإنَّ البرَّ يَهْدِى إلى الجَنَّةِ و إنَّ الرَّجَلَ لَيَصْدُقُ حَتَى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّـه صِدِّيقًا " حديـثٌ صحيحٌ ، رواه البخـارى ومسلم عـن

" ابن مسعود " ، وانظر إلى خطاب اللـه تعالى حيث يقول : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وقوله جلّ شأنه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣).

فاللـهُ سبحانه وتعالى يؤدّب المؤمنين بمزيد من الأدب معه ، بالخشوع والتقوى والتوبة وغيرها ، لينقلهم من الدرجة العامة للإيمان إلى الدرجات الخاصة منه ...

فالإيمان درجات ... ومنه العامُّ .. ومنه الخاصُّ .. ويليه التقوى .. ويلي التقوى الإحسان ، حيث يدخل في مقام الأبرار ، ثم يكون في مقام المُقَرَّبين.

يقول تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٤).

ويقول:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾(٥).

ويقول : ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٦).

ويقول : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٧).

---

(١) سورة النور آية : ٣١ .
(٢) سورة الحديد آية : ١٦
(٣) سورة المائدة آية : ٨٨ .
(٤) سورة المائدة آية : ٨٨ .
(٥) سورة الأنفال آية : ٢٩ .
(٦) سورة المائدة آية : ٩٣.
(٧) سورة المطففين آية : ١٨.

ويقول : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [1].

ويقول ﷺ : "لا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُـتَّقِينَ حَتَـى يَـدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَـذَرًا مِمَّا بِـهِ بَـأْسٌ" رواه الـتِّرْمِذِي وابـن ماجـة والحـاكم ، وهو صحيح.

فهذه كلها درجات من درجات الإيمان والإحسان ، ولكل درجة منها أدب مع اللّـه تعالى وسلوك وسير يناسب هذا المقام .

• الصَادِقُون والصِدِّيقُون:

يقـول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [2] .

فأهل الجهاد مع النفس في اللّـه تعالى يرفعهم ربهم بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ من درجة إلى درجة ، ويزيدهم من فضله جَلَّ شأنه ، بل إن هناك درجة أعلى وأعزُّ وأكـرمُ عند اللّـه تعالى .. حيث يقـول تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ﴾ [3].

وهنـاك فـارق بـين الـصادقين والـصِدِّيقين، فدرجـة " الـصِدِّيقية " تلـى النبـوة مباشـرة ... وهـم صـفوة عبـاد اللّـه تعـالى دون النبوة والرسالة مباشرة.

---

(١) سورة الواقعة آية : ١٠-١١. (٢) سورة العنكبوت آية : ٦٩.

(٣) سورة النساء آية : ٦٩.

ويقـــول تعـــالى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (1) .

وظاهر معنى الآية يدلُّ على أن هناك نـوعين مـن المقربين إلى اللّـه تعالى ...

الأول : أهل الاختيار .. وهـذا اختيـار مـن اللّـه تعالى واصطفاء منه جَلَّ شأنه لعبده ، فاللّـه تعالى يخْلُقُ ما يشاءُ ، ويختـار ما يشاء ، ويفعل ما يشاء بقدرته وعزَّته وعظمته ، ولا حول للعبد فى هذا ولا قوة ولا فضل ، ألم يقـل جَـلَّ شأنه : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (2) .

والثانى : أهل الإنابة .. وهم أهـل المجاهدة مع النَفْس وأهـل التوبة وأهل التخليط بين الأعمال الصالحة وغيرها.

فـالنوع الأول : محبُـوبٌ عنـد اللّـه ، موكـولٌ إلى اللّـه تعـالى ، يتـولاه بعنايتـه ورعايتـه ولا دخـل للعبـد فـى شـئ مـن هـذا ، بـل خلقـه اللّـه ، واختـاره وأدَّبَـه وعلَّمـه واصْـطفاه وأوصـله الى ماكتبه اللّه له فى علمه القديم .

والنوع الثانى : مُحِبٌّ للّـه تعالى يُجَاهِدُ الهوى والنفس ويعلو ويهبط ، ويتوب ويرجع ، ويتقدم ويتأخر ، حتى ينتقل من مقام إلى مقام ، وحتى يصل إلى ما كتبه اللّه له فى علمه القديم .

---

(1) سورة الشورى آية : ١٣.   (2) سورة البقرة آية : ٢٦٩.

والفضل للّهِ تعالى على الجميع ، ولكن فرق بين الطالب والمطلوب ، وفرق بين المُحِبِّ وسعيِّهِ للمحبوب ، وبين المَحْبُوبِ ورعاية المُحِبِّ له .....

فالنفس والهوى والشيطان لايتركان السبيل إلى اللّه ممهداً أمام العباد ، فهناك زلاّت وسَقَطَات ومشاقٌ وفتن كثيرة ، مع محن وابتلاءات ، يُختبر بها هذا السالِكُ إلى اللّه تعالى .. فإنَّ اللّهَ العزيز العظيم ذو الجَلال والإكرام لابد وأن تكون طريق معرفته ، والتقرُّب منه جَلَّ شأنه فيها الخطر العظيم والمشاقُ الصعاب ، حتى يفوز العبد فى النهاية بأعلى مطلوب وأغلى محبوب .. فإن كان مطلوبك ومقصودك هو اللّهُ تعالى ، فالأمر جَلَلٌ وخطرٌ ، بل ولابد من وجود دليل لك ، سَلَكَ قبلك هذا الطريق ليدُلَّك على أسراره وعقباته ، وكما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [1] .

فمن قصدَ وجه اللّهِ تعالى وأحبَّهُ واشتاق إليهِ ، فهذا أمره غير أمر الذى يتاجر مع اللّهِ تعالى ويرجو الثواب ويخشى العقاب ... فالمحبُّ للّهِ تعالى حريصٌ على إرضائه ، مكتفٍ بحبِّه ، مؤتنس بوحدانيَّته ، غريبٌ عن الخلق والأكوان .. لايريد الدنيا ولايريد الآخرة ، لأن الاثنتين من طلبات النفس ورجائها فى النعيم لها ، إمَّا فى الدنيا وإمَّا فى الآخرة ، فهو فى

---

(١) سورة الفرقان آية : ٥٩.

الحالتين يعتمدُ على عمله ، لِكَسْبِ نفسه سعادةً بالحياة الطيبة فى الدنيا أو بالسعادة بالجنة وما فيها من نعيم .. وهذا وإن كان أمره طيِّبًا ومطلوبًا ، إلاَّ أن الثانى القاصد وجه اللَّه تعالى ، المُحِبِّ له ، لا يرتضى عن اللَّه تعالى بديلا ، لا بدنيا ولا بآخرة .. فقصده وجه اللَّه لا غير ، وغير مشغولٍ بثوابٍ أو عقابٍ .. بل مقصوده أعزُّ من ذلك وأغلى...

يقول تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (١)

ويقول : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (٢).

فهؤلاء صفوة العباد للَّه تعالى .. قوم يحبون اللَّه تعالى ويحبهم اللَّه تعالى ، هم خالصون له ، لا تشغلهم الدنيا ولا الآخرة .

روى الديْلَمِيُّ فى مسند الفردوس عن إبن عبَّاس رضى اللَّه عنهما قول رسول اللَّه ﷺ "الدُّنْيَا حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الآخِرَةِ ، والآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أهلِ الدُّنْيَا ، و الدُّنْيَا والآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أهلِ اللَّه " حديث حسن.

وهؤلاء الصفوة لهم سير إلى اللَّه تعالى خاص بهم.

---

(١) سورة الكهف آية: ٢٨. (٢) سورة الأنعام آية: ٥٢.

ذلك أن هناك عالِمُ باللّـه تعالى .. و هناك عالِمُ بأوامرِ اللّـه تعالى ، فالعالم بأوامر اللّـهِ هُو الذى أحكم العِلم بالحلال والحرام ، والأوامر والنواهى ... فهذا إذا عَبَدَ اللّـهَ تعالى وأناب وجاهد نفسه ، صار ولياً لأوامر اللّـه تعالى ، فهو وليُّ حقوق اللّـه تعالى ، وهى درجة من درجات الولاية .

أما العالِمُ باللّـه جَلَّ وعلا فذاك عالِم بأسمائه وصفاته وتجَلّـيَّاتِه .. فعاش فيها ، وانشغل باطنه بها ، واشتعلت روحه بنور المحبَّة للّـه تعالى .. فإن أخلص واستقام كان وليًّا للّـه تعالى ، وهى الدرجة الأعلى من الولاية لِحَقّ ا للّـهِ جَلَّ شأنه ....

وأصل الولاية .. هو ولاية اللّـه تعالى لِكُلّ المؤمنين : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [1].

ويقـــــول : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [2] . وهذه هى الولاية العامة من اللّـه لكل المؤمنين .

ويقول تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [3].

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٧ . (٢) سورة الأعراف آية : ١٥٥.

(٣) سورة يونس آية : ٦٢-٦٤.

فاللّه تعالى هو الوليُّ ، يتولى العبد بالرِّعاية والحِفظ والهداية ، والعبد كذلك يُطْلَقُ علَيْهِ الوليُّ إذا وَلِيَ اللّه تعالى بالعِبَادة والطاعة والمحبة بصدق الإلتجاء إليه ، فهي صفةٌ من صفات اللّهِ تعالى مضافة للعبد .. وفيها العموم وكذلك فيها الخصوص .

فإذا وَلِيَ اللّهُ سبحانه عبداً بالهداية والرشاد ، وَوَلِيَ العبدُ ربَّه بطاعته والمحبَّة وصِدق العبوديَّة ، ألا تَرَى أنَّهُ في هذه الحالة لابد وأن تنشأ علاقة خاصة بين العبد وربِّه ، أو بين الحبيب وحبيبه ، لها آدابٌ خاصة ، ولها مذاقٌ خاص ، ولها مظاهر خاصة ، تناسب هذا المقام السامي .!!

وهل تكفيك أيُّهَا القارئ الكريم هذه المقدمة الطويلة لتقف على أعتاب معنى حديث رسول اللّه ﷺ عندما سأله سيدنا جبريل عن الإحسان فقال ﷺ : " أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ".

وهل وقفت على أبواب معنى قول الصحابي الجَليل "حارثة "أو "حذيفة "(على روايتين) عندما سأله رسول اللّه ﷺ : " كَيْفَ أَصْبَحَت ؟ .. " فقالَ الصَّحَابيُّ " أصْبَحْتُ باللّه مُؤْمِنًا .. " فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ " لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ .. فَمَا حَقِيقَةُ إيمَانِكَ .. " فقال رضي اللّه عنْهُ : " عَزَفَتْ نَفْسِي عَنْ الدُّنْيَا ، فَاسْتَوى عِنْدِي حَجَرُها وَمَدَرُهَا (أيْ تُرَابُهَا وذَهَبُهَا) ، وَلَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازدَدْتُ يَقِينًا ، وَكَأَنِّي أَرَى

عَـرْشَ الـرَّحْمَنِ بَـارِزًا ، وَكَأنـِّى أَرَى أَهْـلَ الجَنَّـةِ يَتَـزَاوَرُونَ ، وَكَأنـِّى أَسْمَعُ أَهْلَ النَّارِ يَتَعَاوونَ فِيهَا "... !!

أرأيت كيف كُشِفَ حِجَابُ المادّة عن الصحابيِّ الجَليل وعاش مع ربِّه ، وأنوار ربِّه ، وتجَلِّيَّات ربِّه ، وهو يحدِّثُ رسول اللَّه ﷺ بما يشعر به ويعيش فيه ... !! وهل فهمتَ قول رسول اللَّه ﷺ عندما سَمِعَ مقالته فقال له " عرفت فالزم .. عرفت فالزم "..... !!

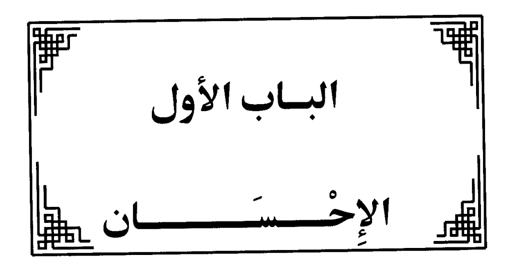
والصادقون بمراحلهم ودرجاتهم .. والصِدِّيقون بمرْتَبَـتِهِم العليَّة والمقرَّبون بمفَازتِهم العظيمة .... كل هؤلاء هُم أهْلُ الإِحسان .

جعلنا اللَّه تعالى منهم بفضله وكرمه وإحسانه ، وثبَّتَ أقدامنا ، وأتمَّ نعمته علينا ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

مقدمة طويلة اعتذر عنها .....

ولنا فى فصول الكتاب التالية تفسير أوضح بتوفيق اللَّه تعالى .

وصلِّ اللَّـهم وسلِّم وبارك على إمام أهل الإحسان ، وسيد المقرَّبين وخير المحبِّينَ المحبوبين ، وعلى آله وصحبه ونحن معهم أجمعين .



الباب الأول

الإِحْسَان

الإحسان والعبودية :

الإحســانُ لغــةً معنــاه الإتقــان والإجــادة ، وكــذلك معنــاه الفضلُ والزيادةُ ، فالذى يُحسِنُ عَمَلاً يستدعى منه ذلك أن يستفرغ علمه كُلَّه ومهارَتَهُ كُلَّها لِحُسْنِ أداءِ العمل حتى يكون فى درجة الكمال أو قريبا منها ...

فالعلم بالصنعة وأسرارها وحده لا يكفى .. بل لا بد من بذل الجهد اللازم لحسن الأداء وتطبيق العلم والمعرفة ...

والخلْقُ يتفاوتون فى العلم والمعرفة ، كما أنهم يتفاوتون فى القدرات ، ولذلك كان إتقانهم أو إحسانهم للأعمال متفاوت الدرجات ، والكلُّ يَظُنُّ نفسه قد أحسن ...

لذلك يأتى التعريف الدينى الشرعى للإحْسَانِ ليقيسَ كل مسلم عمله عليه ... فيقول ﷺ : " **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** " ، وبذلك وضع ﷺ حدود مرتبة الإحسان مع اللَّه تعالى .. وجعله بين مراقبة اللَّه تعالى ، ومشاهدته بالمعنى الشرعى الصحيح ، كما سيأتى تفصيلاً بإذن اللَّه تعالى ...

فإذا لم يصل العبد إلى مرتبة مراقبة اللَّه تعالى فى كل أفعالهِ الظاهرة والباطنة ، وإنْ لمْ يشاهد اللَّه تعالى فى كل أفعاله بالمعنى

الشرعيّ الصحيح ، كما يقول جَلّ شأنه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [1] .. فما دخل بعدُ في مقام الإحسان !!

والإحسان معناه كذلك الفضلُ والزيادة عن حد الاعتدال ... فمن أخذ الحقَّ بالحقِّ فهو من أهل العدل ... ومن عَفَا وأصلح فهو من أهل الإحسان ...

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [2] .

ويقولُ جَلَّ شأنه : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [3]

ويقولﷺ : "إنَّ اللّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُم عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ " رواه البيهقى عن " عائشة " رضى اللّه عنها ...

ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام "إنَّ اللّهَ تَعَالَى قَدْ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ ، وإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وليُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ" حديثٌ صحيح ، رواه أحمد ومسلم والترمذى عن" ابن ماجة " .

فالأمر إلينا من اللّه ورسوله بالإحسان فرضٌ وليس نافلة كما يتصور البعض ، فإن اللّه تعالى كما قال ﷺ : " طَيِّبٌ لايَقْبَلُ إلاَّ

---

(١) سورة البقرة آية : ١١٥.

(٢) سورة النحل آية : ٩٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٩٥.

طَيِّبًا" ، والعملُ الطَّيِّبُ يلزمه الإتقان نية وأداءً .

ويبينُ لنا جَلَّ شأنه فى كتابه العزيز ، الطريق للوصول إلى الإحسان حيثُ يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (1).

ويقول : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (2).

ويقول : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (3).

- فالإسلام هو إسلام الوجه إلى اللّه تعالى وتسليم كل أمورك إليه ، وتوجيه كُلِّ النيَّة الصادقة إلى اللّه تعالى فى عباداتك وعاداتك ..
- والإيمان هو صدق اليقين بصفات اللّه تعالى وأسمائه الحسنى ، وإدراك هذه المعانى ذوقاً وشهوداً بالقلب والنفس والروح .
- ثم يأتى دور التقوى لتزيد من درجة الإيمان ..

---

(1) سورة النساء آية : ١٢٥.

(2) سورة لقمان آية : ٢٢ .

(3) سورة المائدة آية : ٩٣ .

وأولُ ما يَتَّقِي العَبْدُ هوَ أنْ يَتَّقِيَ مَا حَرَّمَ اللّه تعالى .. ثم يَتَّقِي ما اشتبه عليه بين الحرام والحلال .. ثم يَتَّقِي فُضُولَ الحَلالِ فيترك ما لا بأس فيه ، خوفا من الوقوع فيما فيه بأس ... ثم يَتَّقِي الحلال ، فلا يأخذ منه إلا على قدر ضرورته ، لا على قدر نَهَمَتِهِ وشهوته ... ثم يتدرج حتى يَتَّقِيَ كُلَّ ما سِوى اللّه تعالى .. ولاينشغل بالدنيا إلا على قد ر الضرورة التى تبيح له الحياة .. ويجعل كل سعيه وجهده فى سبيل اللّه تعالى وابتغاء مرضاته .

• ثم تأتى بعد ذلك مرتبة الإحسان بما فيها من مراتب ذَوْقِ الشُّهُودِ والرؤيا كما قال ﷺ ...

• يُحْكَى عن سيدِنا الإمام جعفر الصادق ، رضى اللّه عنه أنه كان يتوضأ من إبريق ماء يحمله عبدٌ له .. فسقط الإبريق من يد الغلام على أنف الإمام جعفر ، رضى اللّه عنه ، وكُسِرَ أنفه ، وسال منه الدم ... ، فأدرك العبد أنَّه هالكٌ لامحالة .. ، فقال لسيدِه " والكاظمين الغيظ " .. فسكن غضب الإمام ، وقال لغلامه " كظمتُ غيظى " .... ، فأكمل الغلام"والعافين عن الناس" ، فتبسَّمَ الإمام ، وقال " قد عفوت عنك".. فاستبشر الغلام بِكَرَم سيدِه فأكمل " واللّهُ يحب المحسنين" ، فقال له الإمام " إذهب فأنت حر " ، ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1].

فانظر إلى تقوى الإمام ، وورعه ، وإحسانه حيث جازى المسيء

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٣٤.

إليه ، المُـهْمِلَ فـى أداء واجبـه ، بأن أعتقه لوجـه اللّـه تعـالى ، رحمةً بالعبدِ وابْتِغاءَ وجهِ اللّهِ تعالى ورضوانه ....

ولكى تعلم درجة الإحسان عند اللّه تعالى فانظر إلى قوله جَلَّ شأنه : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1]

ويقول : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [2].

وما ظنك بعبد من عباد اللّه يُدَلِّلُهُ اللّه تعالى ويكرمه ويراضيه ويقول له : " لك ما شئت كما تريد " ....!! بل انظر إلى وصف اللّه تعالى لصفوة خلقه ، وهم الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، حيث يقول : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [3].

ويقـول : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [4].

ويقول : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [5].

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٣٤، ١٤٨ ، سورة المائدة آية : ٩٣.

(٢) سورة الزمر آية : ٣٤ .

(٣) سورة الصافات آية : ٧٩-٨١ .

(٤) سورة الصافات آية : ١٠٩-١١١.

(٥) سورة الصافات آية : ١٢٠-١٢٢.

ويقول : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ (1).

فاللَّـه جـَلَّ شـأنه يمتـدح أنبيـاءه الكـرام - بعـد كمـال إيمانهم ..!! - أَنَّهُمْ هم أهل الإحسان .

ويحق لنا هنا أن نتوقف وِقفةً قصيرة ...

يقول جَلَّ شأنه : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ﴾ (2) ، ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ ﴾ (3) ، ويقول : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ (4) ، ويقول : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (5) ، ويقول : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (6).

فنجـد أن اللَّـه تعـالى قـد مـدح أنبيـاءه الكـرام بـإطلاق صـفة العبودية عليهم ، وفى الآيات الأخرى بإطلاق صفة الإحسان كذلك ...

والربط بين الصفتين واضح ... ذلك أن العبودية الحقَّة تستلزم الإتقان فـى أداء وظـائف العبوديـة وتكاليفهـا الباطنـة والظـاهرة .. مـع الاسترسال مع اللَّه تعالى بكُلِّيته فى كُلِّ أحواله .... فروحه .. وقلبه .. ونفسه .. وجسده كلهم تحت طاعة العبودية المطلقة ، وتحت سلطان

---

(1) سورة الصافات آية : ١٣٠-١٣٢

(2) سورة الإسراء آية : ٣ .

(3) سورة ص آية : ١٧.

(4) سورة ص آية : ٤١ .

(5) سورة الإسراء آية : ١.

(6) سورة ص آية : ٤٥.

الألوهية وعظمتها ... فالذى أتقن وأحسن فى مقامه فى العبودية للّه تعالى .. لاشك أنه قد أحسن تعظيم اللّه تعالى ومحبته جَلَّ شأنه.

فمقام الإحسان كما هو ظاهر هو مقام العبودية الحقّة للّه تعالى .. وهى أعلى وأخَصْ صفة يطلقها اللّه تعالى على صفوة خلقه .. فقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1]، يدُلُّ على أنَّ مقام العبودية للّه تعالى معناه أن العبد قد وفقه اللّه تعالى لأداء الرسالة التى خُلِقَ من أجَلِها .. ، ونال بذلك رِضَا اللّه عنه بصدق العبودية والإحسان فيها ...

فَتَنَبَّه - رَحِمَكَ اللّه وإيَّانا - عن أى مقامٍ نتحدث .. وانطلِق بقلبك وروحك معنا لنحلق فى هذه المذاقات السامية ، والمُدْرَكَاتِ العالِيَةِ الغَالِيَةِ ... من كتاب اللّه تعالى .. وأحاديث رسوله الكريم الذى لاينطق عن الهوى صلَّى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

• ولايتأتَّى للعبد أنْ يَدْخُلَ فى مقام الإحسان هذا قبل أن يُتِمَّ ويُكْمِلَ ويتقن إيمانه باللّه تعالى ، قولا ، وفعلا ، وعملاً .. ، فيلتزم بتقوى اللّه تعالى ، ويَدَع ظاهر الإثم وباطنه ، ويستغرقه ذكر اللّه تعالى فى جميع أحواله قائماً ، قاعداً ، نائماً ، ويوجِّهَ وَجْهَهُ ووجْهَتَهُ ودنياهُ وآخِرَتَهُ إلى اللّه تعالىلا يُريد إلاَّ وجهَهُ جَلَّ شأنه ، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2].

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٦. (٢) سورة العنكبوت آية : ٦٩.

• الصَّادِقُ والصِدِّيقُ:

والإيمان كما يقول ﷺ : " بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً .. أعْلاهَا قَوْلُ لا إلهَ إلاَّ اللَّـه ، وأدْنَاها إمَاطَةُ الأذى عَن الطرِيق .. والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان " كما ذكره مسلم والنسائى عن " أبى هريرة " ، وكم بينهما من أمورٍ وأوامر على العبد أن يقوم بها ، ويجاهد حتى يستقيم حاله الظَّاهر والباطن .. وعلى العبد الجهاد ، أمَّا الهُدَى فمِنَ اللَّه تعالى فضلاً مِنْهُ وتَكَـرُّمًا .

• والاهتمام كله يكون على القلب وما يشغله .. فإن قيمته ودرجته عند اللَّـه تعالى إنَّمَا هِىَ بِقَـدْرِ ما يشغَلُهُ وما يهْتَمُّ به ... سواءُ بِأمور الدُّنيا الفانية .. أو أمور الآخرة ... أو بطلب وجه اللَّه تعالى ومحبَّتِهِ ورِضاه ...

فرسول اللَّه ﷺ يخبرنا أنَّ فى الجسد مُضْغَةً ، إذا صَلُحَت صَلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ... ألا وهِىَ القَلْبُ .... فإن القَلْب بما رُكِّبَ فيه من نَفْسٍ وروحٍ معاً ، هو مَحِلُّ الجِهَادِ فى سبيل اللَّه .. فإن مال إلى الدنيا وشهواتها .. فقد فسد والعياذُ باللَّه ، وإنْ سما إلى اللَّه تعالى ، وأنوارِهِ فقد أفلح وفاز .. ، ثم يأتى بعد ذلك دورُ الجوارحِ ، وهى فى النهاية المطيعة لما يكون فى القلب من فساد أو تقوى ، فالقَلْبُ هو الآمرُ الحاكمُ .. والجوارحُ هِى عبيدهُ المُنَفِّذةُ .

يقول ﷺ " **القَلْبُ مَلِكٌ وَلَهُ جُنُودُ ، فإذا صَلُحَ المَلِكُ صَلُحَتْ جُنُودُهُ ، وإذا فَسَدَ فَسَدَتْ جُنُودُه** " رواه البيهقى عن " أبى هريرة ".

• ومِنَ المعتاد أنْ يكونَ السلوكُ والسيرُ للعبْد إلى اللّه تعالى بالكيفية التَّالِيَة - ولكن ليس هذا شرطاً ولا قانوناً ، فاللّه تعالى قادرُ أن يفعل ما يريد كيف شاء بعبده فى لحظة واحدة - ولكننا نتحدث عن عموم السلوك إلى اللّه تعالى ....

أ- الزهد بالقلب فى شهوات الدنيا ، وعدم الانشغال بها ، إلاّ على قدر الضرورة التى تبيح له الحياة الكريمة التى تناسب مستواه .. ولايمنعُ الزُّهْدُ فى الدُّنْيا من أن يكون العبْدُ مشغولاً فيها ، وفى مظاهِرِها ، وفى السَّعْيِّ فيها للكسب الحلال .. ، ولكنَّ المقصود هو أن تكون يداه مشغولتين بالدنيا ، ولكنْ قلبه مُعلَّقٌ باللّه تعالى ، فلا يفرحُ بما يأتيه فيها ، ولايحزنُ على ما فاته منها .. إنَّمَا يكونُ فَرَحُ المُؤْمِنِ بفضلِ اللّه عليهِ ورحمتهِ بِهِ لاغير .

ب- البُعْدُ عن الكبائِرِ والمُنْكَراتِ .. ثم الصغائرِ والأمورِ المشتبهةِ .. والمسارعةُ إلى التوبَةِ الصَّادِقةِ إنْ زلَّ وسقطَ ، ومهما تكرر الذنب يكرر التوبة الصادقة ... ويكثر من ذكر التوحيد والاستغفار ....

جـ- القيام للّه تعالى بالعبادات المفروضة ولا يتهاونُ فيها ولا يُسوِّف فى أدائها.. ويلى ذلك القيام بأداء سنَّةِ رسول اللّه ﷺ قدر استطاعته ..، وحتى تصير العبادة له عادةً لا يستطيعُ الانقطاع عنها .. وكل يوم هو فى ازدياد ، ويكون مع اللّه دائمًا ، بين الخوف من عقابه،

والرجاء فى ثوابه .

د- الرُّقيّ بالأدَبِ مع اللّه تعالى فى عباداته ، وعاداته ، واقترابه من سُنَنِ رسولِ اللّه ﷺ ويحاول أن يكون ظاهره كباطنه نقاءً وصفاءً وطاعة للّه تعالى ، ويتلمس سُنَنَ الرسول ﷺ فى أحواله ، من تسليمٍ ، وتصديقٍ ، وتفويضٍ ، وتقوى ، وورعٍ ، وشكرٍ و غيرهم ، ويزدادُ للّه تعالى ذكرًا بلِسَانه وقلبه ، ويُكْثِرُ من الصلاة على رسوله ﷺ .

هـ- يرْتقى فى معاملته مع اللّه تعالى مِنَ انْتِظَارِ الثَّوابِ على عبادتهِ وأعمالِهِ ، إلى يقينه بأن الفضل كُلَّهُ للّه تعالى فى توفيقه فى أدائها ، فتصبحَ عبادته مع ربه عبادة الشاكرين ، المؤدِّينَ حقَّ الشُّكرِ للّه تعالى ، وهذه درجةٌ أعلى منْ درَجَةِ عِبَادَةِ الطَّامِعِينَ فى الأَجْرِ والثَّوَابِ .. ، كما تُصبح عبادته ليستْ عادة تعوَّد عليها .. بلْ شُكْراً للّه تعالى.

و- إذا استقام فى عبادَتِه للّه تعالى بِبَدَنِه وقلبه وروحه بهذه الصِّفَة السَّابقة فلابد وأنْ يَتَحَرَّكَ قلبه لمحبَّةِ اللّه تعالى والإحسْاسِ بعظمته وكبريائه ، فتُداخِلَهُ الهَيْبَةُ مِنَ اللّه جَلَّ شَأْنُهُ ، فيجِدَ لِعِبَادتِه طعمًا وذوْقًا آخرَ فى معاملته مع خَالِقِه جَلَّ شأنه ، ويُذِيقُهُ اللّه تعالى فى قلبه بعض أنوار صفاته جَلَّ شأنه ، فيميل بطبعه حينئذٍ إلى عوالمِ الملكوت ... ، ويجد لعبادته لَذَّةً وشوقا ....

ز- إذا ارتقى إلى مقام الحُبِّ للّه تعالى فحينئذٍ لا يشغَلُهُ ثوابُ ولا عِقَابُ ولا يهتمُّ بأمْرِ الدُّنْيَا ولا أمرِ الآخرةِ .. ولكن يكون هَمُّه كُلُّه على اللّه تعالى ، طالباً رِضَاه ومحبَّتَهُ وقُرْبَهُ ، وتقِلُّ رغباتهُ الدنيوية -بل وتنزوى رغباته الأخروية كذلك- قاصداً وجه اللّه تعالى لا غير ، بلْ قد يفقدُ لذَّةَ العِبَادَةِ والذِّكْرِ التى كان يجِدُهَا فى المرحلة السابقة.

ح- كُلَّمَا تَمَسَّك ظاهِرُهُ وباطنه بأوامر اللّه تعالى وسنَّةِ رسولهِ ﷺ ظاهراً وباطناً ، كلما استنار قلبه وارتقت روحه وبدأت تتلقى من اللّه تعالى أنوار الهِدَايَةِ الرَّبَّانِيَة ، وكلما تشرَّبَ قلبُهُ بأنوار الهداية المُحَمَّدِيَّةِ، فيدْخُلَ فى بابِ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (1) . وكذلك يصدق عليه حديث رسول اللّه ﷺ " **اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّه**" كما رواه البخارى والترمذى وغيرهم .

والقياسُ فِى هذه المرحلة هو أن يكون تمسُّكُهُ بالعبادة من باب المحبَّةِ والشوق للّه ورسولِهِ ، لا من بابِ الأمرِ والطاعة فقط ..

ط- فى هذه المرحلة السامية يفيض اللّه تعالى على عبده بأنوار هدايته وعلمه ، فيستَمِدُّ من باطنِ أسرارِ شريعة رسول اللّه ﷺ أنواراً عظيمة ... فالعبد قد اقترب من اللّه ورسولِهِ بروحهِ وقلْبِهِ ، فلابد أن يهدِىَ اللّه قَلْبَهُ ويُعَلِّمَهُ ، ولابد أن يكون مُرْشِدُهُ وسيدُهُ وإمامُهُ رسول اللّه ﷺ ، وأكرِم به من مؤدِّب ومعلِّم ﷺ .

---

(1) سورة البقرة آية : ٢٨٢.

وقياسه هنا هو أن يُحِبَّ صَادقًا كل ما يُحِبُّ اللّـه ورسوله ، وأنْ يكره كل ما يكرهُ اللّـه ورسُولُه ، أو كما يقولُ ﷺ أن يكون هواهُ تبعا لِسُنَّة رسول اللّـه ﷺ .

ى- قدْ تظهرُ للسالكِ إلى اللّه بهذه الكيفيَّة بعضُ الأمور الكونية أو ما نسميها بالكرامات كما كانت تحدُثُ للكثير مِنْ صَحَابَةِ رسول اللّـه ﷺ ، والمجالُ هنا لايتَسِعُ لسرْدِها .. ولكنَّها عُمُومًا سَبَبُهَا هو تعلق العبْدِ بعوالِم الغيبِ والملكوتِ مع الزهد في الدُّنْيَا وزينتها وسرابها .. لذلك قد ينكشف له بعض عوالم الملكوتِ ويتعايشُ معها .. فإنَّه ينظر بنور اللّـه تعالى وليس بنظرِهِ هُو ... واللّـه تعالى يؤتيه الحكمة من عنده وليس بعقله هو .. أى أن اللّـه تعالى يتولاَّهُ بالعِناية والرعايةِ .. واللّـه فعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ مع عبده .. فقد يكرمه بدعاءٍ له مستجاب ... أوبحب الناس له وطاعتهم لأوامره ... ، أو يرزقه من حيث لا يحتسب ... ولا حرج على فضل اللّـه ...

ك- فى هذه المرحلة الخطيرة التى يبدأُ العَبْدُ فيها التعامل مع بعض عوالم الملكوت ، ينقسم أهل هذه المرحلة إلى قسمين ..

القسم الأول : يَنْبَهِرُ بما يرى من الأنوارِ والأسرارِ فى الكون ، وقد يقف عندها بدعوى أن له دعوةً مستجابةً ينفعُ بِهَا الخَلْقَ ، أو قُدْرَةً على التصرُّفِ الغير عادى فى الملائكة أو الجنِّ ، فَيَظُنُّ أنَّ هَذِهِ بغيتُهُ وكفى ... أو يجتمع النَّاسُ حَوْلَهُ ويروون صلاحه وتقواه فيغتُّر بنفسه ، ويظن أن ما وصل إليه إنَّمَا وصل إليه

بجهده وعمله ، وليس بفضل اللّـه وكرمه ، فيزيد من أعماله بقصد زيادةِ المرتبة عنْدَ النَّاس ، وليس بقصد زيادة العبادة محبة للّـه تعالى .. وهناك تكون الطَّامَّة الكُبرى ، لأن نيَّته وإخلاصه كانا أولا لعبادة اللّـه وفي انتظار فَضْلِ اللّـه ، وهنا تحولت النية والقصد إلى زيادة العبادة لزيادة مرتبته هو .. ، فهو في الحقيقة نزل مرة ثانية إلى مرتبة انتظار الجزاء ، والغرورِ بنفسه وبأفعاله والاعتماد على طاعته .

والقسم الثاني : لايلتفت إلى كل هذا ، بل قلبه وعقله وعمله موجّه إلى اللّـه تعالى ، لا إلى أكوان اللّـه تعالى ، فلا دخل له بما يراه ويسمعه لا من الناس ولا من غير الناس ، بل هو خاضعٌ للّـه ، عابدًا ، زاهدًا فيما سوى اللّـه ، يعبد اللّـه حُبًّا في اللّـه لا غير ، وتعظيمًا وتقديسًا له جَلَّ شأنه ، مع يقينه الكامل بأن عمله مهما عَمِل لا يساوى عنْدَ اللّـه جناحَ بَعُوضَةٍ ، فَالفَضْلُ كُلُّهُ للّـه تعالى .. وما أعماله إلا تصديقًا منه لِعُبُودِيَّتِهِ المحْضَةِ للّـه تعالى .

ل- من القسم الأول : وهو من يقف فَرِحًا بما ناله من مكاسب في الدنيا ، وإقبال الأكوان عليه ، وبعض خوارق العادات.. منهم من ينتكس والعياذ باللّـه غروراً بنفسه وبقواه الجديدة ، وقد يرجع إلى الدنيا بدعوى مصالح الناس وقضائها وهو في الحقيقة يريد مكسب نفسه بحب الناس وتقديرهم وقضاء مصالحهم .. وكُلُّ هذا لنفسه وليس للّـه تعالى .. وقد تلعب به

الـشياطينُ وترديـه إلى أسـفل الـسَّافلين ، وتـصير الكرامـات التـي تجرى علـى يديـه هـى مـن بـاب الاسـتدراجِ والفتنـة لـه ولمـن حولـه لا غير ...

والقسم الثـانى : الـسالكُ إلى اللّـه لا يلتفت يُمنَـة أو يُـسرَة هـو مقـام " الـصَّادقين " مـع اللّـه تعـالى وهـو يعلـم أن الأمـر كلـهُ مُفَـوَّضُ للّــه .. وأنّ مـا وصــل إليــه مــن مقــام روحــيّ لــيس ســببه عبادتــه وجهـده، ولكـن بفـضل اللّـه وبرحمتـه ، الـذى وفقـه وهـداه وقَـوَّاه وأجـرى الخـير علـى يديـه ، ويقينـه أن اللّـه تعـالى يُعِـزُّ مـن يـشاء ويُذِلُّ من يشاء فى أقل من لمحِ البصر ....

وأهـل القـسم الثـانى – أهـلُ الـصِّدْقِ والمُجَاهَـدَةُ – هـم أهـلُ تعـبٍ ومـشقَّةٍ ، فهـو يبحـث عـن أمـراض قلبـه ليداويَـها بالعبـادة والـذكر، ويبحـث عـن مـداخل الـشيطان إليـه وهـواه ، حتـى فـى العِبَـادة ، حـريصٌ علـى إخلاصـه للّـه تعـالى ، يجاهـد ليبتعـد عـن الرِيَـاء ، والنفـاقِ ، والـشركِ الأصغر وغيرهـا ، فهـو فـى هَـمٍّ دائـمٍ وعمـل دائـبٍ ، عـسى اللّـه تعـالى أن يَمُـنَّ عليـه بالفـضل مـن عنـده .. والثبات بقوتهِ .

وهذا هُو حَالُ الأبرار الكرام ... أهلُ مجاهدةٍ وخوفٍ وترقُّبٍ وابتلاءٍ بالناس والكون ، وهؤلاء الذين يقول فيهم رسول اللّه ﷺ:

" لَوْ كَانَ المُؤْمِنُ فِى جُحرِ ضَبّ لَقَيَّضَ اللّه تَعَالَى لَهُ مَنْ يُؤْذِيه " كما رواه الطبرانى والبيهقى عن " أنس " .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [1].

يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [2].

وسبب هذا البلاء والابتلاء أنَّ العبْدَ فى هذه المرحلة ناظر إلى اللّه تعالى بعينٍ .. وناظر إلى نفسه والخَلْق بالعينِ الأخرى .. فلا هو مع اللّه بِكُلِّيَتِه وهِمَّتِهِ جمعاء ولاهو مع الخلق بِكُلِّيَته .. ولكنه مَرَّةً هنا ومَرَّةً هناك .. فإذا فعل فعلا للّـه تعالى ظَلَّ يجاهد حتى يُخَلِّصَهُ من الرياء والنفاق ونظر الناس إليه ، وخوفه من أن يكون هذا الفعل إنَّمَا هو حسب هواه وما تحبُّه نفسه .. كذلك إنْ جاءه خاطرُ جعل يجاهد حتى يعرف هل هذا خاطر رحمانيٌّ أمْ خاطر شيطانيّ وكيف يفرق بينهما ، لأنَّهُ يعلم أنَّ النَّفْسَ والهَوى قد يأمُرانِ بنوعٍ من أنواع البرِّ ليوقِعاهُ فى النِّهَايَةِ فى عمل فاحش ، فقد يزينان له الالتزام بظاهر الشريعة وزيادة التقوى خاصة أمام الناس بدعوى أنه القدوة والأسوة الحسنة لغيره ، فلابد أن يتقن ظاهره حتى لايفتن الناس .. وهذا خاطرٌ طيبٌ ولكنه خطر ... لأنه إذا ترسَّخ هذا الأمر فى نفسه -وظاهره طيب- صار هَمُّه الأول والأخير أن يُظْهِر العبادة وأعمالَ البِّر للخلق ، واكتفى بهذا ، ونسى قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [3] .. وتبدَّلت نِيَّتُهُ

(١) سورة محمد آية : ٣١.
(٢) سورة التوبة آية : ١١٩.
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٥.

في العِبَادة ووقع في المحظور ...

والأخطار في هذا المسار كثيرة ...

ويقول ﷺ " **الشهْوَةُ الخَفِّيةُ والرياءُ شِركٌ** " حديثٌ حسن ، رواه الطبرانيّ عن " شدّاد بن أوس " ويقول " **الشِركُ أخْفَى مِنْ دَبِيبِ النمْلَةِ عَلَى الصَفَا فِي الليْلَةِ الظَلْمَاء** " رواه الحكمُ والحاكمُ عن " عائشة " رضي اللّه عنها .

وهذا الخطر سببه عدم إتقانِ توحيدِ اللّه تعالى في القلب .. فلو أحسنَ التَوْحِيدَ حقًا ، لَعَلِمَ أنَّهُ لا موجود بحقٍ إلاَّ اللّه تعالى .. وكُلُّ الأكوانِ صُوَرٌ مخلوقةٌ تروحُ وتجيئُ ، ولاتملك من أمرِ نَفْسِها شيئاً .. فحينئذٍ لايرى أمامَهُ إلا اللّه تعالى في كل شئونه وأفعاله ، فلا يبحث ساعتها عن الإخلاص .. ، ولمن يكون الإخلاصُ وهو لايرى إلا اللّه .!! وكيف يخْشَى الرِّيَاءَ ، وهو لايرى إلا اللّه ظاهِرًا باطناً !! .

فهذه درجة الأبرارِ المُجَاهِدِين الكرام البررة ، وهي درجة الصَّادقين معَ اللّه جَلَّ شأنه ...

م- وتبقى في النهاية درجة الصدِّيقين .. المقرَّبُون إلى اللّه تعالى .. أولئك الذين فطرهم اللّه أصلاً على الفطرة السليمة والقلب الطاهر النقيّ .. وجعل قلوبهم محل أنواره وجذبه ، بداية ونهاية .. ، بعلْمِهِم أو بغير عِلْمِهِم .. بِعَمَلِهِم أو بغيرِ عَمَلِهِم .. ولكنَّ اللّه تعالى قد هيأهم من البدايةِ لأنْ يكونوا من الصِّدِّيقين ، الذين هُم خلفَ الأنْبياء مباشرةً .. وهي درجةُ قُربٍ أعظم للعباد ، لاينالها العبد بجهده أبداً ... بل

بفضل اللّه وإكرامه له ..

يقـــول تعـــالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ (1).

نعم .. قد يمُنُّ اللّه على عبده الصادق المخلص الأمين ، عندما يستفرغ كل همِّهِ وجهده وحيلته فى سبيل اللّه تعالى ، ثم يوقن تماما أن الأمر كله ليس مُدْرَكاً بعمله ولا بإخلاصهِ .. وإنَّمَا الأمرُ كله هو فضل من اللّه تعالى ورحمة منه لعبده الصادق الذى هو بلا حولٍ له ولاقوةٍ .. فيقف أمام اللّه تعالى موقف السَّائل الفقير المِسكين العاجز عن إدراك فضلِ اللّه بعمله مهما عَمِلَ وقَدَّمَ .. فحينئذٍ قد يَمُنُّ اللّه عليه فيرفعه فى لمحةٍ عينٍ من درجة الصادقين إلى درجة الصِدِّيقين رضى اللّه عنهم وأرضاهم وألحقنا بهم فضلا منه وجوداً وإحساناً ...

وتستطيع القول بعد هذا الموجزِ أنَّ المؤمن .. الصادق .. البارّ .. التقىَّ ، موكولٌ إلى نفسه وأفْعَالِهِ ، واللّه تعالى يتولاه بالهدى والرعاية .. فهو فى درجة الولاية العامَّة من اللّه تعالى ...

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (2).

أمَّا الصِدِّيق فهذا عبدُ لم يكِلْه اللّه تعالى إلى نفسه بل تولى جَلَّ شأْنُهُ رِعَايَته ووكَالَتَهُ وحِفْظَهُ ...

والصادقون والصِّدِّيقون هم المقرَّبون عند اللّه تعالى ، ولكن فرق

---

(1) سورة الحديد آية : 19.

(2) سورة العنكبوت آية : 69.

بين طالبٍ ومطلوبٍ ، كما قلنا أيضا بين محب ومحبوب .

ولايجب على اللّـه تعالى شيئُ من كلامنا هذا ، واستغفر اللّـه تعالى مما قلت وأقول .. فإن اللّـه لايجب عليه إلا ما أوجبه بذاتهِ على نفسه .. وهو فعالُ لِمَا يُرِيدُ .. ويؤتى المُلْك منْ يشاء وينزع المُلْك ممَّنْ يشاء ولايُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ.

فلا تظن أن هذه الدرجات التى تحدَّثنا عنها لابد وأن تسير بهذه الكيفية .. بل للّـه فى خلقه شئون ، وهو القاهر فوق عباده جَلَّ شأنه ..

ولكننا أردنا فقط أن نُعْرِّف ما جرت عليه سُنَّةُ اللّـه مع عباده كما عَلَّمَها لَنَا وأوضحها لنا على عامَّةِ الخلْق ... أما فِعْلُ اللّـه تعالى فى خلقه واصطفائه لهم فلا يُسألُ عما يَفعل ، وليس هناك قانون ملزِم ولا سياسة تتبع ، وجَلَّ اللّـه تعالى عما نقول علوًا كبيرا ، مالك الملك وهو على كل شئ قدير ..

انظر إلى قول رسول اللّـه ﷺ " **ولايَزالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحرَّى الصِدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّـه صِدِّيقًا** " ... ، فالصادق مشغول بصِدْقه ويتحرَّى الصِّدق فى القول والعمل والنفس والروح والقلب .. هذا هَمُّهُ وانشغاله حتى يتغمَّده اللّـه تعالى برحمته فيفيضُ عليه من إكرامه فيكتبه " صِدِّيقاً " ويرفعه جَلَّ شأنه إلى مقام الصديقين .. فضلا من اللّـه ونعمةً ...

وظاهرُ مما أسلفنا .. أنَّ صفوة العباد عند اللّـه تعالى بعد الرسل والأنبياء هم الشهداء .. والصِدِّيقون.. والصادقون .

والشهداء معلومٌ أمرُهُم .. والصَّادق والصِّدِّيق هُمَا من المقَرَّبين.. ولكن لاحظ أنْ لكلٍّ منهما منهجُ وأدبُ مع اللَّه تعالى ..

ونحن لانتكلم عن الأمور الشرعية الظَّاهِرة التى لابد وأن تكون موجودة بالضرورة فى الجميع ، فالالتزام بأوامر اللَّه تعالى ظاهرًا باطناً ، والتمسك بسنَّةِ رسوله ﷺ ظاهرًا باطنًا ، لابد وأن يكونا منهجهم وسيرهم وسُلُوكُهُم إلى اللَّه ... هذا أمر مفروغ منه ..

ولكننا نتحدث عما فى القلوب من أدبٍ رفيعٍ مع اللَّه تعالى ، وخصائصِ العُبُودِيَّة العالية التى فيها هذان الصِّنْفَانِ ، حتى نصل إلى قول رسول اللَّه ﷺ "أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ".

فالأمر فيه عبادةٌ للَّه .. والأمر فيه رؤيا .. والرؤية فيها درجتان رؤية منك .. **(كأنك تراه)** .. ورؤية عليك .. **(فإنه يراك)** ...

وحاشا للَّه تعالى أن يكون مقصود الرؤية هى رؤية العين ... فاللَّه تعالى ليس كمثله شيئ .. وجَلَّ اللَّه تعالى وتبارك عن رؤية العين البشرية المحدودة الترابية .

وبالقطع يكون المقصود هو الرؤية بالبصيرة والروح بالكيفية التى تليق بجَلَالِ اللَّه وعظمته ، ولذلك أَفَضْنَا فى الكلام عما يكون فى نفوس وأرواح الصادقين والصدِيقين ، والفارق بينهما فى الأمور الروحية والاستعدادات الباطنية التى يُكرِمُ اللَّه بها عباده هؤلاء ، تأهيلاً لهم لما

أراده اللّـه لهم فى سابق علمه القديم ، وحظّهم من هذه الرؤيا ....

فاللّـه تعالى إذا أراد بعبدٍ أمرًا فإنَّهُ يؤهِّلُهُ لأداءِ هذا الأمر ...

أنظر إلى قوله تعالى فى سورة الإسراءِ : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ .

فاللّـه سبحانه أسرى بعبده محمد ﷺ " لِيُرِيَهُ " ويكشف له عن بعض الآيات العظيمة ... وهذه المشاهدة تستدعى إعدادا خاصًا لتتم الرؤيا .. لذلك قال اللّـه تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ .. أى محمد ﷺ جعلناهُ سميعاً بصيراً .. ليسمع ما لا يستطيع أن يسمع غيره ويرى ما لا يستطيع غيره أن يراه .. تجهيز خاصٌّ لرسولِ اللّـه لِيَنْعَمَ بفضل اللّـه تعالى عليه .

فإن قلت أنَّ اللّـه تعالى هو السميع البصير .. أجبتك وكم من صفة للّـه تعالى يُطْلِقُهَا اللّـه على بعض عباده فى حالات معينة تكريماً لعبده ، ولحكمة قد تظهر وقد تَدِقْ .!! ألم يصف اللّـه تعالى الرسول ﷺ بأنه رءوف رحيم .. وهما من صفات اللّـه تعالى . !!!

• عودًا إلى حديث الرسول ﷺ وهو يقول" أنْ تَعْبُدَ اللّـه كَأَنَّكَ تَرَاهُ " فإنَّ أول ما يلفت النظر كلمة أنْ تَعْبُدَ اللّـه .. والعبادةُ فيها عبدُ ... ومعبودُ ، وفيها أمرُ .. وطاعةُ .. ، وفيها ظاهرُ وباطنُ .. ، فيها كلام ومناجاة .. ، وفيها رضا ومحبَّة ، وفيها خوف وهيبة .

روى ابـن ماجـة والحـاكم وابـن حنبـل قـول رسـول اللّـه ﷺ **" قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى مِنْ قَبْلِكُم مِنَ الأُمَمِ أُنَاسُ مُحَدَّثُـونَ ، فإنْ يَكُ فِى أمّتِى أحدٌ مِنْهُم فَهُـو عُمر بن الخطّاب "** حديثٌ صحيحٌ ، رواه عرباض.

فـالأمر لـيس مقـصوراً علـى الرؤيـة .. بـل هنـاك مُحَدَّثُون أيـضا ، ورسول اللّه ﷺ لم يقصر الأمر على عمر بن الخطاب ، بل يذكره على سبيل التزْكِيَةِ والمِثال ...

• ذهبَ جماعةٌ من الخـوارج إلى الإمام علىٍّ كَرَّم اللّـه وجهِهِ ورَضِيَ عنه ، معترضين يُرِيدُونَ أن يقيموا عليه الحُجَّةَ ، وقالوا مُستَنْكِرِينْ: سَمِعْنَا يا علىُّ أنَّكَ تزعُم أنـك ترى اللّـه ؟؟؟ وانتظروا أنْ يستَنْكِرَ الإمام هذا القول عنه .. فإذا بِهِ كَرَّم اللّـه وجْهَهُ يقـول " وكيف أعبد من لا أراه!! " وصدق الإمام .. كيف يعبد مجهولا غير معلوم لديه .!!

ولكـنْ كـان للسَّائلين المُستَنْكرِينَ غَـرَضٌ فِـى سُـؤالِهم .. وكـان لمولانا الإمامِ غرضٌ آخر ومعنى دقيق فى الردِّ عليهم .. والإمام كرَّم اللّه وجهَهُ أجَلُّ قَدْراً وأعَظَمْ عِلْمـًا مِن أنْ يَقَعَ فِى مَحْظُورٍ شرعيٍّ .. فما يقصده هو من الرؤْيا هو غير ما يقصده المستنكرون من معنى الرؤيا ..

وورد عن مولانا وسيدنا " عمر بن الخطاب " قوله " إنِّى لأجَهِّزُ جيْشِى وأنا فى الصَّلاة ... " وكُنْتُ كثيرًا ما أتَعَجَّب كيفَ ينْشَغِلُ مولانا وسيدنا "عمر " عـن الخشوع فى الصلاة بغيرها .. ثم أدركْتُ أنَّ هذا إنَّما كان فتحًا من اللّه تعالى عليه وإلهامًا من اللّـه لَهُ .. وهذا لا يشغله

عن ربِّهِ ولاعن صلاته .. فإن الملائكة نادتْ سيدِنا زكريا وهُوَ قائِم يُصَلِّي فِي المِحْرابِ وبشَّرُوه بيحيى ...

وعلى هذا فقد اصبح عندنا أهلُ الرؤيا .. وأهلُ الحديث .. ولكل جماعة منهم درجات بعضها فوق بعض .

وظاهر قول رسول اللّه ﷺ " فان لم تكن تراه فإنه يراك " يستلفت النظر ..

فكل المؤمنين يعلمون ويؤمنون أن اللّه يراهم ومطلعٌ عليهم .. فماذا يخص مرتبة الإحسان إذاً مِنْ هذا المعنى .. إذا كان كل المؤمنين يشتركون فيه !!!

أقول وباللّه التوفيق .....

قد اتفقنا على أن الرؤية المقصودة لايمكن أن تكون بالعين .. بل هى بالبصيرة والقلب والروح ، والرؤية معناها الحضور مع اللّه تعالى، والحضور يستلزم المناجاة منك إليه وأنت فى عبادتك له .. فإنك أنت المتحدث بالتسبيح والتقديس والتكبير .. فهذه درجة ...

أمَّا أنَّهُ جَلَّ شأنه يَرَاكَ ، فهو حُضُورُكَ مَعَ اللّه تَعَالَى فِى حَضْرَتِهِ الأَعَمِّ الأشْمَل اللائِقَةِ باسْمِه تَعالى الواسِعِ العَلِيم .. فأنت حاضرُ مُستَلْهِم .. هو يراك وهو يناجيك .. وهو يحدِّثُك .. وأنت فى مقام السكون تحت عظمة الهيْبَةِ وَكِبْرِيَاءِ ذِى الجَلالِ والإِكْرامِ ..

وفى تقديرى – واللّه تعالى أعلم – أنَّ المَرْتَبةَ الأُولى "كأنك تراه " فيها تحديدٌ لِمَا لا يُحَدُّ ومَن ليْسَ كَمِثْلِهِ شَيئُ .. لذلك فأنْت تراه

على قدرِك أنت ، وعلى قدر روحك أنْت ...

أما المرتبة الثانية .. فهِيَ الأعلى والأنْسَب لعظمةِ اللّـه تَعَالى ...، فهو جَلَّ شأنه يراك بإطْلاقِه وبلا تَحْديدٍ ولاتحجيرٍ .. وفيها الإنعام منه إليك والتلقِّي منك به .

● ولاحظ أنه في كل أحاديثِ رسول اللّـه ﷺ والذى لاينطق عن الهوى .. والذى أوتى جوامع الكلم .. أقول في كُلِّ أحاديثه تجد دائمًا معانٍ دقيقةٍ عالية المغزى لايدركها إلا أهلها .. ويمرُّ عليها أغلب القارئين دون أن يدركوها ... ولا يلتقطها إلا أهلها .. جعلنا اللّـه تعالى وإيَّاك منهم ....

● وطالما وصلنا إلى أمر الرؤيا والحديث لطبقة المحسنين .. فلابد أن يثار هنا سؤال ..

وما الذى يمنع عامة المؤمنين من هذه الرؤيا وهذا الحديث ؟؟

وبإيجازٍ شديدٍ نَرُدُّ على هذا التساؤل بقولنا :

المانعُ من أن تكون هذه الخصوصية لكافةِ المؤمنين هما أمران أساسيان :

الأول : الحُجُبْ التى بين العبد وربِّه ، ومدى قدرته على اختراقها .

الثانى : النُّورُ الذِى يرى به العبد ، ويخترق به ما شاء اللّـه له من الحُجُبِ ، ونصيبه ورزقه من هذه الأنوار ......

وسوف يكون هذا ما نفصله فى الأبواب التالية بإذن اللّه تعالى..

فتح اللّـه علينا وعليكم ، وجعلنا وإياكم فى مقام المحسنين المخلَصين ، وعلَّمَنا ما ينفعُنا ، ونفعنا بما علَّمَنا .

• وصلَّى اللّه تعالى وسَلَّم وبارك على عبده وحبيبه مولانا وسيدنا محمد ، وعلى آلهِ وصحْبِه و التابعين ونحنُ معهم أجمعين .

• الكونُ وعوالمه:

لـن نـدخل فـي تعريفـات فلـسفية ... ولكننـا نقـولُ ببـساطة شـديدة : الكـون هـو كـل مـا خلـق اللّـه تعـالى ... وسـواء قـال العلمـاء أنـه كـون واحـد أو أكـوان عديـدة ، فـالأمر لا يخـصُّنا ... فكـل ما خلق اللّه تعالى هو الكون ...

وهذا الكون الذى نعيش فيه يحتوى على عدة مظاهر أو عدة حقائق ... وكـل مجموعـة مـن هـذه المظاهر أو الحقائق يجمعها إطار واحـد ، ويحكمهـا قـانون واحـد ، يختلـف عـن القـانون الـذى يحكـم مجموعـة أخـرى مـن هـذه الحقـائق .. ، وكـل مجموعـة مـن هـذه المجموعات نُسَمِّيهِ " عَالَمَاً " .....

فهناك مثلا عَالَمُ النبات .... وهى مخلوقات ثابتة تنمو فى اتجاه واحد ، وتتغذى بطريقة واحدة ..

وعَـالَمُ الحيـوان وهـو مخلوقـات حُـرَّةُ الحركـة بالإضـافة إلى نُموِّها ، وهو أنواع كثيرة ..

وعَالَم الجماد وهو مخلوقات ثابتة .. لا تنمو ولا تتحرك بذاتها ، وهو أنواع شتى ...

وهنـاك عَـالَمُ الأفـلاك وهـذا فيـه مخلوقـات لهـا مواصـفات خاصـة كذلك ، وتتحرك فى مساراتٍ محددة

وهكذا ... عالَمُ البحار ، عالَمُ الجراثيم ، عالَمُ الصخور ... الخ .

وكُلُّ عالَمٍ من هذه العوالِمِ يحكمه قانون عام خاص به ، بحيث ينطبق على كل ما فيه من مخلوقات ، .... ولكنه لامانع من أن ينقسم هذا العالَمُ نفسه إلى أقسام عديدة ، ويكون لكل قسم منه قانون خاص أيضا داخل الإطار العام ..

فمثلاً عالم الحيوان له قانون خاص يشمل تكوين مخلوقاته ، والأسلوب العام لنشأتهم ، وتغذيتهم ، ونموهم ، وفنائهم فى النهاية .. ، ولكننا نجد داخله :

عالَمَ الحيوانات المائية التى تعيش فى الماء فقط كالأسماك وغيرها ... ،

وعالم الحيوانات البرية التى تعيش على الأرض فقط ...

وعالم الحيوانات البرّمائِيَّة وهى التى تعيش فى البحر والبر معاً .. وهكذا .....

ولكلٍّ من هذه العوالم الفرعية قوانين خاصة لمعيشتهم وحياتهم ... حسب مواصفات خِلْقتهم .....

وسبحان ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1]

هذا فيما يختص بالعوالم المرئيَّة أو المدركَة بحواسِّ الإنسان.. وهناك عوالم أخرى غير محسوسة بالحواس المعتادة للبشر ...

فلدينا عالَم الجِنِّ .. وهو حقٌّ مذكور فى كتاب اللّه تعالى ، وكذلك عالَم الملائكة ...، وهو من المبادئ التى يلزمنا الإيمان بها ،

---

(١) سورة طه آية : ٥٠ .

وذِكْرُهما فى القرآن والحديث الشريف أكثر من أن يحصى .....

وعـالَمُ الجِـنِّ ....، هـو مخلوقـات خُلِقَـت بدايـةً مـن النـار ... كمـا خُلِـقَ الإنـسان بدايـةً مـن تـراب ... ونهايتـه إلى تـراب كـذلك ، ولكنـه بـين النـشأة والفنـاء فيـه لحـم وعظـم ودمـاء ، ومنـه الأبـيض والأسود والأصفر ... الخ .

فلا يتبادر إلى ذهنك أنَّ الجنَّ هو كتلة من النار المشتعلة .... بل لا شك أنه قد مرَّ بأطوار خِلقيَّة كأطوار خلقِ الإنسان .. ولكن بدايته من النار ونهايته كذلك إلى النار .. كما أن الإنسان بدايته من تراب ... ونهايته إلى تراب ... ، و نستطيع القول بأن الجِنَّ هـو طاقَـةٌ مُفكِّرة .. ، لأن اللَّـه تعالى قـد ركَّبَ فِيهم العقل وخاطبهم وكلَّفَهُم بالعبادة ... ، ولذلك فمنهم الصالح ومنهم الطالح ، ومنهم المسلم ومنهم غير المسلم ...

أما الملائكة ... فهم نورانيون .. روحٌ ركَّب اللَّـهُ فيها عقلا ... وقد خلقهم اللَّـه تعالى للطاعة والعبادة ، فهم لايعصون اللَّـه ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ...

وكل طبقة منهم على درجة واحدة من العبادة ، فمنهم من هو ساجد ، ومنهم من هو راكع ، ومنهم من هو طائف ، ومنهم من فى السماء ، ومنهم من فى الأرض ، ومنهم ملائكة عذاب ، ومنهم ملائكة رحمة ... ، وباختصار هم أنواعٌ شَتَّى ... لاتُعَدُّ وَلاتُحْصَى .

ورغم أن هـذين العـالَمَيْن لاتراهما بالعين المجردة ... إلاَّ أنَّـه بسببٍ ما ، قد يرى بعض الناس الجنَّ أو الملائكة ... وهذا لا يكون إلا

بإمكانية مضافة إلى الجنِّ أو الملائكة ، تجعلهم يستطيعون التجسُّد حتى يراهم الإنسان العادى فى بشريته ، وإمّا أنْ تضاف هذه الإمكانية إلى شخصٍ معين فيستطيع بقوةٍ خاصةٍ عنده أن يرى الجن أو الملائكة ...

وفى الحالة الأولى تكون رؤيا الجنِّ أو الملائكة عامة لكلِّ الحاضرين ...

انظر إلى ما رُوِىَ من أن سيدنا جبريل -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- كان يأتى النبىَّ كثيراً فى صورة الصحابىِّ " دِحْيَة الكَلْبى " ...

وكذلك عندما سأل سيدُنا جبريل فى الحديث المشهور عن الإسلام والإيمان والإحسان .. فإنَّ كل الحاضرين قد رأوا سيدَنا جبريل فى صورة رجلٍ شديد بياض الثياب .. شديد سواد الشعر .. لايُرى عليه أثر السفر ...

وكذلك قد تَمَثَّلَ سيدنا جبريل بشراً سوياً فى المحراب للسيدةِ مريم عليها السلام ...

أمَّا الحالةُ الثانية ، وهو أن يتميَّز البَشَرِىُّ بميزة خاصة تجعله قادراً على رؤية هذه المخلوقات الغير مرئية أصلاً ، فهناك قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[1] أى أن هذه البشرى وهذا الحديث يكون فى الحياة الدنيا .. ولأهل الاستقامة والتقوى والإيمان...

وقد سبق أن ذكرنا فى كتابنا " قواعد الإيمان " كيف أن سيدنا " عبد اللّه بن عباس " رأى سيدَنا جبريل يناجى سيدَنا رسولَ اللّه ﷺ فى مجلس فيه كثيرُ من الصحابة ، ولم يَرَ سيدَنا جبريل فى هذا المجلس إلا سيدنا " عبدُ اللّه بن عباس " رضى اللّه عنه ، كما رواه البيهقى عن " إبن عباس " رضى اللّه عنهم جميعا .

وخلاصة القولِ أنَّ هناكَ عَوالِمَ مُدْرَكَة بالحواسِّ المعروفة عند الإنسان .. وهناك عوالم موجودة أيضا ولكنها غير مُدركَةٍ بحواسِّ البشر العادية ..

وإذا رجعنا إلى كتابنا " قواعد الإيمان – البابين الأول والثانى" وجدنا أن للنفس قُوى مُدْرِكَةً من الظاهر .. وَقُوى مُدْرِكَةً من باطن .. وذكرنا أنّ من القوى المُدْرِكَةِ من الباطن : قوى الخيال .. والوهم .. والتَّذكُّرَ .. والتَّدَبُّرَ .. وكذلك إدراك ما يُرَى فى المنام وهو ما يسمى بعالم " المِثال " .

وخرجنا من كتابنا ذلك بأن كلّ هذه عوالِم كاملة لها قوانينها الخاصة بكل منها رغم أنها جميعاً تعتبر من عوالم الغيب ..

ونزيد الان شيئاً آخر ...

---

(١) سورة فصلت آية: ٣٠-٣١.

يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (1) ويقول جلّ شأنه وهو يذكرنا بالموت والبعث فى كتابه العزيز : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (2) .

وظاهرُ من هذه الآيات أنَّ الإنسان إذا مات .. وبمجرَّد موته ، تنكشف له عوالمُ أخرى لم يكن يراها فى حياته .. ولكنْ عندما انكشف الغطاء بالموت ، أصبح بصره حديداً ، أى حاداً ، فيرى ما لم يكن يراه من هذه العوالم ، رغم أنها كانت موجودة أيضاً فى حياته ومن حوله ، بل هو يعيش فيها بكيفية ما ، ولكنه لم يكن يراها من تحت غطائه البشرى ، فنحن لم ننقلك من عالم إلى آخر .. بل كشفنا الغطاء عنك فقط ... فرأيت بعض هذه العوالم .....

وكذلك واضح من هذه الآيات أن الإنسان إذا مات ، وانقضى تعامله مع هذا العالم المحسوس بالحواس الخمس المعروفة من بصر

---

(1) سورة المؤمنون آية: ٩٩-١٠٠.

(2) سورة ق آية : ١٩-٢٢ .

وسمع ولمس وذوق وخلافه .. حينئذ يَبْدَأُ تعامله مع عالم آخر... وهذا العالم الآخر يسمى " بَرْزَخًا " .. ويظلّ يتعامل معه حتى يوم النفخ فى الصور والبعث والحساب يوم القيامة ... فالبَرْزَخُ هو مقرُّ الأرواح بعد انفصالها عن الجسد -إذا جاز لنا هذا التعبير- ولكن الأدقَ والأصحَ هو أن نقول أن هذا البرزخ هو مجال معيشة الأرواح سواء بعد الموت أو قبل الولادة ، .. فإن الأرواح قديمة .. ومخلوقة قبل الأجساد بنصِّ الحديث الشريف " **إنَّ اللّـهَ تعالى قَدْ خَلَقَ الأرْواحَ قَبْلَ الأجْسَادِ بِخُمسمائة عام** " .

والبَرْزَخُ بمعناه اللُّغَوِى هُو الشيئ بين الشيئين .. أو الشيئ ذو صفتين متغايرتين ... مثلا مكان اختلاط ماء البحر المالح بماء النهر الحلو يسمى برزخاً ،، والتقاء عالَم الدنيا بعالَم الآخرة يسمى برزخاً ، حيث تسرى عليه بعض قوانين الدنيا ، كما تسرى عليه بعض قوانين الآخرة ..

انظر إلى قوله تعالى عن آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [1] ... فالبرزخ حاليا فيه الغدوة والروحة ، والصباح والمساء ، كما فى الدنيا .. ، وفيه العذاب كما فى الآخرة ، وكذلك بالضرورة أن يكون فيه النعيم لأهل النعيم .. فهو إذا يجمعُ بين بعض صفات الدنيا وبعض صفات الآخرة ...

(١) سورة غافر آية: ٤٦ .

فهذا البرزخ دون الدخول فى تفاصيله الآن ، هو عالم أيضا من العوالم وله صفات خاصة سنذكرها فى حينها بإذن اللّه تعالى ...

وإذا رجعنا إلى كلامنا أن الخيال والوهم والمنامات هى عوالم أيضا لها قوانينها الخاصة ، نلاحظ أن اللّه تعالى فى هذه العوالم يخلق حقائق وأفعالا .....

يقول تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [1].

ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [2].

ومن الواضح أن هذه الرؤى ليست عبثاً ولا وهما غير موجود ، .. بل هى رسائل من اللّه تعالى إلى عباده ... ، وفيها الصدق .. وفيها الرمز الذى يلزمه التأويل .. وكذلك فيها الحكمة من اللّه تعالى فى أن يُرِىَ عبده ما يشاء ...

وعوالم الوهم والخيال يحدث فيها ما قد يتحقق فى الواقع

---

(١) سورة الأنفال آية : ٤٣.

(٢) سورة الفتح آية : ٢٧ .

الذى نعيشه .. وكذلك يحدث ما لا يقع أصلاً .. بل يُمْحَى من أساسه أو يُبَدَّلُ أو يُعَدَّلُ ..

وهذا معناه أنه يحدث فى هذه العوالم " محوُ " و " إثباتُ " من اللّه تعالى.

ونشير هنا إلى شئٍ آخر ....

يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ (1).

ويقول ﷺ "نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شهرٍ" كما رواه البخارى ومسلم عن " جابر " ، وهو صحيح ، أى أن اللّه تعالى قد قذف الرعب فى قلوب الكفار فخافوا وفروا من المسلمين ، وكان هذا نصرا للّه ولرسوله وللمؤمنين...

وَيُفْهَمُ من هذا أنَّ " الرعْبَ " هو جند من جنود اللّه تعالى ، يسخِّرُهُ كيف يشاء لينصر اللّه تعالى من ينصره .. ، فهو مخلوق للّه تعالى ، وله قوته وحركته وعالمه الخاص به الذى يعمل فيه فيصل إلى القلوب ...

كذلك من جنوده "السكينة" .. وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ

---

(1) سورة الأحزاب آية : ٢٦ . (2) سورة الفتح آية : ٤ .

جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ (٣).

فالذى قذف الرعب فى قلوب المشركين .. هو تعالى الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، .... ولـلّه تعالى جنود السموات والأرض،.. يسخرها كيف يشاء على من يشاء .. فى عوالم ليست منظورة بالعين ، بل محسوسة بالقلب والفؤاد ، فيحدث الرعب أو تنزل السكينة ..

واللّه سبحانه هو " المُصَوِّر " ... يُصَوِّرُ فى الأرحام .. ويصوِّرُ فى الأفئدة .. وفى الخيال .. وفى الأوهام .. وفى النوم ، أى المثال .. وفى البرزخ .. وغيرها كثير..

والعين تلتقط ما يصوِّره اللّـه تعالى .. والقلب كذلك .. والروح كذلك ..

وهو سبحانه أولاً وأخيرًا المُهَيْمِنُ على خلقه أجمعين .. الفعَّال لما يريد بخلقه ظاهراً باطناً ، فى جميع هذه العوالم الظاهرة والخفية ..

والإنسان البشرى بخلقته العاديَّةِ يتعامل مع كل هذه العوالم المرئية وغير المرئية وهو حيٌّ يسعى ، .... وسوف يتعامل معها أيضاً بعد موته .. كل التغيير الذى يحدث له هو أنه لن يستعمل أدوات الإحساس المادى من بصر وسمع وخلافهما وهو ميت ، لأن هذه الأجهزة سوف تتحلل وتفنى بموته .. ولكن تبقى طاقاته الأخرى النفسية والروحية التى يتعامل بها فى العوالم الأخرى من طمأنينة ، ورعب ، وسكينةٍ ، وصور يراها ، وإحساس بسعادة أو بشقاء ...

وهذا ضرب من أوجه عذاب القبر ونعيمه...

واللّه تعالى فى كتابه العزيز يذكر لنا ما يُسمى " بعالم الغيب".. و " عالم الشهادة " .. و" عالم الملك " و " عالم الملكوت " ..

وسوف نأتى تفصيلاً إلى تقسيم هذه العوالم بإذن اللّه تعالى فيما بعد ..

ولكنّى أحبُ أن أشير إلى أمرٍ هامٍ فى هذا الشأن .. ذلك أن لكل عالَم من هذه العوالم قوانينه الخاصة به ، ونظامه الذى يعمل فيه ..

فمثلاً العالَم الأرضىّ الذى نعيش فيه .. وهو عالم المادة .. وكل ما فوق الأرض من مخلوقات هو من جنس الأرض ، وسوف يصير إليها .. فكل الذى فوق التراب تراب .. ولهذا العالم قوانينه الطبيعية .. جاذبية أرضية .. ليل ونهار .. وهواء وماء .. وشروق وغروب ... وأعلى وأسفل ... وصعود وهبوط .. ثم يَحْكُم كلَّ هَذِه القوانين " المنطِق البشرى " الذى تَكَوَّنَ من إجمالى هذه القوانين ..

بمعنى آخر .. فإن المنطق البشرىّ يفهم أن الأعلى والأسفل فى الأشياء هو بمقدار أو بنسبيَّتِهِ إلى الأرض .. فالأسفل ما كان أقرب إلى الأرض .. والأعلى هو ما كان أبعد عن الأرض .. وكذلك النزول والصعود ، .. فالنزول يكون إلى أسفل ، إلى الاقتراب من الأرض ، والصعود يكون إلى الأعلى ، إلى ما بَعُد عن سطح الأرض ..

كذلك إذا تحدَّثْنا عن الرؤية .. تبادَرَ إلى الأذهان الرؤية بالعين .. وهذه الرؤيا يلزمها عَيْنُ .. ونُور تُرَى به الأشياء .. فالكفيف لايرى لأنه بلا عينين .. والمبصر فى الظلام لايرى لأنه لايوجد نور يضيئ

له الأشياء ..

وهكذا فى بقية المعانى المتعارف عليها فى عالمنا الأرضى ..

ولكن إذا انتقلنا إلى بعض العوالم الغيبية التى لاتُرَى بالعين .. فقوانينها تختلف ، وكذلك يلزمها منطق مناسب لهذه القوانين الجديدة.. وفى بعض الأحوال يلزم لهذه العوالم نوع من تأويلٍ لرموزه.. كما يحدث فى عالم المثال .. فإذا رأيت فى الرؤيا رجلا ضخما وحوله قومه أقل منه حجماً .. أدركت أنه زعيمهم أو كبيرهم مثلا .. وإذا رأيت رجلاً يسير مسرعاً أو يجرى بين قوم يمشون ببطئ ، فسوف يتبادر إلى ذهنك أنه يتقدمهم فى الحياة ، وليس المقصود أنه أقوى منهم جسما ولا أقدر على الحركة..

وإذا رأيت مثلا رجلاً صالحاً وأمامه رجلا ينير له الطريق أو يُمَهِّدُ له السير ، قلت إنّ هذا عمله الصالح ينجِّيه ويكفيه السوء.

لذلك قال ﷺ أن الميت إذا وضع فى قبره جاءت صلاته وجاء صيامه وجاء عمله الصالح فى أحسن صورةٍ يدافعون عنه ويؤنسونه.

فالأمور المعنوية من أعمال البرِّ تتمثَّلُ فى عوالم الغيب بصور محسوسة لها كيان ... تُكَلِّم صاحبها وتؤنسه ... بينما تتمثل أعمالُ الفجورِ والمعاصى فى صور مفزعة ، تعذبه وتنهش لحمه ...

ومقصود كلامنا أن لكل عالم من العوالم معانٍ مختلفة لنفْس ألفاظنا الدنيوية ، فالقرآن الكريم مثلا بعد أن وصف نعيمَ الجنة وما فيها من حورٍ حسانٍ ، وأنهارٍ من عسل ولبن وخمر وغرف وقصور .. يقول ﷺ

" فِيهَا مَا لا عَينُ رَأَتْ ولا أُذُنُ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بشرٍ... " كما رواه البزار والطبراني في الأوسط عن "أبي سعيدٍ" وهو صحيحٌ.

ويقول ﷺ " لَيْسَ فِي الجنَّةِ شَيْئٌ مِمَّا في الدنيا إلاَّ الأسماء " وهو صحيحٌ رواه " إبن عباس " كما في الضياء ،بمعنى أن نعيم الجنة لا يخطر على قلب بشر .. وأمَّا ما جاء من وصف لما فيها ، فما هو إلا لتقريب المعنى إلى ذهن أهل الدنيا على قدر عقولهم ....

• وإذا وصف اللّه تعالى ملائكته بأنهم أولي أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُبَاع كما قال في أول سورة فاطر : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ .

• فليس بالضرورة أن يكون المقصود بالجناح هو الجناح المعروف لدينا في الطيور ... بل يمكن فهم الجناح بمعنى القوة والبطش ... لذلك تقول العرب على الضعيف أنه مكسور الجناح .. ويقول رب العزة : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [(١)] ، كما يقول جَلَّ شأنه ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [(٢)].

• وكذلك معنى الصعود والهبوط ، والعلُوّ والسفْل ، والخروج والدخول ، ... كل هذه الالفاظ لها مدلولات في عوالم الغيب غير مدلولاتها في عالمنا الأرضي .. ولكن ثَمَّةَ ارتباط يكون بين هذه

---

(١) سورة الإسراء آية : ٢٤ . (٢) سورة الأنفال آية : ٦١.

المعانى وتلك ....

• فإذا قلنا أن الميت خَرَجَتْ روحه .. أو صعدت إلىبارئها .. فلايتبادر إلى ذهنك المعنى المادى للخروج والصعود الدنيوى ، فتظن أن الروح كانت حبيسة داخل الجسد ، ثم تركته وانفصلت عنه ، كما يخرج الانسان من غرفة كان فيها مثلا ..، ولكن افهم من خروج الروح أنها قد تركت تدبير أمر الجسد .. ولم تعد تلتفت إليه أو تهتم به ..

• ألا تسمع الناس يقولون " خرج عن طاعة الإمام .. أو خارج عن القانون " ، وطبعا قصدهم عدم الالتزام بالطاعة أو القانون .. أى لم يعد يلتفت إليهما ...

كذلك الصعود.. يفهم منه الارتفاع والعلو .. والسمو ، فالروح اذا صعدت فقد سَمَتْ وتعالت عن ارتباطها بذلك الجسم الترابى ، مَحَلِّ الشهوات الأرضية ...

• وكذلك مفهوم الرؤية فى عالمنا الأرضى و غيره ....

فالرؤية هى ادراك الشئ ومعرفته معرفة عينية يقينية والإلمام بمواصفاته ..

ولايكون ذلك إلا بنورٍ ينعكس على هذا الشئ، وعين تلتقط الصورة ، وعقل يميزها ....

والنور عندنا مصدره الشمس والمصادر الصناعية التى يصدر منها هذا النور ، ولكن اذا خرجنا إلى العوالم الغيبية فإنها خالية من الشمس ونورها .. فلابد أنه يلزم لهذه الرؤية نور من اللّـه تعالى ، وقلب مبصر

يرى بنور اللّـه ، فيدرك الاشياء فى تلك العوالم ويحيط بها إحاطة تامة ويعرفها معرفة كاملة ...

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝ ﴾[1] ، والنور فى حد ذاته لا يرى .. ولكنْ به تُرَى الأشْيَاءُ وَتُعْرَفُ وَتُدْرَك...

• وما قصدناه من بسط الكلام فى هذه الملاحظات ، هو أن تدرك وأن يتفتّح تفكيرك للألفاظ التى ترد فى كتاب اللّـه تعالى ، أو فى حديث رسوله ﷺ عن العوالم الغيبية ، ... وكل ما ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر .

نعود مرة أخرى إلى العوالم التى ذكرنا بعضًا منها ، لنقول أنَّ العلماء يصنّفُونَها إلى نوعين :

الأول : عالم الملك أو عالم الشهادة ...

الثانى : عالم الملكوت أو العوالم الغيبية ...

ولكننا نميل إلى تقسيم عوالم الملكوت أيضًا إلى قسمين ..

القسم الأول : عوالم الملكوت الأدنى ، ... والمقصود الأقربُ للإنسانِ ، ونسميه عالم الجَبَروت ... ثم

القسم الثانى : عوالم الملكوت الأعلى ..... وبعض العلماء يطلقون عليه عالم " اللاهوت " .

وبشيءٍ من التفصيلِ ... نقول :

---

(١) سورة النور آية: ٤٠ .

أولا : عالَمُ المُلْك :

عالمُ الشهادة .. عالمُ الأجساد .. عالمُ الأفعال والأسماء الإلاهية وتعريفه ببساطة شديدة : هو كل ما تدركه بحواسّك المجردة السليمة ، أو استعنت على إدراكه بآلة أو صَنْعَة ..

فالأرض وما عليها من كائنات ، والبحار وما فيها من مخلوقات ، والفضاء وما فيه من أجرام .. وكل مالَهُ جِسْمُ ثابتُ أو متحرك .. وكل ما ينطبق عليه قوانين الفناء .. كُلُّ هذا يُسَمَّى بعالم المُلْك أو عالم الشهادة...

ولامانع أن يكون داخل هذا العالم عوالم أخرى فرعية ، كل منها يحكمه قانون أو ناموس خاص به ، داخل الإطار العام لقوانين عالم الشهادة نفسه ...

فالأرض وجاذبيتها .. وسيرها .. ودورانها .. وجبالها .. وبراكينها .. وزلازلها ... لها قوانين...، والبحار وما فيها من جَزْرٍ ... ومدٍّ ...، وتبخُّرٍ وتيارات مائية .... مخلوقات لها قوانين .. والفضاء الأدنى للارض وما فيه من هواء ... وكائنات وموجات كهربية ... وصوتية ... لها قوانين ، والفضاء الأعلى وما فيه له كذلك قوانين .. والأجرام السماوية على اختلاف أنواعها من نجوم وكواكب وشُهُبٍ وثقوب سوداء وَمَجرَّاتٍ وخلافه ... لها أيضاً قوانينها الخاصة ...

ونلاحظ أن كل ما فى عوالم الشهادة من مخلوقات .. مخاطبة من الحقِّ سبحانه وتعالى ، لذلك فهى لها كيان ولها أَنْفُس .. هذه الأنفس تتفاوت فى درجاتها ... فهناك

نَفْسُ فَلَكِيَّة .. ونَفْسُ جمادِيَّة .. ونَفْسُ نباتِيَة .. ونَفْسُ حيوانِيَّة ..

ونَفْسُ بشريَّة ..

انظر ما جاء في كتاب اللّه تعالى ..

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١)

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ (٢)

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (٣)

﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (٤)

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٥) .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦)

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٧)

وظاهر من هذه الآيات المباركات ، أن جميع الكائنات في عالم الشهادة أو الملك هي كائنات مدركة .. ، لها نَفْسٌ مخاطَبةٌ من اللّه

---

(١) سورة فصلت آية : ١١.

(٢) سورة هود آية : ٤٤.

(٣) سورة الرحمن آية : ٦.

(٤) سورة سبأ آية : ١٠.

(٥) سورة الإسراء آية : ٤٤.

(٦) سورة النمل آية : ١٨ .

(٧) سورة الإسراء آية: ٧٠ .

تعالى .. ، وتسبّحُهُ جَلَّ شأنه بكيفية خاصة بها ... ، ثم هى قبل ذلك كله لها بداية ولها نهاية ، ولها حياتها ما بين ذلك ...

فهذا العالم هو فى الحقيقة عالم الأنفس ، بعقولها وإدراكها وإحساسها ..، ثم بعد ذلك بأفعالها التى توحى بها إلى أجسامها فتظهر هذه الأفعال فى هذا العالم ...

فإن قلت أنه عالم الأنفس فهذا حق .. ، وإن قلت أنه عالم الأجساد فهو حق.. ، وإن قلت أنه عالم الأفعال فهو أيضا حق ...

ولكننا نتدارك كلامنا فنقول أنَّ ما تراه فى هذا العالم هى الأفعال فقط التى تصدر من هذه الكائنات .. ، فأنت لاترى الأنفس ولاتعرف ما فيها ..

لذلك نُعدّلُ كلامنا لنقول : إنه عالم الأفعال والأجساد ..

وحيث أن جميع ما فىهذا العالم له بداية ونهاية وحياة خاصة بينهما .. ، فاللّـه سبحانه الخالق لها يدبّر شئونها بما يناسبها ويربّيها وينمّيها .. ثم يفنيها بقدرته ...

فهو إذا عالم الربوبيّة للأجساد والأجسام والمخلوقات جميعاً ....

فإذا علمنا يقينا أن اللّـه سبحانه وتعالى هو المُهَيْمِنُ بقدرته على كل ما فى الكون .. ، وهو القاهر فوق عباده .. وهو الفعّال لما يريد جَلَّ شأنه ..

فالمخلوقات إذًا تُوجَدُ وَ تُخْلَقُ بِأسرار أسمائه تعالى البارئ والمصوِّر والخالق .... وما جانسها من أسماء عَلِيَّةٍ..

وبأسرار أسمائه تعالى المُقيتُ ، والمهيمن ، والرزَّاق وما جانسها ، يرزقون وينمون ويتحركون ..

وبأسرار أسمائه تعالى الودود ، والرحيم وما جانسها ، يتوادُّون ويتراحمون ...

وبأسرار أسمائه تعالى القهار ، والمنتقم وما جانسها ، يتعاركون ويتناحرون ...

ثم بأسرار أسمائه تعالى المميت والوارث والباقى وما جانسها ، يموتون ويفنون ...

فسبحان من بأسمائه وأفعاله ، خَلَقَ الكَوْن ودَبَّرهُ وأقامه وأفناه ... وكل شيئ هالك إلا وجهه الكريم .. وكلُّ من عليها فانٍ .. ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام ..

فكل ما تراه من أفعال العباد فى الكون ، هى أفعالُ للَّه تعالى على الحقيقة فى عباده ... فهو الفعَّال لما يريد .. صحيح أن الأفعال تصدر من المخلوقات بقوَّتِهِم المُرَكَّبَة فيهم .. ولكنها على الحقيقة من قدرة اللَّه تعالى عليهم ، فهو القاهر فوق عباده جَلَّ شأنه ....

وهذه الأفعال التى تراها ، ما هى إلا أثرُ صفات اللَّه تعالى فى عالم الغيب ... وكل قوم .. أو مجتمعٍ .. أو جماعة من الخلق يكونون تحت قهر اسم من أسماء اللَّه تعالى وصِفةٍ من صفاته ... وتدورُ هذه الأسماء عليهم .. فتتغير أحوالهم تبعاً لنورانية الإسم الفعال عليهم .. وهكذا ، بين الصحة والمرض ، واللَّهو والضحك ، والحزن والفرح .. وهكذا ....

• انظر إلى ما رواه الإمامان أحمد ومسلم فى الحديث المتفق عليه عن سلمان وعن أبى سعيد عن رسول اللّه ﷺ أن اللّه تعالى قد قسم الرحمة إلى مائة جزء .. ثم أنزل إلى الأرض جزءاً واحدا ، وأخَّر الباقى إلى يوم غضبة الجبار سبحانه ، ومن هذا الجزء الواحد من مائة جزء والذى أنزَلَهُ اللّه تعالى إلى الأرض ، ووزعه على عباده .. يتراحم الناس .. بل كل ذى كبد ، حتى أن البهيمة العجماء ترفع قدمها عن وليدها ، خوفا ورحمة به أن يصيبه منها مكروه !!!

فمن أسرارِ اسمهِ تعالى الرحيم كانت هذه الرحمة فى قلوب المخلوقين .. وكانت هذه أفعالهم ... وأنت لم تَرَ الرحْمَةَ التى نزلت فى قلوب العباد ، ولكنك رأيت أثرها .. رأيت ما سَبَّبَتْه من أفعال .. فأنت لاترى الصِفَة ولا ترى الاسم ، ولكنَّك ترى الفعل الذى هو أثر الصفة ونتيجتها ، يقول تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[1].

وهذا معناه أنك ترى آثار رحمة اللّه .. وما تَرَتَّبَ عليها من أفعاله ومظاهر القدرة ...

واللّه سبحانه وتعالى هو الذى أضحك وأبكى ، وهو الذى أمات وأحيا ، وهو الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، وهو الذى إذا مرضتُ فهو يشفينِ ، وهو الذى يطعمنى ويسقين ، ويعزُّ من يشاء ، ويذلُّ من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ، ويحى ويميت .....

---

(١) سورة الروم آية : ٥٠ .

وجَلَّ جلالُ اللَّـه ، وتقدست ذاته ، وسبحان من لا يعلم ما هو إلا هو ، ولا كيف هو إلا هو ، جَلَّ اللَّـه تعالى ، وعزَّ عن المِثْلِ والمِثَالِ ، فليس كمثله شئ ، جَلَّ جلاله وعزّ جاهه .. ولا إله غيره ...

وكل ما أردنا قوله ، هو أن عالم الشهادة .. عالم تجَلِّيَّاتِ اللَّـه تعالى على عِباده أجمعين بأسمائه العلِيَّة وأفعاله الحكيمة .. واللَّـه هو رَبُّهُمْ ومُرَبِّيهِمْ وكافِلُهُمْ وحافِظُهُمْ ... ومحييهم .. ثم مميتهم ....

أمَّا النَفْسُ في هذا العالم فإنَّ لها جزئية مدرِكة من ظاهِرِها بالحواس المعروفة والمنطق الماديّ المعتاد .. ، ولكنها تلتفت أحيانا بقواها المُدْرِكة من الباطن إلى بعض العوالم الأخرى ... !!!

هذا هو ما يطلق عليه مسمى عالم الشهادة .. أو عالم الملك .. أو عالم الربوبية ..

ثانيا : عالم الجَبَروت :

هو الجزء الأقربُ للإنسان من عوالم الملكوت .. بمعنى أن الإنسان في بَشَرِيَّتِه قد يستطيع أن يتعامل مع بعض عوالمه سواء في نومه أو يقظته ...

وعوالم الملكوت كلها غيبيّةٌ لاتُرى بالعين ..، ولكن سبق القول أن بعض قوى النفس المُدْرِكةِ من الباطن ، قد تتعامل مع العوالم القريبة منها من عوالم الملكوت ، وهي ما نسميها بعوالم الجبروت ... وهو يحتوى على عوالم كثيرة .. ولِكُلِّ عالَمٍ قوانينه الخاصة أيضاً ، ونظامه الذى يسير به ..،

والمقصود هنا ليس القرب أو البعد الماديّ ... ولكن مقصودنا القرب المعنوي فى الصفات ..

والسرُّ فى ذلك ، أن هذا الكائن البشرى يحتوى على ثلاثة عوالم .. أو ثلاث مواصفات..

تركيبه الجسديُّ والترابيُّ .. وتركيبه النفسيُّ الظاهر والباطن .. وتركيبه الروحيُّ الأعلى ... ،

وهو يتعامل فى وجوده بهذه العوالم الخاصة به مع ما يماثلها من العوالم الكونية الأوسع والأكبر...

فالجسد يتعامل مع عالم الشهادة أو الملك .. وهو فيه فعَّالٌ مؤثر يعطى ويأخذ ...

والنفس تتعامل مع عوالم الملكوت الأدنى أى عوالم الجبروت .. وهى فيها مؤثرة أيضاً ، تفعل وتنفعل بهذه العوالم ....

ثم الروح .. وهى العليا والتى تتعامل أساساً مع العوالم الملكوتية العليا .. وإن كانت بحكم عُلوِّها المعنوى .. وسموها تستطيع أن تتحكم فى كل عوالم الإنسان الجسدية أو النفسية ..

والسبب فى هذا التدرج الخِلْقِى .. هو أن الروح من اللّه تعالى سامية عالية .. والجسد ترابىّ مادىّ .. فلكى تتعامل الروح مع الجسد لابد أن يكون هناك وَسَطٌ بينهما ، تتدرج فيه المعارف والعلوم والأوامر.. وهذا الوسط هو النَّفْس بقواها الباطنية ..

فالنفس فى الحقيقة " برزخ " بين الروح والجسد ... الروح تؤثِّر

فيها ، وكذلك الجسد له عليها تأثير ..، وهى كذلك لها أثر على الاثنين ؛ الجسد والروح .. قبولاً ورفضا للصفات والطاقات ...

وعوالم الجبروت هى عوالم الغيب التى تَتَجَلَّى فيها صفاتُ اللّـه تعالى ....، وما تقتضيه هذه التجَلِّيَات من تدبيرات إلاهيّة ، ومُدَبِّرات جزئية وكلِّية ، حتى تظهر نتائجها وآثارها فى عالم الملك والشهادة، أو كما يقولون هى عوالم النفوس المجرَّدة والعقولِ المعنوية .

وكلُّ صِفَةٍ من صفات اللّـه تعالى لها حضرتها .. وفى هذه الحضرة تكون تجَلِّيَات اللّـه تعالى التى تنبع من نور هذه الصفة القدسية .. ولكل حضرة .... نورها .... وأسرارها .... وحُضَّارُها... وجنودها ... وذوقها .... وآدابها .... ثم بعد هذا آثارها فى عالم الملك كما يريد اللّـه، وحيثما يشاء جَلَّتْ قدرته .

ولاتظن أن هذه الحضرات متتالية أو متتابعة .. بل هى آنيَّة .. كُلّها .. فإن صفات اللّـه تعالى لاتَتَعَطَّلُ منها صفةٌ أبداً ...

ولاحِظْ أننا نتحدث عن عوالم الملكوت .. فالقياس بالزمان والمكان المادى لايفيدنا هنا .. والتعبير باللغة عن حضرات الصفات أمر بالغ الصعوبة .. إن لم يكن مستحيلا ، ولذلك فإن استشعار ومعايشة هذه الحضرات لايكون بالجسد .. بل بالقلب ... أو قُلْ بالقُوَى المُدْرِكَة من باطِنِ النفس .. أو قل بالفؤاد تجاوزاً ...

يقول تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [1] ، ويقول : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [2] .

والربط بين الجسد ، والقلب ، والنفس ، والروح واضح ....

ذلك أن محل التقاء الروح والنفْس هو القلب .. وللنفس وجه إلى القلب ولها وجه إلى الروح ... والقلب عرش الروح ..

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [3]

فأنوار القرآن العظيم وأسراره ، تنزَّلتْ على قَلْب رسول اللّهِ ﷺ، ونطق بألفاظه وآياته وحروفه لِسَانُه الشريف ، بالعربية المُشَرَّفَةِ بِشَرَفِ عربية كتاب اللّه وعربية رسوله ﷺ .

فالقلب .. يسمع ويرى .. والفؤاد يسمع ويرى ... والبصيرة تسمع وترى .. وهم لايرون ما تراه العين الترابية .. ولابكيفيتها ....

---

(١) سورة النجم آية : ١١.
(٢) سورة الحج آية : ٤٦ .
(٣) سورة الشعراء آية : ١٩٢-١٩٥.

وتأمّل مرةً أخرى فى أول سورة الإسراء .. لتدرك أن اللّه تعالى عندما أراد أن يكرم حبيبه ورسوله ويريه آياته .. أنه سبحانه جهّز رسوله ﷺ -رغم ما كان عليه من كمال الخِلْقة الروحية والجسدية - تجهيزاً خاصاً فوق شرف كماله ، فجعله سميعاً بصيراً .. ليسمع ويرى ما لم يسمعه ولم يره مخلوق ، كائنا من كان ، ولاحتى سيدنا جبريل عليه السلام ...

والصدر هو محل التقاء وازدواج النفْس بالقلب ... وللنفس وجه إلى القلب ، ولها وجه إلى الجسد .. والصدر ساحة المعركة بين النفس والقلب ..

والقلب هو محلُ ضخِّ الدَّمِّ للجسم .. والدمُّ هو حامل الحياة للجسم ... والشيطان يجرى فى ابن آدم مجرى الدم فى العروق ... ومصب هذا كُلُّه فى القلب .. والنفسُ تَرْكَبُ الدمَّ فى مجراها فى العروق وبهِ تُغَذّى الحواس الخمس لها فى يقظتها .. وَتُغَذّى الحِسَّ المشترك فى نومها ... فالنفس حقيقة بين القلب والجسد والروح ......

انظر إلى قوله ﷺ " **الإِثْمُ ما حَاكَ فِى صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيهِ النَّاس** " كما وراه البخارى والترمذى عن " النواس بن سمعان " ، وهو حديث صحيح .

فإذا انجذبت النفس إلى الروح .. أمدّتها الروح ببعض نورانياتها وطاقاتها .. وصَبَغَتْهَا معها بِصِبْغَتِها .. حينئذ تستطيع النفس أنْ تُحَلِّق فى بعض هذه العوالم .. على قدرها ، وتتذوق منها وتشاهدها .. وتزورها أو

حتى تعيش فيها .

وفى هذه الحضرات الغيبية الصِّفاتية الجَلاليَّة ، يسيطر اللَّه تعالى على قلوب عباده ، وهى كما قال ﷺ بين أصبعين من أصابع الرحمن ... أصابع القدرة والمشيئة الإلاهية .... ، يقلِّبُها حيث وكيف شاء جَلَّت قدرته ... فيطهِّرُها .. ويزكيها .. وينيرها .. ويملؤها حكمة ونوراً ... ومحبة له تعالى لمن شاء من عباده الذين كتب فى قلوبهم الإيمان ...

واللَّه تعالى كذلك يفعل فيها ما يريد ، كما تقتضى حكمته على عبيده أهل الظلام والعياذ باللَّه .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾ ..

والمَلِكُ يكون له التعظيم ، والتبجيل ، والهيبة ، والشكر ، والهيمنة على من يملك ..

فاللَّه تعالى مالك القلوب .. ومحرِّكُها .. ومحييها ومقلِّبُها .. ولايملك العبد من أمر قلبه شيئاً ...

يقول تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، ويقول : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾[2]، ويقول : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[3].

وفى عوالم الجبروت هذه تفهم كثيراً من المعانى التى لاتدركها فى عالم المُلْك .. فتفهم معنى قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝ ﴾[4]، حيث تشاهد المَحْوَ والإثبات فى هذه العوالم الدائمةِ الحركة ، الدائمةِ التغيير والتبديل ... وتفهم كذلك معنى صعود وهبوط الروح ... وماهية عذاب القبر ونعيمه ... وكيف يُقَلِّبُ اللّه قلوبَ عِبَادِه بقدرته ، وتفهم معنى نَفَس الرحمن كما ورد فى الحديث.

كذلك ترى من خلقِ اللّه أنواعاً شتَّى من جنوده ، يعملون فى هذه العوالم ...

كذلك ينكشف لك بعض معانى الغيب .. النسبى .. والمطلق .. المادى والمعنوى .. كذلك ينكشف لك بعض المقادير الإلاهية فتفهم سر أفعال العباد .. وتفهم هنا أن معنى الأقدار يختلف عن معنى سِرِّ

---

(١) سورة الفتح آية : ٤.
(٢) سورة الحجرات آية : ٧،٨.
(٣) سورة البقرة آية : ٧.
(٤) سورة الرعد آية : ٣٩.

الأقدار ، والأقدار غير أسرار الأقدار .!!

وباختصار ... تعيش بلا كَيْفٍ ... في لا مكان ... ولا زمان .. وتنزوى عنك قوانين البشرية والمادية كلها ، ولايمكن لعقل بشرى كائنا ما كان أن يدرك هذه الأمور فى ترابيته وبشريته ، لأنهما أولا وأخيرا هما اللتان تُسَيِّرانه وتسيطران عليه ....

• والذى يصل إلى هذه الدرجة من صفاء النفس وقوة الروح ، تجده عادة يغلب عليه الصمت والفكر والذهول .. أو قل ما يشبه الذهول ... لأن قلبه .. أو قُلْ باطن نفسه يتعايش مع هذه العوالم .. ولابد أن تكون لهذه المعايشة آثار على الجسد بكيفية ما ، تختلف قوة وضعفاً .. وكيفا وحالا ..

فالذى يعيش بقلبه فى عالم الجبروت ويتعايش مع أنوار صفات اللّه تعالى ، قد لايستطيع لسانه ان ينشغل بالذكر .. بل لايستطيع النطق أصلا وهو مُغَيَّب فى حالاته هذه ...

بل ربما اكتسب جسدُهُ بعضَ صِفَات الروح النورانية .. وخِفَّة حركتها .. وعدم تأثرها بالماديات .. فيصير جسده كذلك لفترة ما تطول وتقصر حسبما يكابده ... ومن هذا قد يتصرف الجسد ببعض قوى الروح النورانية ، فينظر بنور اللّه ، ويسمع بقدرة اللّه ، ويمشى بحول اللّه.... ومن هنا قد تظهر عليه بعض خوارق العادات ، سواء كان يدرى أو لا يدرى بها .. فإنه غائب فى أنوار صفات اللّه .. ضيفُ على فضل اللّه تعالى وأنواره .. واللّه أعلم ماذا يفعل بعبده فى هذه الحالة روحاً وجسداً ..

وفى هذه العوالم تستطيع الأنفس بقواها الباطنية المنيرة بنور الروح ، ورقائق أنوار الحضرات الإلاهية ، أن تتصل بعضها بالبعض ، وتؤثر بعضها فى البعض ، ويسرى بينها مثل التيار الكهربى ، فهذه تأخذ من تلك .. وتلك ترى ما عند هذه .. بل إنها تستطيع أن تتصل بأرواح المَوْتى ، وتراهم وتخاطبهم وهم فى برزخهم كما ذكرنا من قبل... وتتعلم النفس منهم أيضا ..

وفى هذا المجال تحدث " البُنُوَّةُ أو الأُبُوَّةُ الروحية " .. وتتآلف او تتناكر الأرواح أو أن شئت قل الأنفس .

● وفى هذه العوالم تدرك بعض أسرار ما يحدث من أفعال العباد فى الأرض.. وكل الأفعال مخلوقة للّه تعالى .. وتصدر من الكائنات تبعاً لمشيئته وقدرته تعالى ، وما سبق فى غيبه وما جرى به قلمُ القدرة .. ، ومنبعها وأصلها كما قلنا هى أنوار صفات اللّه تعالى فى هذه الحضرات الصفاتية ...

ونوعِيَّاتُ الأنفس هنا لا نهاية لها ، فمن الأنفس من تكتفى بالاستغراق فى حضرة واحدة من هذه الحضرات ، فتتأثر صفات النفس بأنوارها .. وتظل تنهل منها طالما هى حاضرة فى هذه الحضرة .. ، ومن الأنفس من يكون حظُّها حضرتين بدلا من واحدة .. فهى تتردد بينهما وتشرب من كلٍّ منهما .. ، فتارة تغلب عليها أنوار صفة أخرى ...

والأولى ثابتة مع صفة واحدة .. وعلى نمط واحد ..، والثانية مترددة بين صفتين .... ، وثالثة يكون لها نصيب فى عدد أكبر من الحضرات ...

وكلما اتسعت نَفْسُ الحاضر .. وكلما تنوَّعَت حَضَراتُ الصفات التى يتصل بها ... كلما كان صاحبها متغيراً .. متقلِّباً .. كل ساعة له حال .. وله مذاق .. وله خصوصية .. فهو صاحب " تلوين " .. متلوِّن حسبما يُلقَى اليه من الأنوار .. أو حسبما يُلقَى هو فيه من الحضرات ...

وسادتنا ، أهل هذا العلم يقولون أن صاحب التلوين غير ثابت ، وأن صاحب التمكين ثابت .. وهو أعلى درجة من صاحبة التلوين ...

غير أنى أرى غير هذا .. فإن صاحب التلوين دائر فى أفلاك أنوار صفات كثيرة .. وصاحب المشرب الواحد الثابت يأخذ من حضرةٍ واحدة ...

وقد تتسع النفس ، حتى تنهل وتشرب من جميع صفات اللّٰه تعالى المعروفة .. ولذلك تجدها فى كل لحظة فى حال .. وفى كل آن لها لون .. بين المحبة للّٰه .. ، والإنكسار إلى اللّٰه ، والاعتزاز باللّٰه ، والاعتزاز للّٰه ، وهكذا كما يريد اللّٰه تعالى لعبده ...

غير أنى أتحفظ على قولى هذا .. بأنَّ صاحب التلوين المبتدئ أو المنتهى .. وكذلك صاحب التمكين الثابت على أنوار صفة واحدة .. كلاهما يجب أن يكون صاحب تمكين ظاهراً .. لابد أن يكون ثابت المظهر ، غير متأثر بما يجرى فى باطنه قدر ما يستطيع ، ولايذيع سراً لما يراه فى العالم الآخر .. ، لأن حفظ السرِّ شرطٌ لتحمُّلِ الأمانة ، ومن أذاع سِراً أصبح غير أهلٍ لتحمل الأمانات ..

والحقيقة .. أن هذه العوالم ليست على درجة واحدة من العلو الروحى .. ، فهى متفاوتة .. ، والنفس فيها لاتستطيع ان تتصل أو تتعامل

إلاَّ مع ما يناسبها في هذا السموّ والعلوّ ..، فهي بين هذه الحضرات تحضر وتغيب تبعاً لطاقتها ونورانيتها وسموّها ....

بل أن هناك أمرا آخر ..

فليست كل الأنفس التي تتعايش مع حضرةٍ واحدة من صفة واحدة يكون لها نفس المنظور .. ونفس النصيب من هذه الأنوار .. بل هذه أرزاق من اللّـه تعالى .. وطاقات في الأنفس .. وكلٌّ يأخذ على قدره هو ، وعلى قدر ما كتب اللّـه له من رزق فيها أو منها ..

ومن هذا الباب يختلف بعض الصالحين أهل هذه المجالس ، فبعضهم قد يكون في حضرة واحدة .. وأنوار صفة واحدة .. ولكن كلٌّ يرى على قدره وحسبما يريد اللّـه .. فيقع صغار الأولياء في تناقض في كلامهم ، على قدر ما شاهدوه وذاقوه ... والصحيح أن كُلَّهُم على صواب .. وكل منهم يرى من مرآة نفسه هو ، وعلى قدر طاقاته هو .. وسبحان الفتاح العليم ..

وقولنا أن هذه الحضرات تكون حيث لامكان ولازمان .. أمر في غاية الخطورة ، لأنه إذا انعدم الزمان .. فانك لاتفرّقُ حينئذ بين ماضٍ ومستقبل .. فالكل عندك حاضر .. وأنت تروح وتجئ بينهما .. والجميع عندك حضور .. بل قد تعيش أنت نفسك في الماضي ، أو في الحاضر ، أو في المستقبل في آن واحد ..، كذلك تنزوي لك أبعاد المسافات والأمكنة .. فتكون في مكانين أو أكثر في وقت واحد ... وهذه أمور لاتُشْرَحُ بالعقل الماديّ والمنطق البشري .. ولكنها من قوى الروح التي أمدَّت النفس بها ..

ولذلك فإن بداية العبد فى الدخول إلى هذه العوالم .. وبداية تعامله مع بداية انكشاف عوالم الغيب .. هو أمر بالغ الصعوبة .. وشديد على النفس كُلَّ الشِدَّة .. ولابد وأن يلزم للعبد فى هذه المرحلة مرشد ودليل ، يكون قد سبق فى قطع هذه المفازات والصِّعَاب .. وتعلَّم كيف يتأدَّب مع كل حال له ، وكذلك كيف يتفادى كُلَّ عثرة فى طريقه .. وما أكثر العثرات فى هذا الطريق .. وما أخطرها إلا على من حماه اللَّه وثبَّتَهُ وحفِظَهُ من الأغيار .

هذهِ نقطة من بحر لانهاية له .. لنلقى إليك بشعاعٍ بسيط على هذه العوالم التى لايحيط بها إلا اللَّه تعالى ..

ومهما قلت وقال غيرى .. فلن يبلغ علمنا مقدار ذرة من شط بحر ملئ بالرمال .. وسبحانه من بيده ملكوت كل شئ ..

واللَّه تعالى يهدينا وإياكم سواء السبيل ويعلمنا ما ينفعنا ، وينفعنا بما يعلمنا ...

ثالثاً : عالمُ الملكوت :

ونقصد به الجزء الأعلى من عالم الملكوت ... والأبعد عن الإنسان من عالم الجبروت ...

وهذه عوالم خاصة بالروح لاغير .. ولايَطَّلِعُ عليها قلبُ ولانفس .. مهما سَمَتْ وعَلَتْ .. بل ليست كل الأرواح تستطيع أن تتعامل مع هذه العوالم ...

• لـذلك يُقَسِّمُ سـادتنا ، وعلـى رأسـهم " الحكـيم الترمِـذِيّ "

الحكمةَ .. إلى نوعين :

– الحكمة الدنيا : وهى تختص بالأغيار من دون اللّـه تعالى .. المخلوقات كلها والأكوان .. والعوالم .. والنفوس .. والقلوب .. إلخ.

– الحكمة العليا : وهى ما يختص بالذات العَلِيَّةِ وصفاتها وأنوارها وتجَلِّيَّاتها ، وكذلك علوم النور اللدنِّى ، وأسرار جريان الأقدار.

ويقول رضى اللّـه عنه أن أولياء اللّـه تعالى ، الذين يقفون مع الحكمةِ الدنيا ، وتنكشف لهم العوالم الغيبية الجبروتية ، ويتعاملون مع المخلوقات فيها ، ويغوصون فى أعماق النفوس ، ويخْبُرونَ ظاهرَها وباطنَها ، ويعرفون قدراتها وأسرارها وخباياها .., هؤلاء الذين يكون هذا كل هَمِّهِم .... هُم " زبَّالو الأولياء " !! الكنَّاسون !! الذين يهتمون بمزابلِ النفْس وأمراضها وأمراض القلوب .., فهم لايرتفعون أبدا إلى أنوارِ الذات الإلاهية وعظمتها وأسرارها .. لأن أمراض النفْس لاتنتهى ...... وكلما تغلبوا على صفة سيئة بها ..... وجدوا صفة أخرى تستحق التأديب ..... فاهتموا بها .. فلاتلبث الأولى أن تستيقظ ...... فيعاودون الجهاد فى تأديبها ......

فهم دائماً فى هَمٍّ دائم .. وجهادٍ شديد .. رضى اللّـه عنهم وأرضاهم ..

أما أصحاب الحكمة العليا .. أهلُ اللّـه تعالى وصفاته وأنوارِه .. فأولئك جُلساءُ اللّـه تعالى المستغرقون فى عظمته وهيبته وفضله وأنواره وأسراره .. ولذلك يَصُبُّ عليهم الأنوار صبّاً .. ويجتبيهم .... ويقرِّبُهم إليه

بفضله ، فإنهم غير معتمِدِينَ على أفعالهم وأعمالهم .. ولا ناظرين إلى أنفسهم ، ولا إلى ثواب أو عقاب ، أو إلى دنيا أو إلى آخرة .. بل نظرهم كُلُّهُ إلى اللّه .. وهَمُّهم كُلُّهُ إلى اللّه ..

وسبحان من أودع فى كل قلب ما يَشْغَلُهُ ....، فمن جُبلت نفسهُ على معالى الأمور فإنه لا ينشغل إلا بها ... ومن جبلت نفسه على سفاسف الأمور ... فهذا مستواه حقًا .... فالمنشغل بالدنيا وما فيها ... فإنها لا تسوى عند اللّه جناح بعوضة !!! وهذا قَدْرُهُ أيضا ... وكُلٌّ يعمل على شاكلته ... أمَّا المُنشغِل باللّه تعالى ذاتاً وصفاتٍ فهذا أمره إلى اللّه.. وأنعِمْ به وأكْرِمْ ...

والملكوت الأعلى له حضراته الذاتية .. حيث لاتعليق لنا عليها.. ولاخوض لنا فيها ، حتى لايزِلَّ اللسان فى تعبير غير مقصود فيُساء فهمه منا ، ويُساء الحكم علينا ، والعياذ باللّه تعالى من كل ما يخالف كتابَ اللّه وسنة رسوله ﷺ ...

وهذه العوالم العليا .. لاتستطيع الروح أن تعيش فيها أو تعايشها بصفة مستمرة ... بل هى تزورها لمحات كلمح البصر لا غير .. فَتَنْهَلُ من هذه الحضرات والأسرار فى لمحة واحدة ، مايَنْدَكُّ بها القلب والنفس والجسد ..

وقد تجَلَّى رَبُّكَ للجبل فجعله دكًا .. بل وخَرَّ موسى صعقاً عليه السلام ...

هـذا بينمـا يقـول ﷺ " إنّـى أبيـتُ يُطْعِمُنِـى ربّـى وَيـسْقِينِى" حديث صحيح حسن ، رواه البخارى ومسلم عـن " أبـى هريـرة " رضـى اللّه عنه ...

والحديث عن هذه المعِيَّة الخاصة جُرْأة لانتطاول اليها ...

وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ ﴾ (1) يبين لك مكانة الملأ الأعلى ، و حتى عندما تزداد لجاجة الكفار مع رسول اللّه ﷺ ، ويطالبون بما يخرجه عن بشريته وعبوديته للّه تعالى .. يرد عليهم القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠ ﴾ (2) .

فرسـول اللّـه ﷺ علـى جَـلال قـدره ، وعظـيم قُرْبـه مـن اللّـه تعالى ، وهـو النفسُ الأكمـلُ و الـروح الأعظـم ، مَحِلُّ أنـوار اللّـه تعالى وأسراره ، يُنَبِّهُنَا فى هذه الآيات ، إلى أنه مُتَلَقٍ مـن اللّـه تعالى ، كيفما يشاء اللّه له من الملأ الأعلى ....

---

(1) سورة الصافات آية : ٨. (2) سورة ص آية : ٦٥-٧٠.

يقول رسول اللّه ﷺ " إِنِّى فِيْمَا لَمْ يُوحَ إلىّ كَأَحَدِكُم " رواه الطبرانى فى الكبير عن " معاذ " ، وهو حسن ...

فهذا المستوى الأعلى لتجَلّيَات اللّه تعالى ... لا يُتَحَدَّثُ عنه إلا بالأمر من صاحب الأمر ... حيث يكون تجَلى الذات الأحديَّة الصمديَّة الرحمانِيَّة ، وأنوار فيوضاتها .!!!

فالإمساك عن الحديث أنسب للأدب مع اللّه تعالى ورسوله ......

وماذا تكون المخلوقات والأكوان والعوالم فى جنب اللّه سبحانه وتعالى ، وهو يقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (1) ، ويقول ﷺ " اللّهمّ إنّى أعوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وأعُوذ بكَ مِنْكَ ، لا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أنتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ" حديث حسن صحيح ، رواه مسلم والنسائى وغيرهم عن " عائشة " رضى اللّه عنها ..

فانظر رحمك اللّه تعالى وإيانا .. كيف يستعيذ رسول اللّه ﷺ من أفعال اللّه تعالى الجَلالية .. بأفعاله الجمالية ... وكلها للّه تعالى !!

ويستعيذ بصفات الرحمة والرأفة من صفات العقوبة والشِّدَّة .. وكلها للّه تعالى ..

ثم صلى اللّه عليه وسلم يستعيذ بذات اللّه تعالى من ذات اللّه تعالى جَلَّ شأنه !!!!

---

(1) سورة القصص آية: ٨٨ .

وهنـا تقـف المعـارف والألـسنة والقلـوب والأرواح عـن الفهـم والإدراك .. ، وإذا برسـول اللّـه ﷺ يقـول " لا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أنْتَ كَمَا أثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " ...

تَـرَقٍ .. وسُـمُو مـن رسـول اللّـه ﷺ .... حيـث ينتقـل ﷺ مـن حـضرات الأسمـاء .. إلى حـضرات الـصفات .... إلى حـضرات الـذات السرمدية .. كلُّ هذا خلال تسبيحة واحدة منه ﷺ ......

جَلَّ جَلالُ اللّه تعالى، وتقدَّسَت ذاته وعَزَّ جاهُهُ ..، فما قدروا اللّه حق قدره ... وما عرف اللّه تعالى غير اللّه ... وما عُرِفَ اللّه تعالى إلا باللّه .. جَلَّ شأنُهُ العظيم ..

وفى بضع كلماتٍ قليلة من كتاب اللّه تعالى ... ينقلك جَلَّ شأنه وَيُنَبِّهك إلى حضرات الأفعال .. وحضرات الصفات .. وحضرات الذّات فى سهولة ويسر ... ، كما أشرنا إلى سورة الناس حيث ... يقول تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾ ..

وهنا ... نأتى إلى الدرجة العُليا ... الأُلوهية .. السيطرة والهيمنة على الأرواح ... الإله الذى ليس كمثله شيئ... الواحد القهار ..

" فَرَبِّ النَّاس " ... مربِّى الأجساد فى عالم الملك والشهادة بحضرات الأفعال والأسماء.

"ومَلِـكِ النَّـاس " ... مـالكهم ومَلِكُهُـم فـى القلـوب فـى عـالم الجبروت بحضرات الصفات .

"وإِلـهِ النـاس " ... خـالقُ الأرواح ومحييها فـى عـالم الملكـوت بحضرات الذات .

وهـذه الحـضرات جميعاً .. الأسمـاء .. أو الأفعـال .. والـصفات .. والذات .... اللانهائية .. واللاآنية .. تجمعها جميعاً الحضرة " الفَرْدانِيَّة " الكـبرى ..... فـسبحان مـن جعـل الكثـرة فـى واحـد .. والواحـد مَظْهَـراً للكثرة ..... وأينما تولوا فثم وجه اللّه تعالى ...

ولاتظن أن هناك فواصل بين هذه الحضرات ، محددة العـوالم والمعـالم .. بـل الأمـر أكثـر تعقيـداً مـن ذلـك .. فالحـضرات متداخلـة .. ومنفصلة .... ، ومن الناس من يعيش فيها أو يزورها كلمح البصر .. ومـنهم من يطول مقامه فيها .. ومـنهم مـن يـسيح فيهـا مـن حـضرة إلى حـضرة .. ومنهم الُمقِلُّ ، ومنهم المكثر ...

ومـنهم مـن يعـيش جـسمه فـى حـضرة الملـك ..... ويعـيش قلبـه ونفسه فى حضرة الجبروت ..... وتعيش روحه فى حضرة الملكوت ، وهـو فى كل هذا ثابت راسخٌ كالجبل ، لاتدرى ما به ولا ما فى باطنه ...

ومـنهم مـن يتـأثر ظـاهره .. ومـنهم مـن لايتـأثر ظـاهره الا بقـدر .. ومنهم من لايتاثر ظاهره .. وهـو المقام الأكمـل كمـا كـان لـسيدنا رسول اللّه ﷺ ..

فهو ﷺ مع البشر مثلهم .. يأكـل وينـام ويمـشى ... وهـو مع اللّـه

تعالى بجميع عوالمه وقلبه ونفسه وروحه ، حتى قال اللّـه عنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ وحتى قال ﷺ " إنّا مَعْشَرَ الأنْبِيَاءِ تَنَامُ أَعْيُنُنَا وَلاتَنَامُ قُلُوبُنَا " حديث صحيح ، ذكره ابن سعد عن " عطاء " مرسلاً....

فروحه وقلبه ونفسه مع اللّـه تعالى .. يوحى إليه نوماً ويقظة ، لايغفل عن اللّه طرفة عين صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أمَّاعن الإنسان العادى فنستطيع القول أنَّه ...

إذا ذَكَر اللّـه تعالى بلسانه ، كان عالمه هو عالم الملك والشهادة ،.....

وإذا ذكر اللّـه تعالى بقلبه ونفسه وسِرِّه ، كان عالمه هو عالم الجبروت ، .....

وإذا ذكر اللّـه تعالى بروحه ، كان عالمه هو عالم الملكوت الأعلى ...

وهى درجات .. ومن كل عالَمٍ تأتيه أنوار هذه المخلوقات والإمدادات من اللّه تعالى...

ومن العابدين من يكون كل جزء من تركيبه فى حضرة من الحضرات التى تناسبه ... وهو بين الملك والملكوت هابط صاعد ، نازل طالع ، تبعا لتجَلِّيَّاتِ اللّه تعالى عليه ، وطاقاته التى أكرمه اللّـه تعالى بها .

بقيت نقطة أخيرة ....

الذى يتعايش مع هذه العوالم .. وهذه الحضرات .. لاشك أنَّهُ بين المشاهدة والمعايشة ، يكون له فيها رؤى ومذاقات وحُجُبٌ تنقشع وتوضع ...

وحيث أن مقام الإحسان هو بين المراقبة والمشاهدة .. فيلزمنا ان نتعرض ولو قليلاً لمعنى الرؤية ومفهوم الحجاب .. وهذا ما سوف يكون حديثنا عنه باذن اللّه تعالى فى الباب القادم ..

١- الحُجُب الكونية

٢- الرؤى ودرجاتها

فتح اللّه بصرنا وبصركم .. وأنار بصائرنا وبصائركم .. وطهَّر أرواحنا وأرواحكم ، وجمعنا جميعاً على حبيبه المصطفى ﷺ .. لنكون فى حضرته العليَّة كتاباً مسطوراً بالهدى والنور ، ولا حَجَبَنَا اللّه تعالى عن مقام كرَّم رسوله ﷺ فيه .. ، وجعلنا من خيار محبيه ومن أصدق مجيبيه ..

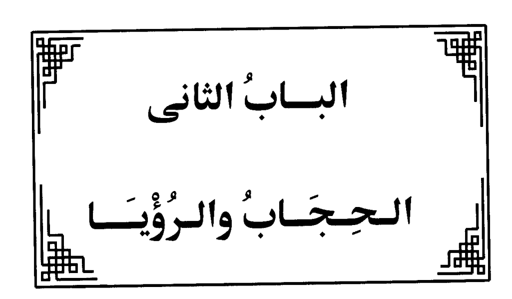
وصلِّ اللّهم وسلم وبارك على عبدك وحبيبك ، وسر نورك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ونحن معهم يا رب العالمين والحمد للّه فى الأولى والآخرة .





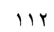






البــابُ الثانى

الـحِـجَـابُ والـرُؤْيَــا



خلُصنا مما سبق إلى أن الإنسان وهو يعيش في عالم الملك والشهادة ، تُحيطُه أيضاً عوالم الملكوت الغيبية ، وأن هذه العوالم الغيبية متداخلة فيما بينها ، رغم أن كلاً منها منفصلٌ عن الآخر بكيفية ما ، وأن الإنسان يتعايش في حياته الدنيوية مع هذه العوالم ، سواء أدرك هذا أم لم يدركه .. بلْ إنه يتعامل مع الكثير منها ، دون أن يدرى لها مُسمَىً أو تعريفاً ...

ولِكَىْ أُقَرِّبَ لك المعنى ، أضرب لك مثالاً بشعاع الضوء العادى ... فأنت تراه لوناً واحداً .... بل أنه بلا لون .. ولكن هذا الشعاع إذا مرَّ خلال منشورٍ زجاجى ، فإنه يخرج منه منقسماً إلى سبعة ألوان ، وهى ما نسميها " بألوان الطيف " والتى تتدرج من الأحمر إلى البنفسجى ، بل إن فيهِ كذلك ما هو تحت الأحمر وما هو فوق البنفسجى ...

ويُفَسِّرُ العُلَمَاءُ هذه الظاهرة بقولهم ، أنَّ لكل لون من هذه الألوان ذبذبة خاصة به مرتبطة بطول موجة هذا اللون .. والمنشور الزجاجى وما شابهه يستطيع أن يحلّل هذه الألوان من الضوء العادى ، حيث أن لكل موجة منها درجة انكسار خاصة بها ، ... لذلك فإن الألوان الخارجة من المنشور ، تبدأ دائماً بالأحمر وتنتهى بالبنفسجى.. ونفس الترتيب تراه فى ظاهرة " قوسِ قزح " عندما تمطر السماء وتكون الشمس ساطعة ...

وهذه الأطياف السبعة يمكنك أن تتعامل مع واحد منها فقط أو معها كلها معاً...

فتداخل العوالم بعضها فى البعض ، رغم انفصال كل منهم عن الآخر ، ليس بالأمر الغريب عن العقل .. فإن الألوان السبعة اندمجت كلها معاً ، فأصبحت عَالَماً واحداً .. وبلا لون !!!

وقلنا إن مجال رؤية العين البشرية هو عالم الماديَّات .. وإدراك العوالم الأخرى يكون بقوى النفس الأخرى المُدْرِكَةِ من باطنٍ ، وأنَّ إدراك هذه القوى يزيد بفيوضات أنوار الروح وقواها على النفس ، فيصبح الإنسان ذا فراسة ونور وبصيرة .. ويزداد قوة على التعامل مع الأكوان الخفيّة عنه ...

وقلنا إن عوالم الملك والشهادة هى عوالم حضرات أسماء اللّـه تعالى وأفعاله... وتتعامل معها العين البشرية ... ، وعوالم الجبروت هى عوالم صفات اللّـه تعالى ... ويتعامل معها القلب ... ، وعالم الملكوت الأعلى هى عوالم الحضرات المطلقة .. وتتعامل معها الروح ...

• وإذا عُدْنا إلى منطوق حديث رسول اللّـه ﷺ عن الإحسان حيث يقول : " **أنْ تعبدَ اللّـه كأنَّك تراه** " ... وحرف الكاف هنا هو حرف " التشبيه " .. ، وفارق فى المعنى بين من يقول " أنَّك تراه " و " كأنك تراه " ....

يقول سبحانه : ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾[1] ....

(١) سورة النمل آية : ٤١- ٤٢ .

فملكة سبأ رأت عرشها عند سيدنا سليمان .. وفيه بعض التغيير .... ولكن هى تعرف عرشها ، ولكنَّ عقلها لم يتصورْ أن يكون العرشُ قد أُحضِرَ إلى ذلك المكان ... وكيف ينتقل العرش من مكان إلى مكان !! ومن الذى ينقله !! أمرٌ بيَن التصديق لما تراه بعينيها .. وعدم التصديق لقياسها بالعقل .. فقالت " كَأَنَّه هو " ....

وسيدنا حارثة رضى اللّـه عنه ، يجيب رسولَ اللّـه ﷺ بقوله " وَكَأنّى أَرَى عَرْشَ الرَّحْمَنِ بَارِزًا " .... والأمر هنا ليس بين التصديق والشك ... ولكن لعدم الإحاطة الكاملة لما يراه .. لأن هذا أمر محال فى الحياة الدنيا .. فقوى النفس مهما ارتقت وسَمَتْ وارتفعت ، فهى مرتبطة بالجسد ومتطلباته وقوانينه ... ومحال أن تكون رؤيتها رؤية كاملة ... أو رؤية على التحقيق الكامل ...

• واللّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[1]

وحبل الوريد هو الواصل فى الإنسان إلى القلب .. وليت شعرى كيف يكون معنى القرب المقصود ، والتشبيه بشئ هو موجود داخل جسمك وفى شغافة قلبك ... فأىُّ قرب هذا ؟؟ وكيف يُرَى من وما هو بمثل هذا القرب !!

وعندما قال بنو اسرائيلَ لِمُوسى أَرِنَا اللّـه جهرةً .. أخذتهم

(١) سورة ق آية : ١٦ .

الصاعقة وهم ينظرون ... وعندما سأل سيدنا موسى رَبَّهُ أن ينظر إليه وتجَلَّى ربه للجبل ، جعله دكَّاً ، وخر موسى صَعِقاً ، فلما أفاقَ قَال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ....

فرؤية الإلْمام والإحاطة مستحيلة عقلاً وشرعاً ... فاللّه جَلَّ جَلاله ليس كمثله شئ .. وكل ما خطر ببالك فاللّه خلاف ذلك .. وهو يقول جَلَّ وعلا ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [1].

أما ما يثار في أمر الإسراء والمعراج ، واختلاف الأقوال حول هل رأى رسول اللّه ﷺ ربَّه بعينيَ بصره ؟؟ .. فهذا أمرُ خارج تماماً عن حد الأدب ، مع اللّه تعالى ومع رسوله وحبيبه وصفوة خلقه ﷺ ...

وقد أكرم اللّه رسوله بمعجزة كونية حيث يقول ﷺ " أَتِمُّوا الصُّفُوفَ ، فَإِنِّي أَراكُمْ خَلْفَ ظَهْرِي " !! حديث صحيح، رواه مسلم عن " أنس" ، وهذه ليست مواصفات ولا إمكانية العين البشرية العادية .. فهذه خصوصيّة لرسوله الكريم ... ثم بعد ذلك جعله سميعاً بصيراً -كما سبق عرضه- تأهيلاً لهذه الحادثة الجَلل التي لم يَسْبِقْ إليها نبيٌّ ولا رسول ...

ثم بعد كل هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا

(١) سورة الأنعام آية : ١٠٣.

رَأَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ [1] ، ويقـول فـى نفـس الـسورة : ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [2] ...

الأدبُ الكاملُ لرسُولِ اللّـه ﷺ ... والثباتُ الأعظمُ لحبيب اللّـه ﷺ ... فما زاغ البصرُ من هيبةِ وجَلالِ ما يُشاهدُ ثباتاً ورسوخاً وسكينة ... وما طغى البصر خِفَّةً ونشوةً وأُنسًا بإنعام اللّـه تعالى عليه بهذا الفضل ...

صلّى اللّـه عليك وسلّم ، وبارَكَ ، يا سيّدى يا رسول اللّـه ، وعلى آلك وصحبك أجمعين ... ،

وكل ما يمكن قوله فى هذا المقام أنه قد انقدحت عين رسول اللّـه ﷺ فى بصيرته ، وانقدحت بصيرته فى عينه ، فرأى بعينه ما يراه ببصيرته ...

وأستغفر اللّـه تعالى مما أقول .. ، واستسمحُ رسولَهُ ﷺ مِنَ الخَوضِ فى هذا الأمر .. ، ولكننا أردنا أن نوقف الحَدّادين ونافخى الكِير ، من الخوض فى أسرار الملوك ، والبحث بعقولهم المحدودة وعلمهم الذى هو على قدرهم ، فى آية من أعظم آيات اللّـه التى أكرم اللّـه بها حبيبه وصَفِيَّهُ ﷺ ...

- وقبل أن نتحدث عن الرؤية والحجب يجب أن نتعرض قليلاً لمُسبِّبِ الرؤية ومُحْدِثِها وهو النور ... فنقول بإيجاز شديد :-

---

(1) سورة النجم آية : ١١ .

(2) سورة النجم آية : ١٧ .

النـور : النـور هـو الـذى تُـدْرَكُ بـه الأشـياء .. وبدونـه تكـون الموجودات كالعدم ...

والنور فى حَدِّ ذاته لايُرى .. ولكنه بسقوطه على الموجـودات وانعكاسه عنها إلى العين ، تُرى الأشياء ، وعلى قدر شِدّةِ هذا النور أو الضوء ، وكذلك على قدر صحة العين ، تكون قوة الرؤية ، ...... فالنظر إلى الموجودات والإحاطة بها يكون بالنور ... أى أنه أداة المعرفة ...

والعرب تطلق لفظ " النَـظَر " على البصر .. وكذلك تطلقه على التفكُّر والتدَبُّر والتمحيص والدراسة ....

يقـول تعـالى : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1]، ويقـول جَـلَّ شـأنه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[2].

فسواء كان النظر بالعين أو النظر بالعقل والبصيرة ، فكلاهما يلزمه نور ... إلاّ أنَّ نور هذا ، غير نور ذاك ...

فإن كان تعاملك مع عالم الشهادة ، فيلزمك النور الأرضى الذى تلتقطه العين .... وإذا كان تعاملك مع عوالم الملكوت ، فيلزمك نور آخر يلتقطه القلب والفؤاد والبصيرة ...

---

(١) سورة النمل آية : ٢٧.　　(٢) سورة الصافات آية : ١٠٢.

يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [1]

ويقول : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [2]

ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [3]

والحكمة ببساطة هى : حسن الإحاطة ، وتمام العلم بالأمور ، مع التبصُّر بعواقبها ...

وقد سبق القول بأنها قسمان .. حكمة دنيا .. وحكمة عليا .. فارجع إلى قولنا فى الباب السابق ...

يقول جَلَّ شأنه : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وفى آخر الآية يقول جَلَّ شأنه : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [4]، ثم يقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [5].

والقرآن نور اللّه ، والإيمان نورُ اللّه ، والرسل جميعاً نور اللّه ، وذكر اللّه تعالى والأعمال الصالحة نور ، والمؤمنون يسعى

---

(١) سورة الحج آية : ٤٦.
(٢) سورة النجم آية : ١١.
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٩.
(٤) سورة النور آية : ٣٥ .
(٥) سورة النور آية : ٤٠ .

نورهم بين أيديهم ....

ويقول رسول اللّه ﷺ " اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّه " رواه الديلمى...

ونستطيع أن نوجز ما نريد فى قولنا أنَّ النور هو وسيلة المعرفة والإلمام والصواب والهدى ، ....

ولكل عالم من العوالم التى ذكرناها سابقاً نورٌ خاصٌ يلزمُهُ فيُدرَكُ به ... وكذلك أداة خاصة فى الإنسان تستقبله ، تناسب هذه العوالم من عين أو قوى نفْسٍ أو صفاتِ قلبٍ ...

وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يدلُّ على أن نور اللّه تعالى مِلء السماوات والأرض وما بينهما .. وكل الأكوان والعوالم .. وكل أسباب المعرفة والإدراك والعلم والتبصُّر والحكمة .. كلها من اللّه تعالى .. ومنبسطة على عباده ... ومنبسطة على أكوانه ومخلوقاته .....

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يلتقط هذا النور بعض الناس .. والبعض يزيد نصيبه منه ، والبعض يقِلُّ نصيبه حتى يصير كالأعمى !!

المنطِقُ العادى البسيط يقول أنه لابد وأن تكون هناك حواجز أو موانع أو حُجُب ، حول العبد أو بين العبد وربّه ... أو بين العبد و بين إدراك هذه الأنوار ... وهذه الحُجُب تتفاوت كثافة وشفافية ، كما يختلف ويتفاوت نصيب كل عبد منها ....

وروى مسلم عن " أبى ذرٍ " رَضِىَ اللّه عنْهُ أنّهُ سأَلَ

رسـول اللّـه ﷺ : "هَـلْ رَأيـتَ رَبَّـكَ ؟ " فقـال : " نُـورٌ أنَّـى أراهُ "
وفـي روايـةٍ وقـال لأبـي ذرٍ " رأيـتُ نـوراً " كمـا ذكـر مـسلم عـن
" أبـي موسـى " أن رسـول اللّـه ﷺ قـال " حِجَابُـهُ النُّـور لَـو كَـشَفَهُ
لأحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ " .

ويقـول ﷺ " سَـألْتُ جِبْرِيـلَ هَـلْ تَـرَى رَبَّـكَ ؟ قَـالَ إِنَّ بَيْنِـى
وَ بَيْنَـهُ سَـبْعِينَ حِجَابـاً مِـنْ نُـورٍ ، لَـوْ رأيْـتُ أدْنَاهَـا لاحْتَرَقْـتُ " رواه
الطبرانى فى الأوسط عن " أنس "

ولنا الآن أن نتساءل ما معنى الحجاب المقصود ؟؟؟

ونجيـب ببـساطة أنَّ الحجـاب هـو انطبـاع الـصور الكونِيَّـة فـى
القلب وانشغاله بها .. وقياسه عليها ..

فتحجـب عنـه تجَلِّـيَّات اللّـه تعـالى وأنـواره ، بحيـث تـصير لـه
كالغلاف .. فلا يرى ولايدرك أى شئ إلا من خلال هذه الصور الكونية...
فَيُحدُّ إدراكه ومعرفته على قدر هذه الصور ....

ومعنـى انطبـاع الـصور الكونيـة فـى القلـب .. هـو انـشغال
القلـب بـبعض عـوالم الكـون ، وسـيطرة هـذه العـوالم علـى منطـق
وإدراك وبصيرة القلب ...

فمثلاً من انشغل بالعالم الأرضى .. وكانت الدنيا كل هَمِّهِ
وتفكيره ومنطقه.. فإن قوانينها وقوانين عوالمها تكون قيداً للقلب فى
إدراكه وتذوقه .. فيكون مادياً فى تفكيره ومعلوماته .. فإذا رأى مناماً فيه
إشارة إلى حقيقة غيبية ، أو رأى بعض أرواح الأموات تخاطبه .. فإن كل

حكمه على رؤياه ، أنَّها أضغاث أحلام ....، فهو لايؤمن إلا بالماديّات والأساليب والنتائج .. أمَّا أن ينام وتصله رسالة حقيقية فى نومه .. فهذه أوهام فى نظره ... وبالتالى تنقطع عنه أمثال هذه الرؤى أو على الأقل لا يستفيد منها لعدم يقينه بها ..

ومثالٌ آخر لمن يكون انشغاله بعالم الجن مثلاً ..

فإن كل مفهومه وإدراكه يدور حول طاقات الجن وأفعالهم وعوالمهم .. ويفرح بسيطرته على الجن مثلا - إذا كانت له عليهم سيطرة - ويفرح بقضائهم لمصالحه ورغباته ... ويكون هَمُّهُ كُلُّهُ هو كيف يزيد من سيطرته عليهم ... وأساليب إخضاعهم ......

فإذا قلنا له ، أن هناك عوالم أخرى غيبية من الروحانيين والملائكة ، لهم قوى أضعاف أضعاف ما فى الجنّ .. وأن اللّه سبحانه وتعالى قد يُسَخِّرُ بعض هذه العوالم لبعض عباده الخالصين له ، لايريدون إلا وجهه ، ولايقصدون السيطرة على عالم من العوالم .. فإنه لا يقتنع بهذا الكلام .. ويظلُّ حبيس أفكاره ورغباته ، وبهذا لا يرتقى أبدا إلى مقام العبودية الحقَّة للّه تعالى .. بَلْ هَمُّهُ وانشغاله وإدْراكُهُ وعلِمه لايتجاوز عالم الجنّ ...

أمثلة بسيطة نسوقها للدلالة على معنى الصور الكونية وانطباعها فى القلوب ، ولكن حقيقة مقصودنا غير ذلك .... أو هو أبعد من ذلك...

وإليك بعض الإيضاح ....

قلنا من قبل أن عالم الملك هو عالم حضرات أسماء اللّه تعالى وأفعاله .... وأن أفعال العباد والمظاهر الكونية هى انعكاس وآثار لأفعال

اللَّه تعالى وتجَلِّيَّاتِه ....

فالنـاظر إلى أفعـال العبـاد وتـصرفاتهم ، هـو بـين درجـتين ..
الأولى : أن يرى أفعال العبادِ صادرةً من اللَّه تعالى..
الثانية : أن يرى اللَّه تعالى فعالاً في عباده ..

والأولى بمعنـى أن يعـرف الإرادة أولاً ، ثـم يـرى أفعـال الخلـق والثانيه بمعنى أن يرى الأفعال أولاً ، ثم يعرف الإرادة بعد ذلك.

ولـيس المقـصود بهـذا الوضـوح الـذى نـذكره ولكننـا نقـرب المعنى إلى ذهن القارئ.

وفـى الحالـة الأولى يكـون العبـد نـاظراً إلى أفعـال العبـادِ ، وغلبة القضاءِ والقدرِ عليهم ...

وفـى الحالـة الثانيـة يكـون العبـد نـاظِرا إلى اللَّـه تعـالى وأسمائه وصفاته وجنوده ...

وقد يبدو الأمر من الوهلة الأولى أن الحالتين لا فارق بينهما .. ففى كلتيهما يرى الناظر أن اللَّه تعالى هو الفعال لما يريد فى أكوانه ...

ولكن الفارق بينهما فى الحقيقة كبير ...

فإن الأول يعيش فى حضرات الأفعال والأسماء ، ويجتلى ذلك بعقله وفكره وحواسِّه ...

بينما الثانى يعيش فى مبتدأ حضرات الصفات ، وأثرها فى عوالم الملك .

ولاحظ أن الاثنين لم يرتقيا بعد ليعيشا فى عوالم حضرات

الصفات ، وملكوت عوالم الغيب والجبروت ...

والذى يعيش فى حضرات الأسماء والأفعال .. يكون محجوبا عن عوالم الصفات ... بما يراه من حضرات الأفعال .....

كذلك من يكون متعايشاً مع عوالم الجبروت .. فإنه يكون محجوباً عن عوالم الملكوت الأعلى بما يراه من عوالم الجبروت والتجَلِّيَّاتِ التى فيه ...

وفى كل عالم من هذه العوالم مبتدأ .... ودرجاتُ .... ونهاية ....

بل وأكثر من هذا .. فإن المبتدئ فى الدخول إلى عالم من هذه العوالم .. عادة ما يبدأ تعامله معه متعثراً .. متردداً .. ويلزمه وقت يطول ويقصر ، حتى يكون من أهل التمكّن فيما دخله ، ولايصير متمكنا فى درجة من هذه الدرجات ، إلاَّ إذا أشرف على بداية الدرجة التى تليها .. وتداخلت عوالمه فى تلك المرحلة ...

ولاتظن أنَّ الأمر بهذا الوضوح الذى نتكلم به .. أو أنه مثل درجات السُلَّم.. بحيث تعرف بداية ونهاية كل درجة .. أو أنك تعرف الدرجة التى أنت فيها ، أو التى فيها غيرك من العباد .

ولذلك فإن كلام ساداتنا عن المقامات والأحوال التى يمر بها السائر إلى اللَّه تعالى .. جعلت كثيراً من الناس يخطئ فى فهم كلامهم وذلك على حسب عقل القارئ وإدراكه هو .. ، لا كما يقصده ساداتنا الأفاضل .. فانهم أهل رؤيا يقينية .. ولكن كثيرا ما يكون فى ألفاظهم

الكثير من الرمز والإشارة ، التى لايدركها إلا أهل هذا الأمر ...حتى لايأخذ الحكمة منهم من لايستحقها من الناس فيسئ استخدامها .. كالطفل الصغير إذا مكنته من الأحجار الكريمة أو من سلاح حادٍ ، فهو إمّا ألاَّ يقدِّر الامور حق تقديرها .. وإمّا أن يؤذى نفسه أو من معه وحوله .

لـذلك فلـن أتعـرض للمقامـات ولا للأحـوال ولا البـوارق ولا اللوامع .... كما تعرّض لها السابقون من ساداتنا الكرام ... لأن من يعيش فيها لن يعرف أنه يعيش فيها ... ومن لا يعيش فيها لن يفهم عنها شيئا .....

ولعلنا فى هذه العُجَالة قد أوضحنا معنى انطباع الصور الكونية فى القلب .. ولمعنى الحجاب عند اللّه تعالى ..

فالشهوات الأرضية حُجُب .....!!!

والعوالم الغيبية .. حُجُب .....!!!

وانشغال نفسك .. وقلبك .. بأى غيرٍ من الأغيار .... حُجُب..!!!

فكل ما سوى اللّـه .. حجابُ عن اللّـه ... والقاصد وجه اللّـه والعابد للّه حقاً مُخلِصاً لايريد إلا وجهه الكريم ... ومهما انكشفت له من عوالم الغيب بدرجاتها ، فانه لاينشغل بها ولايقف معها .. بل لو جاءته العوالم كلها من جنٍ وشياطين وجنود .. وغيرهم ليكونوا خُدَّاما بين يديه وبأمره .. ما التفت اليهم .. ولاتعلَّق بهم .. ولاركن إليهم .. بل هو لايريد إلا اللّـه تعالى .. بكماله وجماله وجَلاله ......

وتلزمنا الإشارة هنا إلى نقطة غاية فى الأهمية وتلك هى أن بعض هذه الحجب إنما هى رحمة من اللّـه تعالى للعبد ، تحجب عنه

وتخفِّفُ عنه ، ما لا يستطيع التعرض له ، أو ما لا يكون مستعدا لاستقباله ...... ، وعلى سبيل المثال لو كشف حجاب الزمن عن الخلق ، وعرفوا أقدارهم المستقبلية ، وما كتب لهم من الرزق ، وما سوف يجرى عليهم من بلاء أو غيره .. فكيف تتصور أن تكون حياتهم ، وانتظارهم لأمرٍ سوف يقع عليهم ، سواء كانوا يحبونه أو يكرهونه ، وما يواكب هذا الانتظار من قلق وترقُّبٍ وألم ، وبعد كُلِّ هَذا قَدْ يُغَيِّرُ اللّه قضاءه ، ويلطف بهم ، ولا يقع المكروه الذى يترقبونه وينتظرونه .....

كذلك انكشاف عوالم الملكوت الغيبى للنفس البشرية ، وهى غير معدَّةٍ لهذا الاستقبال ، قد يصيبها بالشلل المعنوى .. وماذا يحدث لو نظر العبد فجأة وهو بمفرده ، فرأى بعض الجن والملائكة مثلا والعوالم الأخرى حوله ، يحادثونه ويتعاملون معه ، دون مقدمات ولا استعدادٍ لهذا الأمر !!!

لذلك نقولُ أن وجود بعض هذه الحجب إنما هو رحمة للعبد ، ولطف من اللّه تعالى به ، حتى يتلقَّى من العوالم العلوية بِقَدَرٍ و مقدار على قدر استعداده ، وعلى قدر طاقته وازديادها بالتدريج ....

ومن هذا العرض المبسط نرى ما يلى :-

الحُجُب عن اللّه تعالى تنقسم إلى نوعين ...

الأول : حجب ظلمانية .. وهى الدنيا وشهواتها وزينتها والمعاصى والمخالفات .

الثانى : حجب نورانية .. وهى درجات الكشف النورانية التى

يُكرِمُ اللّه بها عبده السائر إليه.

وهنا يجب ان نفرق بين أمرين فى غاية الأهمية .. الأول : هو الكشف .. والثانى هو الفتح ....

وبإيجاز شديد نتعرض لهما فنقول وباللّه التوفيق ...

الكشف : هو الاطّلاع على بعض الأمور الغيبية الكونية والإخبار بها .... وهذا الكشف لانعتدُّ به ولانقيم له وزناً ...لأنه قد يشترك فيه المؤمن والكافر ..

وسببه كما قلنا من قبل هو ازدياد قوة طاقات النفس الباطنية ، وهذه قد يصل اليها المؤمن بطاعة اللّه وذكره ، .. كما قد يصل إليها غير المؤمن بنوع من الرياضة النفسية واستخدام الجنّ فى معرفة بعض الأمور الغيبية ...

ونظرا لاشتراك المؤمن وغير المؤمن فيه .. لذلك فنحن لا نلتفت إليه .. فضلا عن أنه ليس بمرادنا ولا مقصودنا .. فنحن لا نريد سوى وجه اللّه تعالى ، لا أكوانه ولا جنوده ...

ورغم هذا فالكشف ينقسم إلى نوعين :-

كشف نورانى : وهو ما كان كشفا لبعض عوالم الملكوت ...

كشف ظلمانى : وهو الذى يغلب عليه تتبع معاصى العباد وعوراتهم فى خلواتهم .. فيكشف ويفضح ما ستره اللّه على عباده بدون غرض شرعى صحيح ...

وهناك أمر ثالث مرتبط بالكشف وهو الذى نسميه بالاستدراج....

والاستدراج : هو نوع من الكشف ، يجرى لبعض العباد الذين سبق غضب اللّه عليهم ، والعياذ باللّه .. فيمكر به الشيطان ، فيكشف له عن بعض عوالم الغيب ، ويزيد فى طاقات النفس .. فيغترَّ صاحبُهَا بها ، ويسئ استخدام هذه القوى فيما يريده هو ، لافيما يحبُ اللّه تعالى ...

هذا نوع .. والنوع الثانى .. هو كشفُ من اللّه تعالى ، وإكرام منه للعبد نتيجة لعبادته وإخلاصه ، ولكن العبد يقف معها .. ومع الخوارق التى تحدث منه .. فيجمع الناس حوله .. ، ويظن أنه يفيدهم ويأخذ بأيديهم .. ويحترمه الناس ويحبونه ويرجونه ... ، فيتزيّن لهم .. ويزيد من طاعاته وعبادته ليس حبًا للّه .. ، ولكن بدعوى أنه ينفع الناس وأن هذا دوره .. وهو فى حقيقة نفسه لايحب إلاَّ نفسه ، ولايهتم إلا بأن يكون مقدَّماً محترماً محبوباً بين الناس ... ، فيقف عند هذا .. ، وتتغيرُ نيَّتُه فتفسد .... وينسى اللّه تعالى ، وتختلط عليه الأمور ، والعياذ باللّه تعالى ....

ولذلك يلزم للسالك إلى اللّه تعالى فى هذه المرحلة بالذات مربٍ ومرشدٌ ودليل وناصح ، يأخذ بيده ليجتاز هذه المهالك ....

● وأمر الكشف .. وموضوع الاستدراج يسوقنا إلى موضوع أهَمَّ ألا وهو الفتح ، والكلام فى هذا الأمر صعب وجَدُّ خطير .. ولكننا نستعين باللّه ونقول :-

الفتح : هو تجَلّيَّاتِ الحقِّ سبحانه وتعالى ، بأنواره وأسراره على قلب عبده المؤمن التقىّ النقىّ .. فينير بصره وبصيرته .. ويلقى فى

قلبه وفى روعه وفى خواطره المعانى اللدنّية العالية ، والتى لايصل اليها عبد باجتهاده ولابفكره ولا بعقله ....

فالمفتوح عليه من الخلق يعيش مع عوالم اللّه تعالى الملكوتية ، ويأخذ منهم ويعطى ..، وينفعل بهم ومعهم ... ، ويعيش فى أنوار قضاء اللّه تعالى ، وسر جريان قدره فى ملكوته وملكه ..

والأمر أعقد من كلامى هذا بكثير ، ومن الصعب الحديث فيه بألفاظنا العادية .. ، غير أننا نشير إلى أن للفتح درجات .. وقيل أنها درجات خمس ..

ونحن عموماً لانطمئن لأهل الفتح إلا إذا دخلوا إلى المرتبة الثالثة منه ... ، حيث يكون فى هذه المرتبة فى مَعِيَّةِ مولانا وسيدنا رسول اللّه ﷺ... ، ويكون كفيله وضمينه ومرشده وولى أمره هو سيدنا رسول اللّه ﷺ.. ، فيصبح لايستطيع أن يعيش لحظة واحدة بغير نوره ﷺ.

فتح اللّه علينا وعليكم ، وجمعنا على رسوله ﷺ يقظة ومناماً .. ، ونفعنا اللّه به وبأنواره وأسراره ، وجزاه عنا خير ما جازى نبيّاً عن اتباعه وقومه ،

صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ونحن معهم يا رب العالمين ...

ولكى تدرك معنى الفتح بصورة أوضح نذكر أول سورة الفتح فى القرآن الكريم حيث يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ ﴾.

ولـيس لى تعليـق بـشرح .. ولكـن انظـر مـا نتيجـة الفـتح ومظاهره وعاقبته ...

غفرٌ للذنوب السابقة واللاحقة ... ، وإتمام كمال نعمة اللّـه على عبده ....، وهدايةٌ للصراط المستقيم الذى يحبُّه اللّـه تعالى لعبده ... ، ونصر عزيز مؤزَّرٌ من اللّه لعبده ...

هو إذاً ميلاد جديد للنفس البشرية وصاحبها ... ، جسمٌ جديد ..، ونفسٌ جديدة .. ، وعقلٌ جديد .. ، وتعاملٌ جديدٌ مع اللّـه تعالى ومن اللّه جَلَّ وعلا .....

ولذلك يعتبر ساداتنا أنَّ بداية الفتح هو بداية الميلاد الحقيقى .. ثم يحسبون أعمارَهم على ما يمضى من بعد هذا الفتح .. فيقولون هذا عاش سنة ، وذاك عاش خمسا ، أو عشرا وهكذا .... رضى اللّـه عنهم أجمعين وعنا معهم بفضله وكرمه ...

وحذار ان تفهم من الآيات السابقة أن اللّه تعالى قد غفر له ذنوباً سابقة منه ﷺ .. فهذا أمر لايليق بكمال رسول اللّـه عليه الصلاة والسلام .... ، الذى يقول عنه ربه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ ﴾.... ويقول له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ ....

ويقول ﷺ " أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى " وتقول عنه السيدة

عائشة رضِىَ اللّه عنها " كان خُلُقُهُ القُرآن " ...

فضلا عن أنه مِنْ أُسُسِ الإيمان أن تؤمن أن الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام معصومون ، قبل البعثة وبعدها ، وليس لهم لاصغائر ولاكبائر .. ، فلا حظٌ للشيطان فيهم .. ، ونفوسهم نبويَّة عالية ، يوحى إليهم نوما ويقظة ..، فهم مع اللّه تعالى بكيانهم وكينونيتهم .. فلا تصدر منهم معصية أبداً ، ولاذنب أبدا .

وقد حمل ساداتنا معنى الذنب المذكور فى الآية الشريفة على ثلاثة أوجه :

الأول : أنَّ قولَهُ تعالى ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، مقصود به المؤمنون حول رسول اللّه ﷺ... وإنَّ الفتح كان لرسول اللّه ﷺ ... والمغفرة لمن حوله من المؤمنين من باب قول العرب " إيَّاكِ أعنى واسمعى يا جارة " .. ،

كما يقول جَلَّ وعلا فى أول سورة الأحزاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ .

وهل كان رسول اللّه ﷺ إلأَخيرَ عبدٍ يتقى اللّهَ تعالى ويعرفه !!. ويقول ربنا : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1]... فهل تعقلُ أنت أن الخطابَ مُوَجَّه إلى رسول اللّه ﷺ بالتهديد والخسران..... حاشا وكلا .. بل ألف كلا .... إنما يقصد بهذا الخطاب من هم مع رسول اللّه ﷺ من المؤمنين ....

الثاني : أنَّ ذنوبَ الأنبياء إنَّمَا هي من باب الحسن والأحسن .. والفاضل والأفضل ... وهي من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

فالنبي اذا أتى بالحسن وترك الأحسن -وكلاهما خير- رَجَع فعاتب نفسه على ترك الأحسن والأفضل .. فيتنزَّلُ الوحي بما في نَفْسِ النبيِّ من العتاب لنفسه ... ويصبح تَرْكُ الأفضَلِ من باب التقصير والذنوب في نظره ... الوحي ينزل بما في نفس الرسول ....

والثالث : أنَّ النبي ﷺ دائم الترقي في معرفة اللّه تعالى ... وكل ساعة بل كل لمحة يزداد علمه باللّه تعالى ..، تحقيقاً لقول اللّه تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ ....، وهي دعوة مستجابة بلا شك من رسول اللّه ﷺ .. فَكُلُّ يومٍ هو في ازدياد .... وكل زيادة في المعرفة باللّه تعالى تُظْهِرُ أن ما كان قبلها من المعرفة لا تليق بجَلال اللّه تعالى وعظمته ..، ولذلك كان رسول اللّه ﷺ دائم الاستغفار ، لأنه ﷺ دائم الترقي ودائم الزيادة في المعرفة باللّه تعالى ..، فلَزِمَ دوامُ الاستغفار عمَّا يكون قبله ...

---

(١) سورة الزمر آية : ٦٥ .

والله تعالى أعلم .. وهذا هو ما يليق بجنابه ﷺ ...

ولشرح هذه الآيات أوجه كثيرة تناولها المفسرون .. وليس هذا موضوعنا الآن ... وعلى العموم فمقصودنا هو أن نبَيِّن لك معنى الفتح وأهميته فى حياة السالكين إلى الله تعالى ...

ولاشك أن أهل الفتح من المؤمنين هم أعلى القمم المؤمنة فى كل عصر .. فهم أهل الله تعالى وخاصته .. وهم المصطفون من الله تعالى لإكرامهم بفيوضاته وأنواره ...

ورغمًا عن هذا ، فهم متفاوتون فى هذا الفضل .. كلٌ على قدره وطاقته .. فهم ليسوا جميعاً سواءً ... فهناك أهل الفتح الكبير .. وهناك أهل الفتح الصغير .. وبينهما مراتب لاتنتهى ..

هذا من ناحية ... ومن الناحية الأخرى ، فحتى من هم فى مرتبة واحدة عند الله تعالى يختلفون فى مشاربهم وفتوحاتهم...

انظر إلى الملك ... ورئيس ديوانه .. ورئيس وزرائه ... وهم جميعاً أهل الثقة والخصوصية .... ولكن رئيس الديوان أعلم بالملك وأحواله ، ورضاه ، وغضبه ، وما يرضيه ، وما لايرضى عنه .. ولكنه ليس مشغولاً بالرعية وأحوالها بقدر انشغاله واهتمامه بخصوصيات الملك ذاته .. ، أمَّا رئيس الوزراء فهو أعلم بالرعية وأحوالها .. ومسئول عن تنفيذ أوامر الملك ، وأثر هذه الأوامر ... أمَّا انشغاله بخصوصيات الملك ذاته فلايصل إلى انشغاله بتنفيذ الأوامر فى الرعية ...

فهذا فى شأن ..... وذاك فى شأن وربما كانا فى درجة

واحدة .....

وجَلَّ جَلال اللّـه تعالى ، وتعالى عما نقول علوا كبيراً ....

فإنّ من أهل الفتح من هو مشغول بحضرات ربه و تجَلِّيَاته وأنواره .. وانشغاله بالخلق قليل ... ومنهم من هو مشغول بَخْلقِ اللّـه تعالى وأكوانه وسريان قضائه وقدره فى العوالم المخلوقة ... من خلال تجَلِّيَاتِ اللّـه عليه .... ولاتفاضل بينهما ... فهذا فى وظيفة .. وذاك فى وظيفة ... والمزِيَّةُ لاتقتضى الأفضلية ... فعِلْمُ سيِّدِنَا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، غير علمِ العبدِ الصالحِ كما رواه القرآن الكريم فى سورة الكهف .... هذا فى شأن وتكليف .. وذاك فى شأن آخر وتكليف ....

وليس معنى كلامنا الفصل التام بين الصِنفين .. ولكن هذا يُفَسِّرُ لك ما قد يحدث على أيدى بعض الصالحين من الكرامات وخوارق العادات فى الأمور الكونية وشئون العباد .. ، وقد تجد من هم أعلى منهم درجة عند اللّـه تعالى ، وليست له مثل هذه الكرامات ...

ذلك أن الثانى مشغول بربِّه .. ذاهل عن أكوانه .. وأمّا الأول فقد أقامه اللّـه تعالى فى أكوانه ليتعامل معها ...

لذلك يقول ساداتنا رضى اللّـه عنهم " سار على الماء رجال .. ومات بالعطش من هم أفضل منهم " ... وهذه إشارة إلى بعض الأولياء الذين نقرأ عنهم أنهم قد ساروا بأقدامهم فوق الماء ، إكراما من اللّـه تعالى لهم .. بينما استشهد إمامُنا وسيدنا الحسين بن علىّ رضى اللّـه عنه ، وهو عطشان فى " كربلاء " .. وهل هناك أفضل من ابن بنت

رسول اللَّه ﷺ ، وريحانة قلبه وسيد شباب أهل الجنة !!!

وفى مثلِ هذه المقامات لا يكون الحكم بالمظاهر والظاهر ... ولهذا اختلف موسى مع العبد الصالح .....

غير أن هناك قِلَّةً من أهل الفتح الكبير ، رضى اللَّه عنهم ، قد جمع اللَّه لهم الحسنيين ...، فهم بين تجَلِّيَات اللَّه تعالى عليهم بأنواره وأسراره .... وبين انشغالهم بعوالمه وأكوانه .. لايشغلهم هذا عن ذاك ....

وهؤلاء القِلَّة من رجال اللَّه تعالى ، هم الورثة الكُمَّلُ لأنوار رسول اللَّه ﷺ .. وهم فى كلِّ عصر على قدمه ، وعلى قلبه عليه الصلاة والسلام .. لأن هذا شأنه وخصوصيته عليه الصلاة والسلام .. فهو مع اللَّه تعالى لايَفْتُرُ عنه طرفة عين .. وهو مع خلق اللَّه تعالى يواليهم بالرعاية والعناية وتنفيذ أوامر اللَّه تعالى فيهم ... وهو وليهم وكفيلُهم ..

فشأن الوارثين الكاملين لأنواره ﷺ هو من بعض شأنه .. ومن بعض أنواره وأسراره حتى قيام الساعة ...

وهذا كان شأن الخلفاء الأربعة بعد رسول اللَّه ﷺ .. ، حيث جمع اللَّه لهم الخلافة الظاهرة ، والخلافة الروحية فى الخلق .. ، فإن خليفة اللَّه تعالى فى الأرض لابد وأن يكون هو العبد الكامل العارف باللَّه تعالى والقائم على شئون خلقه معاً .. ، وهذا معنى الخلافة ببساطة شديدة ...

ورسول اللَّه ﷺ هو خليفة اللَّه فى الأرض بلا شك ... وهو الذى

قال عنه ربنا : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ... وما اكتملت مُقَوِّمات الخلافة إلا في العبد الكامل خير خلق اللّه أجمعين محمد ﷺ ... ، الروحُ الكاملة ، العارفة باللّه تعالى ، مع الذات الكاملة خَلْقًا وخُلُقاً .. ،

وخلفاؤه الأربعة رضى اللّه عنهم .. ، هم حملة لوائه ولقد قال ﷺ " **الخِلافَةُ بَعْدِى فى أُمَّتِى ثَلاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلكٌ بَعْدَ ذَلِك** " حديث صحيح ، رواه أحمد والترمذى وابن حبان .... وهذا التاريخ كان نهاية خلافة الإمام على كرَّم اللّه وجهه وتنازل أبنه الحسن عنها .... أمَّا من بعدِهم فقد انفصلت الخلافة الأرضية عن الخلافة الروحية .. فكان لكل منهما شأنه ،

فإذا قُلْتَ لِى أنَّ الخِلافَةَ كانت لآدم فى الأرض .. قُلْتُ لك وهل فى القرآن نصٌّ يدل على أن الخليفة هو سيدنا آدم !! وهل هناك ما يمنع أن يكون الخليفة المقصود هو من نسل آدم وليس آدم !!

وقد خلق اللّه آدم ، ثم أسكنه الجنة بنصِّ القرآن الكريم ... ، ثم أنزله إلى الأرض ليتناسل ويتكاثر .. ليخرج من ذريته عندما يريد اللّه تعالى الخليفةَ المقصود ... وقدم لمجيئه بالأنبياء والرسل ، على قدر عقول أقوامهم فى تلك الفترات والعصور ، وما استتمَّ الدين ولا اكتملت الرسائل السماوية .. إلا بخاتم الأنبياء والمرسلين .. الذى تظلُّ شريعته إلى يوم الدِّين ، وينكشف خلال فترة رسالته من أسرار الكون وقوانينه ما تنضج به البشريةُ كلها ، ويكون دينه ورسالته هى الأصل سابقا ، والأساس حتى يومِ الدِّين ، وإنَّ الدِّين عند اللّه الإسلام ....

وحتى عندما خاطب اللّه تعالى سيدنا داود عليه السلام وقال له ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [1] ، فاللّه سبحانه وتعالى لم يخاطب رسله بهذه الخلافة ..، وخطابه لسيدنا داود عليه السلام ، هو تكليف محدود بالحكم بين الناس بنص القرآن ، وهى ليست خلافة مطلقة كما ترى.

ورغم هذا فالخلافَة لها إطلاقٌ ... ولها تقييد ...

فآدم وذريتُهُ لهم الخلافة فى الأرض ... الخلافة على إطلاقِها .. فإن اللّه تعالى قد سخَّر له الأرض وما فيها وما عليها ... بل وجعل له الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمر اللّهِ تعالى له ... ولكن ليس كُلُّ فردٍ من أولاد آدم له القدرة على استخراج ما فى باطن الأرض .. ولا استغلالِ ما فى البر والبحرِ .. بل كُلٌّ على قدر طاقتِهِ ...

فنقولُ إذاً أنَّ اللّه تعالى قد سخَّر الأرض وما فيها وما عليها للبشرية كُلِّها .. ثم كُلُّ جيلٍ.. أو كُلُّ طورٍ من أطوار البشرية .. أو كُلُّ فردٍ فيها خليفةٌ فيما يستطيعُ الخِلافة فيه ... فَهِى تصيرُ خِلافةً مُقيَّدةً لِكُلِّ فردٍ من ولدِ آدم ... وعلى قدرِ طاقاتِهِ ...

ولكن يسوقنا الكلام هنا إلى نُقطةٍ دقيقةٍ .. تلك أنَّ هذه الخلافة هى فى الحقيقةِ وثيقة الصِلةِ بالعُبوديَّة ... وكيف كان ذلك ؟؟؟ ...

فلننظُر سويًّا ....

---

(١) سورة ص آية : ٢٦.

العبودية تقتضى الطاعة المطلقة للخالِقِ جَلَّ و علا ... فلا يُعْبَدُ سِواه .. ولا يُرْجَى غيره ... وحقيقةُ هذه العبودية هى" الحرية الكاملة " .... ذلك أنَّ العبد يتخلَّص من هوى نفسِهِ .. ورِقِّ الشيطان .. وحُبِّ الدنيا فلا تتملَّكُهُ رغبةٌ ولا هوى .. بل هو عبدٌ للَّهِ تعالى .. فهو إذاً قد تحرر من عبوديَّة نفسِهِ والهَوى والشيطان ...

وإذا صار العبد خالصا للَّه تعالى ... أفاضَ اللَّه عليه من قُوَّتِهِ وقدرته .. فيصبحُ عبدًا ربَّانيًا ... تستجابُ دعوَتُهُ ، ... ويهابُهُ الخلقُ ... ، ويُحِبُّهُ أهلُ السماءِ والأرضِ من الصالحين ... ، وينظُرُ بنور اللَّه ... ، ويتحدَّث بحكمة اللَّه ... ويقدِرُ بقُدرة اللَّه ... فعلى قدر صِدقِ عبوديَّتِهِ .. على قدر ما يكتسبُ من أنوار صِفاتِ اللَّه .... فإذا اكتملت فيه العبودية ، الكمال الذى ليس فوقه كمال .. فقد استنار بالأنوار الإلاهية الاستنارة التى ليس بعدها استنارة ... وأخذ من صِفاتِ سيدِهِ ومولاه بالحظ الأوفى .. فصار بذلك ظِلاً لسيدِهِ وربِّهِ ...

ألا ترى إلى سيدنا رسول اللَّه ﷺ كيف خاطب الشجر .. والحجر .. و الجبلِ .. والناقة .. و الضبَّ .. والذئب .. وانشقَّ لهُ القمر !!!

خلافةٌ مطلقَةٌ ... سببها عُبُوديَّةٌ مطلقةٌ ... أدّت إلى حُرِيَّةٍ مطلقةٍ .

وتنبّه إلى أن رسول اللَّه ﷺ هو إمام الأنبياء والمرسلين حتى من قبل بعثته البشرية المباركة ... يقول ﷺ " **كُنْتُ نَبِيًّا وآدمُ بَيْنَ الروحِ والجَسَدِ** " .. حديث صحيح ، رواه الطبرانى عن " إبن عباس " ..

فنبوة رسول اللَّه ﷺ هى التى أمدَّت جميع الأنبياء بنبواتهم.. وهو إمامهم وخاتمهم صلى اللَّه عليه وعليهم جميعا ... ، فهو كنز النور

الإلاهى ومنبع الأسرار اللاهوتية ...،

فقبل بعثته المباركة أمدَّ جميع الأنبياء بأنوارٍ من أنواره ، وأمّا بعد بعثته فإنه يُمِدُّ جميع الأولياء اللاحقين ، بأنوارٍ من أنوار روحه ﷺ ...، فلا نبوة بعده ، فدائرة النبوة قد ختمت ببعثته ﷺ ...، ودائرة الولاية التى هو أيضاً مركزها وأصلها ، لاتختم إلا فى نهاية الدنيا .. بأنواره ﷺ .... وهل يكون الولى وليا إلا بحسن اتباعه لرسول اللّه ﷺ شريعةً وطريقةً وحقيقةً !!

فالولاية هى امتداد لنور رسول اللّه ﷺ .. فلا عجب أن يكون للكاملين من ورثة أنواره ، بعض صورٍ من صورةِ خلافته عليه الصلاة والسلام....

ونعود مرة أخرى لنتحدث عن بعض خصائص أهل الفتح ... ونذكر بعض حديث رسول اللّه ﷺ حيث يقول " **إذا ضَلَّ أحَدُكُم أو أراد عَوْناً وهُو بأرْضٍ ليسَ بِهَا إنْسِيٌّ فليقُلْ : يا عِبَادَ اللّه أغِيثُونِى (ثلاثا) فَإِنَّ للّه عِبَاداً لا يَرَاهُمْ** " رواه الطبرانى ، ويقول ﷺ " **رُبَّ أشعثَ مَدْفُوعاً بِالأبْوابِ لَو أقْسَمَ عَلى اللّه لأبرّهُ** " رواه مسلم والامام أحمد عن " أبى هريرة " ، وهو صحيح .

ويقول ﷺ " **الأبْدَالُ فِى أمّتِى ثلاثُونَ ، بِهِمْ تَقُومُ الأرْضُ ، وَبِهِمْ تُمْطَرونَ ، وَبِهِم تُنْصَرُونَ** " رواه الطبرانى فى الكبير عن " عُبادة بن الصامت " ، وهو صحيح ، وذكر مثله الإمام أحمد فى مسنده ، وهو حسن رواه " الإمام علىّ " ، وكذلك ذكر مثله الطبرانى عن " عوف بن

مالك " ، وهو حسن ...

ومـــن أوْلى مـــن أهـــل اللّـــه تعـــالى .. وأهـــل الفـــتح فـــى استجابة دعوتهم ......

ولاحظ هنا دقيقة خفية ...

فاللّـــه تعـــالى مُوجِـــب الموجبـــات .. وهـــو ســـبحانه لايَجِـــبُ عليـه شـيئ إلا مـا أوجبـه سـبحانه علـى نفـسه ، فـضلاً منـه وكرمـاً .. ، فكيــف يَبَــرُ اللّـــه قـــسم عبـــده إذا دعـــاه !! والرســـول ﷺ يقـــول " رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُف " ...

يتبــادر إلى الــذهن مفهـــوم واحـــد .. هـــو أن هـــذا العبـــد لايـدعو إلا بمـا سَـبَقَ فـى عِلْـم اللّـه تعـالى .. أى أن اللّـه تعـالى يلهمه الدعاء المستجاب ...

ومعنى هذا إن الإلهام والخواطر الرحمانية ، لا تنقطع عن هذا العبد ... انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (1).

ويقول فى آية الكرسى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ، ويقول عن العبد الصالح فى سورة الكهف : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

فعِلْمُ اللّـهِ تَعَالى .. والعِلْمُ باللّـهِ جَلَّ شأنـه ... والعِلْمُ عن اللّـهِ

(1) سورة الإنسان آية : ٣٠ .

سبحانه .. يؤتيه اللّـه لمن يشاء من عباده .. كيفما يشاء وأنّى يشاء .. ولايسأل عما يفعل .. ولا معقّبَ لحكم اللّـه!!! ..

والعبد الذى يفتح اللّـه تعالى عليه ، لايستطيع أن يتعايش مع عوالم ملكوت اللّـه تعالى ، إلا إذا أمدّه اللّـه تعالى بأنواره وأسراره على قدره وقدر طاقته ، وكذلك من أمده اللّـه تعالى بأنواره وأسراره فإنه يستطيع أن يتعايش مع بعض هذه العوالم الغيبية .... فالأمر فيه اختيارُ من اللّـه تعالى ... وإكرام لعباده بجوده .. ومنّه .. وكرمه ... وهل على فضل اللّـه حرج !!!.

فلا تحجّر عقلك وتفكيرك ، وتردّ على ببعض ما تعرفه من عموميات ، ونحن نتحدث عن أعلى درجات أهل الخصوص ... واللّـه سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم كثيراً ما يستثنى من أحكامه العامة أهل العلم .. وأهل الاجتباء ومن أراد اللّـه تعالى ...

يقول تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

ويقول : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

ويقول : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن

---

(١) سورة الزخرف آية : ٦٧. (٢) سورة الجن آية : ٢٦-٢٧.

فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (1) .

وأهل الخصوص .. وأهل الاستثناء موجودون فى كل عصر وقد كانوا فى حضرة رسوله ﷺ ... ونذكر لك بعضها على وجه السرعة والإجمـــال ، واذا اردت التفـــصيل فـــارجع إلى كتـــب الــــسيرة والسنة النبوية ...

• قَبِل رسول اللّـه ﷺ كلَّ مال أبى بكر الصديق .. ونصفَ مالِ عمر بن الخطاب ، ولم يقبل من الصحابة تَطَوُّعًا إلا فى حدود ثُلُثِ أموالهم .... وبهذا أَمَر وشرَّع ﷺ .

• بشَّر الرسول ﷺ عشرة من أصحابه بالجنة فى مجلس واحد ... كما بشَّر غيرهم فى حالات أخرى .... فهل المبشَّرون من رسول اللّـه بالجنة هم فقط أهل الجنة من بين صحابة رسول اللّـه ﷺ !! ، أم أن هذه البشريات كانت لخصوصيات يعرفها الرسول صلوات اللّـه وسلامه عليه حيث لم يخش عليهم من أن يفتتنوا بأنفسهم ، وهو الذى نهانا عن المدح والإطراء فى وجه من نمدح !!. واللّـه أعلم بمراده ومراد رسوله ..

• جعل رسول اللّـه ﷺ شهادة سيدنا " خزيمة " تعْدِلُ شهادة رجُلين ... وعلى هذا سار أبو بكر وعمر فى إثبات وتحقيق آخر سورة التوبة عند جمع القرآن ...

• ويقول ﷺ " إنَّ اللّـه تَعَالى اطَّلَعَ عَلَى أهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ :

(1) سورة الزمر آية : 68 .

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرتُ لَكُم " حديث صحيح ، عن " أبى هريرة " كما رواه الحاكم فى مستدركه...

وقال ﷺ " **أوَّلُ مَنْ أشْفَعُ لَهُ مِنْ أمَّتِى أهلُ المدينةِ ، وأهْلُ مَكَّةَ ، وأهلُ الطَّائِفِ** " رواه الطبرانى فى الكبير عن " عبد اللّه بن جعفر " ، وهو صحيح ...

وغير هذا كثير لا مجال لبسطه الآن ... ولكن يجب أن نعرف أنّنا عندما نتحدث عن هذه الخصوصية ، وهذا الاستثناء ، فنحن لانعنى خصوصيةً أو استثناءً من أوامر اللّه تعالى لعبيده فى شريعته ، فلا يطالبهم بما يطالب به غيرهم من العموم ... فهذا ما مرَّ حتَّى بخاطرنا....

بل نقصد أنهم أهل الخصوص فى الأدب العالى مع اللّه تعالى ومع رسوله ﷺ ، وكذلك الإيمان الكامل واليقين الثابت باللّه ورسوله .. أى نحن نتحدث عن صفوة القوم ، وعِلية الملأ من أتباع رسول اللّه ﷺ .... فتنبّه رحمك اللّه وإيّانا ....

وقد وصلنا فى حديثنا إلى أن أهل اللّه تعالى وخاصَّتَهُ لديهم القدرة على التعامل مع بعض عوالم الملكوت ، وأن اللّه تعالى قد أهَّلَهم لهذا الفضل ... ولاشك ان أول هذه القدرات تكون هى رؤية هذه العوالم أو بعضها وإدراك ما فيها ...

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ

لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ﴾[2] ، فالمخلوق بدايةً كان فى ظُلمة .. وأيًا كانت هذه الظلمة مادية أو معنوية -كما اختلف فيها المفسرون- فإن اللّه تعالى ينبِّه إلى أنه جَلَّ شأنه ، قد أخرج عباده من هذه الظلمة ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ... وبهذه النعم الثلاث يتدرَّجُ الإنسان من ظلمة الجهل إلى أنوار المعرفة .. سواءً المادية أو المعنوية .... فإنَّهُ بأدوات الإحساس الظاهرى من سمع وبصر ومنطق وتعقل .. يصبح الانسان مدركاً عاقلاً فى الدنيا ..

إذا فهى فى الحقيقة أنواع من الأنوار الإلاهية التى يدرك الانسان بها وجوده فى الدنيا ...

ومن يُرِد اللّه أن يهديه للإيمان والإسلام يزيد من أنواره عليه .. لينير قلبه وعقله بنور المعرفة والإدراك الباطنى ... لذلك يقول تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[3].

فالكافر وإن كان له سمع وبصر وإدراك ، وهى أنوار من اللّه بلا

---

(١) سورة النحل آية : ٧٨.
(٢) سورة الزمر آية : ٦.
(٣) سورة الأنعام آية : ١٢٢.

شك ولكنها محدودة بالنفع والإدراك فى الحياة الدنيا ، لذلك يقول تعـــالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (1) ، وهو تعالى الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ... فاللّه تعالى قد هيأ لجميع مخلوقاته أسباب معرفتهم وإدراكهم ليعيشوا فى الحياة الدنيا ...

ولكن الذين كفروا وقفوا عند هذا الحد من استقبال النور الإلاهى .. أما المؤمنون فقد استزادوا من نور المعرفة باللّه تعالى ... فزادهم اللّه نوراً لمعرفته هو جَلّ شأنه .. فأخرجهم اللّه تعالى من ظلمة الجهل به إلى نور المعرفة الإيمانية ...

وتتكرر نفس القوانين الإلاهية مع المؤمنين وأهل الاجتباء ... فاللّه سبحانه يخرِجُهُم من بطن الدنيا ، ومن بطن عوالمهم الماديَّة الأرضية ليولدوا فى عوالم الملكوت .. فيجعل لهم السمع والأبصار والافئدة التى تناسب قوى العوالم الجديدة .. فيرى .. ويسمع .. ويدرك .. فيعرف ويتعلم ويتعامل مع هذه العوالم ...

انظر إلى الحديث القدسى الذى ذكره البخارى عن أبى هريرة وهو حديث صحيح يقول ربُّ العِزَّةِ " مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إلىَّ عَبْدى بشيئٍ أحبَّ إلىَّ مِمَّا افترضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إلىَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ

(1) سورة الروم آية : ٧ .

الذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الذى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التِّى يَبْطِشُ بِهَا ، ورجَلَه التى يَمْشِى بِهَا ، وإنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ وإنْ استَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عنْ شَئٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ قَبْضِ نَفْسِ المُؤْمِنْ ، يَكْرَهُ المَوْتَ وأنَا أكْرَهُ مُسَاءَتَهُ " .

وصدق رسول اللّه ﷺ .. وصدق اللّه العظيم فى كل ما يقول ويَعِد .. ومن أصدق من اللّه تعالى قيلاً ....

فمن أحبّه اللّه تعالى من عباده .. أكرمهم من فضله ... وأمدّهُم بسرِّه وقدرته ، وجعل سبحانه هذه القدرات وهذه الأسرار .. فى أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ... ، وزادهم رضاً ومودةً ودلالاً بأن لهم ما يشاءون عند ربهم جَلَّ وعلا ....

وما ظنُّك بمن أمَدَّ اللّه قُواه وعقله وإدراكه بقوّته جَلَّ شأنه وأنوار معرفته!!

وقد سبق أنْ قلنا أنَّ أوّلَ ما يُحَرِّك الإنسانَ فى الدنيا هو الخواطر .. وهذه الخواطر ترفعه إلى النيَّةِ ثم العزم على الحركة .... فلا فعل.. ولاحركة .. ولاتصرُّف من ابن آدم إلا وبدايته هذه الخواطر .....

وسبق أن قلنا أن هذه الخواطر منها الرحمانية ، ومنها الشيطانية .

وقلنا فى كتابنا " قواعد الايمان " أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا

سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (1) أفهم منها أن اللّه تعالى ألهمها التّفرقةَ بين الإلهام بالخير ، والإيعاز والوسوسة بالشرّ من الشيطان ...

ومن قول رسول اللّه ﷺ " **أنّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَينِ مِنْ أَصَابِعِ اللّه يُقَلِّبُهَا** " حديث صحيح ، رواه الترمذى وأحمد عن " أنس " رضى اللّه عنه .

فإنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهننا أنّ عباد اللّه المخلَصين إليه .. المحبوبون عنده .. لابد وأن يتولى اللّه تعالى تطهير قلوبهم وتقويتها وأن ينيرها بالخواطر الرحمانية النورانية المتتابعة ، وأن يدافع عنها ويحفظها .. ويزيدها قوة على طرد كل خاطر غير نورانى ،

يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ (2)

وقد قلنا من قبل إن الروح عرشُها القلب .. وأن القلب له وجه إلى النّفْسِ ووجه إلى الروح ... ، وحيث أن اللّه تعالى ينير القلب بالخواطر النورانية الرحمانية ، وبذلك تتأثر قوى النفس الباطنية – والادراك واحدٌ منها– وكذلك تضفى الروح من نورها على النفس لازدياد قابلية الأخيرة لأنوار الروح ..

بذلك كله – وأكثر منه – ينير القلب .. وتنير النفس ...

---

(1) سورة الشمس آية : ٧،٨ .　　(2) سورة محمد آية : ١٧.

وتـنير حواسـها المدركـة مـن بـاطن .. فـيرى العبـدُ بنـور اللّـه .. ويـسمعُ بنـور اللّـه .. إلى أن يُمِـدَّه اللّـه تعـالى بقـوةٍ منـه .. فـي يـده .. وفـي رجَلِـه ... أي أنـه حتـى جـسده المـادى ، يخـضع أيضاً لقوى الروح .. وقوى النفس الظاهرة...

فـأول مـا يـتغير فـي العبـد فـي هـذه المرحلـة .. هـو نورانيـة الخـواطر التـي تأتيـه ، حتـى يـصبح ذا فراسـةٍ فينظـر بنـورِ اللّـه تعـالى كما في الحديث الشريف ...

ونحـن إذا قلنا " الخـواطر " .. فأنـت لاتعرف كيف تتلقى هـذا الخـاطر .. ولاتعلـم عـن قُـوى نفـسك الباطنيـة شيئا .. ولاتـدرى هـل مـا يستقبل الخاطر منك هو الـوهم أو الخيـال أو التفكـر او التـذكر أو الحِسُّ المشترك .. وكل هذه من قوى النفس ....

كل ما تشعر به على الحقيقة .. أنَّ هذا الخاطر .. يزداد عندك قوة حتـى يـصل إلى مرتبـة " الجَـزْم " ، فتتعامـل معـه علـى أنـه حقيقـة لا شـك فيها ، أو هـو علـى الوجه المقابل ، يضعف ويزداد ضعفا .. حتى يتلاشى وتنساه .... وأنـت لاتـدرى أنـك فـي الحـالتين تتعامـل مـع عـالم الجبروت أو عالم يمحو اللّه ما يشاء ويثبت جَلَّ شأنه ...

فإذا ازداد هذا الخاطر عندك قوةً ويقيناً ... فالحقيقة أنك قد دخلت في مرتبة اخرى .. فما عاد الأمر عندك ظناً ... بل قد صار إلهاماً .. ثم يقينا ، ثم تتنزل عليك السكينة في القلب ...، ليكون الأمر عندك راسخاً رسوخَ الجبل ... يقول تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ

وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (1).

ويقـــــول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (2).

وتأمل هاتين الآيتين .... فيظهر لك جَليًّا أن اللّـه تعالى قد طَمْأن وَثَبَّتَ وفَرَّحَ قلبَ رسوله ﷺ وقلوبَ المؤمنين معه بهذه السكينة،.. وزاد إيمانهم بتنزيلها عليهم ... ثم ثَنَّى جَلَّ شأنه بالتأييد بجنود له غير مرئية ، وفى الآية الثانية عَطَفَ بأن له تعالى جنود السموات والأرض...

فالسكينة هى من جنود اللّـه تعالى .. وهى ضِدُّ " الرعْب " ، الذى هو أيضاً من جنود اللّـه تعالى كما سبق القول ... والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ...

وجنودُ اللّـه تعالى هى من صفاته وتجَلِّيَّاته سبحانه وتعالى ...

والسكينة مشتقة فى اللغة من سكن .. يسكن .. سكونا .. وسكناً ... فهى الطمأنينة .. والأمن .. والاستقرار .. والراحة .

وحذار ثم حذار ، أن تفهم من كلامنا هذا أن كل أمر يستقر فى القلب ولايتزعزع ، أن معه السكينة ... فإننا نتكلم عن قلوب صَفَتْ إلى اللّـه تعالى واستنارت بأنواره .. وكذلك عن نَفْسٍ مطمئنة ، قد قطعت شوطاً طويلاً فى تأدُّبها بأدب القرآن ، وسنة رسول اللّـه ﷺ فساعفتها الروح بأنوارها ..

---

(1) سورة التوبة آية : ٤٠.

(2) سورة الفتح آية : ٤.

أما من هو ليس فى هذه الدرجة ، فإن قلبه ونفسه يستكنّان إلى هواه .. وشهواته ... فتنبه رحمك اللَّه وإيانا ....

وننبه أيضاً إلى أنَّ المقصود بجنود اللَّه تعالى .. القُوَى التى ليس لأحد عليها سيطرة ولاتوجيه .. بل المتصرِّفُ فيها هو اللَّه تعالى ...

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [1] ... فاللَّه تعالى قد كتب فى قلوبهم الايمان .. ثم أيدهم بروح من اللَّه تعالى ...

فالأمر الذى نناقشه لانقصد به أمراً عقلانيا ، يَستقرُّ رأيك وعقلك على قرار فيه .. ولكننا نتحدث عن إلقاء اللَّه تعالى على قلوب عبيده من السكينة أو الروح ، فيتأيد الأمر فى القلب ويثق ويؤمن ويستكن ويسكن ويطمئن بما وصل إليه من إكرام اللَّه تعالى له وليس بتفكيره ومنطقه .....

فنحن نتحدث عن سكينة وطمأنينة تحدث فى القلب دون سببٍ تعرفه .. لأنك لو وصلت إلى هذه السكينة بالأسباب والعقل ... فحينئذ تكون نتيجة طبيعية لمنطقك ودراستك ، فهى حينئذٍ مكتسبة بالأسباب .. لك ولغيرك .... وهذه فى الحقيقة ليست السكينة التى نتحدث عنها ... إنما هى اطمئنان منك لعقلك وتفكيرك .... فلاحظ الفارق بين الحالتين ...

---

(١) سورة المجادلة آية: ٢٢.

وحتى لاتتعجب أو تستنكر قولنا هذا .. والشئ بالشئ يذكر .. نلفت الأنظار إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] ،

ومعنى " من حيث لا يحتسب " أى أنه لم يتدبَّر له ، ولم يكن فى حسبانه وحساباته ... ففارق كبير بين المتسبِّب وغير المتسبِّب .. وبين ما جاء بالأسباب .. وما جاء بغير أسباب ....

ويكفينا هذا القدر فى حديثنا عن الخواطر .. لنأتى بعد ذلك إلى الرؤية .. وهى المرتبة التى تلى الخواطر فى النورانية ...

الرؤيــة

وقد سبق القول بأن الرؤى على إطلاقها هى رسالة من عالم الملكوت إلى العبد .. ،

يقول ﷺ **"ذَهَبَتْ النُّبُوَّةُ فَلا نُبُوَّة بعدى ، إلاّ المُبَشِّراتُ ، الرؤْيا الصَّالِحَةُ يَراهَا الرَّجُل أوْ تُرَى لَه "** وهو صحيحٌ ، رواه الطبرانى عن " حذيفة بن أُسيْد " ،

وقال ﷺ **"ذَهَبَتْ النُّبُوَّةُ وبقيتَ المُبَشِّرات "** وهو صحيح ، رواه ابن ماجة .

---

(١) سورة الطلاق آية: ٢، ٣.

ويقول ﷺ " **الرُّؤْيَـةُ الصَّالِحَةُ جزءُ مِن سِتَّةٍ وأرْبَعِـينَ جُـزْءاً مِـنْ النُّبُوَّةِ** " حديث صحيح ، رواه البخارى ومسلم وغيرهم عن " ابن عمر " وعن " أبى هريرة " .

ويقول ﷺ " **رُؤْيَا المُؤْمِنِ كَلامٌ يُكَلِّمُ بِهِ العَبْدَ رَبُّه فِى المَنَامِ** " حديث صحيح ، للطبرانى.

أمَّا أن الرؤية جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة ، فذلك لأن رسول اللّه ﷺ ظل ستة أشهر قبل البعثة يرى الرؤيا فتأتى مثل فلق الصبح .. فإذا علمت أن زمن رسالة الرسول ﷺ هى ثلاثة وعشرون سنة ، علمت أن الستة أشهر هى جزء من ستة واربعين جزءاً من زمن رسالته عليه الصلاة والسلام ..

وَيُقَسِّمُ رسول اللّه ﷺ الرؤية إلى ثلاثة أنواع حيث يقول فى حديث صحيح رواه الترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة " **الرُّؤْيَا ثَلاثَةٌ : فَبُشْرَى مِنَ اللّه ، وحَدِيثُ نَفْسٍ ، وَتَخْوِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ** " .

وقد بسطنا الكلام عن الرؤية فى كتابنا " قواعد الإيمان " ونكتفى هنا ببعض الملحوظات ...

• أننا نتحدث الآن عن الرؤى التى هى من اللّه تعالى لعبده .....

• أن عالم الرؤيا يسمى بعالم المثال ، وأنها قد تحتاج إلى تأويل بعض رموزها ، وقد لاتحتاج ....

• أن ما يلتقطها من الإنسان هو " الحِسُّ المُشْتَرَكْ " ، حيث أنه الرباط بين النوم واليقظة ، لذلك فأنت تتذكر فى يقظتك ما قد رأيته ، رغم أنك كنت فاقد الوعى الظاهر خلال النوم ... كما أن جميع شهواتك ورغباتك لاتظهر ولاتبدو خلال النوم ، لذلك تنشط النفس الباطنية ، وتتلقى بعض قواها من عالم المثال.

والسؤال الآن ماذا يحدث لو أنك وأنت يقظان نامت شهواتك الأرضية .. ، وقويت طاقاتك النفسية الباطنية !! ، ألا يمكن أن تتلقى النفس حينئذ رسائل من العوالم الغيبية ؟؟

والجواب : بلى .. فالحجاب الذى بينك وبين العوالم ، وهى نفسك الأرضية بما فيها من شهوات قد زال بالنوم .. ، وكذلك يُزال إذا استغرقَتْ نفسك فى طاقات الروح وأنوارها ... حينئذ قد ترى وأنت يقظان ما يمكن أن تراه وأنت نائم ..

ومرة أخرى نقول ان الأمر ليس بهذه البساطة ...

ولكننا فى النهاية نصل إلى أن هذه الرؤى تكون على مراحل ثلاثة ..

الأولى : وأنت نائم.

الثانية : تكون فيما يشبه حالة النعاس ، ولكنها بين النوم واليقظة الكاملة ، ويقولون عنها حالة الذهول .. وشرطها أن تدرك المكان والزمان الذى أنت فيهما مع رؤياك .

الثالثة : وأنت فى تمام يقظتك.

انظر إلى واقعة"سيدنا عمر بن الخطاب " ، عندما كان يخطب الجمعة فى المدينة ، ورأى" سيدنا سارية " وهو فى الحرب فى ارض خلف العراق ..، وناداه سيدُنا عمر .. " الجبل يا سارية الجبل " .. ، وسمعه "سيدنا سارية " ، والتف حول الجبل .. وانتصر بعسكره ...

ومن المعروف أن سيدنا أبا بكرٍ الصديق رضى اللَّه عنه ، قد أخبر السيدة عائشة رضى اللَّه عنها " بأن زوجته أسماء بنت خارجة حامل فى بنت ، حيث قال للسيدة عائشة إِنَّما هُما أخواكِ وأختاكِ " .. ولم تكن زوجته قد وضعت بعد..

فلما تعجبت السيدة عائشة رضى اللَّه عنها " وقالت إِنَّما هما أخواى وأختى " ، فقال لها رضى اللَّه عنه : " لقد أُلقىَ فى روعى أنَّ ما فى بطن بنت خارجة هى بنتُ وهِى أختك " .

ارجع إلى كتب السيرة وسير الصحابة لتقرأ الكثير من هذه الوقائع فى زمن الصحابة ...

● فإذا تحدثنا عن حالة الذهول هذه .. قلنا إنها حالة متوسطة بين اليقظة والإغفاء .. ، أو هى حالة متوسطة لك بين عالم الملك وعالم الملكوت .... فأنت تدرك فيها ما أنت فيه من عالم الملك .. ويحكمك الزمان والمكان والحواس الخمس لك .. ، وفى نفس الوقت ترى صوراً اخرى من عالم الملكوت ، وتسمع قولها وتدرك إشارتها وتفهم مقصودها ..، ولكن لايسمع ولايرى ذلك غيرك فى نفس المجلِس ...، لذلك نقول انك ما رأيت بعينك العادية ولاسمعت بسمعك العادى ..

وإلا لرأى وسمع غيرك من الحاضرين ..، أو نقول أن طاقات سمعك وبصرك فى هذه الحالة ، قد ازدادت وقويت وخرجت بقوتها عن الطاقة المعتادة ...

وفى بعض الأحوال تكون هذه الرؤيا وأنت مغمض العينين ... فاذا فتحتهما تزول الرؤيا .. وفى أحيان أخرى تظل الرؤيا سواء كنت مغمِضاً عينيك أم لا ...

وما يحدث لك رؤيا .. يحدث لك سَمْعًا ... فقد تفاجأ بأصوات وكلام يصلك دون رؤية .. ولا أحد غيرك يسمع ما تسمعه ...

وكثيراً ما ترى أحداثًا تقع أمامك .. ويكون قد مضى عليها وقت طويل .. أى حدثت من قبل .. وكذلك أحداثًا تتحقق بعد فترة من الزمن ...

أو تجد نفسك فى مكان آخر مع اقوام آخرين .. أو خَلْقٍ آخرين من المخلوقات .. كل هذا وأنت تعلم تماما ، أنَّك لم تزل فى مكانك لم تبرحه ...

أى أنك قد اخترقت حاجز الزمان أو حاجز المكان ..، فلم يعد عندك الماضى والمستقبل ... أو حاجز المكان بمعنى أن عنصر المسافة لم يَعُدْ فعَّالا معك ..، والزمان والمكان حجابان للنفس كما تعلم عن عالم الغيب.

وَلَفْتَةٌ دقيقةٌ نشير إليها هنا ...

فإن كثيرا من مشاهد يوم القيامة ، يعبر عنها فى القرآن الكريم بصيغة الماضى تارة ، وبصيغة المستقبل تارة ...، فيقول تعالى فى سورة

الزمر ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]

ويقول ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾[2].

ويقول : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾

(١) سورة الزمر آية: ٦٨- آخر السورة. (٢) سورة الإسراء آية: ٧١.

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ ﴾ [1]

ويتكرر كثيراً فى آيات القرآن الكريم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾ [2] ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ ﴾ [3] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [4] ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [5] .

وأياً كان ما يقوله المفسرون ، فما هو أقرب إلى المنطق أنَّ اللّـه تعالى ، وهو الأبدى الأزلى المنزَّهُ جَلَّ شأنه عن المكان والزمان ، بل هو خالق المكان والزمان ، لذلك فليس بالنسبة إلى اللّـه تعالى ماضٍ ولاحاضر ولامستقبل .. فهو هو اللّـه كان .. ولم يزل على ماكان عليه ..

فإن قلت "هو القوى العزيز" فهىَ " إن اللّـه قوى عزيز " .. وهى " وكان اللّـه قوياً عزيزاً " .. واللّـه أعلم ....

ويقولون أن رؤيا المنام لها درجات ثلاث .. إذا كان القلب يسبح تحت عرش الرحمن خلال النوم ، فان الرؤية تاتى كفلق الصبح .

وإذا كان القلب يسبح فى عوالم الملكوت ، فرؤيته حقٌ .. ولكنها برموز ، وتأويل ، تأتى إليها من هذه العوالم ..

واذا كان القلب يسبح فى عالم الدنيا وما فيها فإن رؤيته تكون أضغاث أحلام.

---

(١) سورة الواقعة آية : ١-٧.
(٢) سورة النساء آية : ١٧.
(٣) سورة الأحزاب آية : ٢٥.
(٤) سورة الحديد آية : ٢٥.
(٥) سورة الصف آية : ١ .

فإن سألت ، ولماذا كانت رؤيا ملك مصر وصاحبى سيدنا يوسف رؤى حق ، ولم يكونوا مؤمنين ؟؟

قلت لك ، ذلك لأن كل هذه الرؤى كان لسيدنا يوسف عليه السلام حقٌّ فيها ...

وجعل اللّه تعالى تأويل سيدنا يوسف لها سبباً فى خروجه من السجن وقربه من الملك ... فهى فى الحقيقة إكرام من اللّه تعالى لنبيه يوسف عليه السلام .

ولربط هذه النقاط بعضها بالبعض نقول أن رؤياك تأتى على حسب خواطرك التى تسبح فيها نفسك ... والخواطر تأتيك ليلاً ونهاراً .. نائماً ويقظاناً ... غير أنك وأنت يقظان ، يكون الحكم فيها للنفس بصفاتها ... بينما وانت نائم ، يكون الحكم فيها للقلب ببعض نورانيةالروح ، التى تضفيها على النفس .. وكثيراً ما يكون القلب على نور من رَبِّه ولكن النفس تُدَنِّسُهُ بشهواتها خلال اليقظة .. فاذا تعطلت شهوات النفس بالنوم وانكشفت حُجُبُهَا .. انطلق القلب بنورانيته إلى الملأ الأعلى فتلقَّىمنه ....

وعلى العموم فالحديث فى الرؤى وعوالمها وأسرارها من خصوصيات أهل العلم بها ، وتفسيرها يحتاج إلى علم كامل بأحوال الرائى ورموز الرؤيا ...

• وحديثنا الآن عن الرؤى بين النوم واليقظة ... فنزيد فيها أنها ليست من عالم المثال كما فى النوم ولذلك .. الرمزُ فيها قليل ..

وما يحدث فيها هو أنك تخترق بطاقات نفسك بعض عوالم الغيب وتتعايش معها بروحانيتك التى طَغَتْ على نفسك وأمدَّتها بالقدرات المطلوبة ، وكثيراً ما ترى وأنت فى هذه الحالة صورا لاتفهمها.. أو تسمع كلاما لاتدرك معناه ، ولكن الغريب ان هذه الصور وهذا الكلام يترك فى نفسك انطباعات قوية وتغييرات كبيرة تدركها فيما بعد .. وحتى جسدك الماديُّ يتأثر كثيراً بهذه الرؤى ، ويعانى منها الإرهاق والتعب ، خاصة فى بداية حدوث هذا الأمر .

والرائى فى تلك المرحلة من روحانيته لابد وان يكون على حذر شديد وتيقظ كامل ، حتى لاتختلط الامور عليه .. لأن هذه المرحلة عادة ما تكون مرحلة فتن واختبار لقوة إيمان الرائى وصدقه وإخلاصه للّه تعالى .. ، ولذلك لابد وأن يكون له مرشدٌ ودليل يلجأ إليه ويستعين بروحانيته فى تخطى العقبات ، حتى لايكون للنفس ولا للشيطان عليه مدخلا .. لذلك يقول تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [1] ، أى عارفٌ باللّه تعالى ، سبقك إلى هذا الأمر وعرف دواهيه وأخطاره ... وسبب الفتن فى هذه المرحلة ، هو أن انكشاف بعض عوالم الغيب لك وانبهارك بها واطلاعك على بعض الأسرار الكونية قد تفرح بها نفسك ، وقد تغتُر بما وصلت إليه وتمييزها عن الغير ...، فتنشغل النفس بهذه العوالم وتطلب الاستزادة منها ، وحينئذ لا تكون قاصداً وجه اللّه تعالى .. بل تبحث عن هوى نفسك وتَمَيُّزك عن الناس.

---

(١) سورة الفرقان آية: ٥٩.

وذلك لأن النفوس قسمان .. نَفْسٌ " سفَّافة " .. فكل ما يعجبها تأخذ منه على هواها ، ونفس " شفَّافة " تخترق كل هذه الحجب ، دون أن تتأثر بها لأن هذا ليس بغرضها ، إنما هى تريد وجه اللّـه تعالى لاغير .. فمهما انكشف لها من العوالم فهى مشغولة عنها بربِّها ..

كما أن الشيطان كثيراً ما يكون له مدخل فى هذه الرؤى فيداخلك فى عوالم الخيال والوهم .. ويريك ما ليس بحقيقة ، بل أضغَاثُ أحلام .. وهذا أمر بالغ الخطورة ..

والقياس هنا لابد وأن يكون بميزان الشرع الحنيف ، وعدم الالتفات أصلاً إلى ما يراه ... اللّـهم إلا إذا كانت من المبشرات التى يوثق بها ولا شك فيها قطعيًا ....

والميزان لذلك أن تكون ذاتك مستغرقة فى ذكر اللّـه تعالى والانتهال من أنواره ، قاصداً بذلك تعظيم اللّـه وتقديره وشكره فقط لا غير ., غير ناظرٍ إلى كشفٍ أو فتحٍ أو تسخير خادمٍ أو التعامل مع هذه العوالم بالكلية ... ذكر اللّـه للّـهِ فقط قاصداً وجهه الكريم ، مستجيراً به تعالى من كل ما سواه ..حتى ولو كانت ممالك السموات والأرض ....

واللّـه سبحانه وتعالى خيرٌ حافظاً .. ولا يخيب رجاء من قصده مخلصاً .. وهو أولاً وأخيراً المعين على السير والسلوك وهو الحافظ والحفيظ .. وقد قال تعالى لإبليس عليه اللعنة ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [1].

---

(١) سورة الإسراء آية : ٦٥.

وبداية هذه المرحلة من انكشاف عوالم الملكوت الأدنى .. قد يشترك فيها غير المؤمنين ، أمثال أصحاب اليوجا والرياضات الروحية الأخرى ، الذين هدفهم تربية النفس والسمو بها على العوالم الأرضية،... فهم يتغلبون على رغباتهم وشهواتهم بالتدريب .. فتقوى طاقات النفس الكامنه وتشف وترقُ حتىتبدأ فى التعامل مع هذه العوالم الدنيا فى عوالم الملكوت ، ولا يلزمهم فى هذه الحالة إيمان باللّه ولا إسلام للّه، ولكنها عملية رياضية تدريبية لقواهم الداخلية فى النفس لا غير .

ولكن الفارق بينهم وبين ما نتحدث عنه كبير .. فهولاء يلعب بهم الشيطان ، وتغلبهم الأنفس أيضاً ولكن أنفسهم بدلاً من أن تنجذب إلى الشهوات الأرضية فهى تنجذب إلى الشهوات الملكوتية ..، وهمهم كله أن يتعاملوا مع عوالم الملكوت فيما يسمونه " التسامى " أو " التعالى " .

أمّا القاصدون وجه اللّه تعالى .. فأولَئِك هَمُّهُم ووجههم إلى اللّه تعالى ، يحبونه ويذكرونه ويقدّسونه ولا يريدون إلا وجهه الكريم ... فإن جاءتهم هذه الكشوف والقوى ، فهى من باب المُبَشِّرات لا غير .. وليست هى همهم ومالها عندهم من تقدير.... لذلك فلا يلتفتون إليها ، واللّه تعالى يحفظ عبده اللاجئ إليه القاصد وجهه ..

فإذا أكرمه بكشف بعض هذه العوالم له .. فإنه يرسل من بين يديه حفظة له يمنعون عنه عبث الشيطان وهوى النفس...، فتأتى المؤمن هذه المبشرات ، من هذه العوالم ، محفوفة بحفظ اللّه تعالى وجنوده...

ورغم هذا فكما قلت سابقاً .. إن العبد فى تلك المرحلة إذا مالت نفسه وهواه إلى هذه العوالم وركن إليها وفرح بها .. فاللَّهُ سبحانه يكله إلى نفسه وهواه وفتنته ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ....

ومن هنا ، ترى كثيراً من الناس الذين يجتمع الخلق حولهم لِمَا يرونه منهم من بعض الكشف أو الكرامات كما يقولون .. بينما هو واقف مع نفسه وهواه .. فرحٌ بتقدير الناس له .. وتتشابك الأمور فى عقله وإدراكه ، فلا يُحْسِنُ أن يزن بشرع اللّه تعالى ظاهراً باطناً ...

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[1].

نعود فنكمل حديثنا ... فنقول أن من المعتاد أنَّ بداية ما ينكشف للعبد من عوالم الملكوت الأدنى هذا ، هو عالم " البرزخ " الذى سبق الكلام عنه .. لذلك تكثر لديه رؤى الأموات والحديث معهم والأخذ منهم ، كما تغلب عليه نورانية صفراء ...

والإحاطة بأقسام العباد فى هذه المرحلة غير ممكن .... إلا أننا نتكلم فى الإطار العام لهذا الأمر ، ولكن للّه تعالى فى خلقه شئون .. ولكل عبد ما يناسبه عند اللّه تعالى ، الذى كل شئ عنده بمقدار وهو الفعال لما يريد .

ومن الأمور العامَّةِ .. فى هذا المجال أن تنكشف للعبد

---

(١) سورة المائدة آية : ٤١.

بعض الأمور المعنوية المركّبة على القوالب المحسوسة ... بمعنى أن نور باطنه .. قد يرى التشبيهات والمعاني الروحية والنفسية الغالبة على الخلق....

وانظر إلى واقعة سيدنا ومولانا " عثمان بن عفان " رضى اللّه عنه حيث دخل عليه رجلان فى رمضان .. فسألهما أمفطران فى رمضان!؟ فعجب الرجلان وقالا له : لا يا أمير المؤمنين ..فقال رضى اللّه عنه : رأيت آثار الطعام على أفواهكم ... فيتنبه الرجلان .. وأخبرا سيدنا عثمان بأنهما وقعا فى عرض بعض الناس بالكلام غيبة ....ويسألان أنبوّة بعد رسول اللّه يا أمير المؤمنين ! ؟ فيقول لهم لا .. ولكنها فراسة المؤمن.

فانظر كيف رأى سيدنا عثمان أثر الغيبة عليهم حيث يقول تعالى عن الغيبة : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[1] و "عمر بن الخطاب " رضى اللّه عنه يتفرّسُ فى وجه " الأشتر النخعى " وهو بين قومه ، ويقول له " إنى أرى منك على المسلمين يوماً عصيباً " و " الأشتر " هذا هو الذى كانت له اليد الطولى فى فتنة سيدنا عثمان .... ، والتى حدثت بعد حوالى عشرين سنة من لقائه بسيدنا عمر ...

وأحب أن اشير هنا الى نقطة هامة .. تلك هى أنه ما كان معجزَة لنبيٍّ.. جاز أن يكون كرامة لوليّ .. فالوليُّ ما صار وليًّا إلاّ بحسن اتباعه

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٢.

لنبيه وارتواء روحه من روحه .. فكرامة اللَّه تعالى لوليه هى فى الحقيقة اكرام لنبيّه الذى اتبعه هذا الوليّ ... والولد سر أبيه كما يقولون .. واللَّه يفعل ما يشاء بقدرته وتقديره ..

حتى أنهم قالوا أن عصمة الأنبياء واجبة ... أما عصمة الأولياء فجائزة .. بمعنى أن النبيّ لا بُدَّ وأن يكون معصوماً من اللَّه تعالى ... والولى إذا علا مقامه وأكرمه اللَّه تعالى .. فمن الجائز أنْ يعصمه أيضاً .. واللَّه يخلق ما يشاء ويختار ... وليس من الضرورى أن تكون عصمة الولى مثل عصمة نبيِّه ... فان الأنفس درجات .. ودرجة النبوة لايصلها ولاحتى الصدِّيقون .. ولكنها على العموم من نفس الباب ...

وكذلك ما كان لرسول اللَّه ﷺ من خصائص .. فلا مانع أن يكون لصحابته ومن أحسن اتباعه فعلاً وحالا ، وهم أهل الخصوص من أمته .. ، لامانع أن يكون لهم جزءٌ من هذه الخصائص .. ، التى ليس لها بالوحى الخاص بالنبوة صلة ...

ولرسول اللَّهِ ﷺ معجزات كثيرة وأمور غيبية ظهرت على لسانه الشريف وهى دون المعجزات .. فإن المعجزات هى من آيات اللَّه تعالى .. أما الكرامات فهى من إكرامه جَلَّ شأنه .. وفارق بين مصدر هذا وتلك ..

وانظر الى قوله ﷺ " دَخَلْتُ الجَنَّةَ البَارِحَةَ فَنَظَرْت فِيهَا ، فإذَا جعفرُ يَطِيرُ مَعْ جِبرِيل ، وإذا حَمْزَة مُتَّكِئُ عَلَى سَرِيرٍ " صحيح ، رواه الطبرانى والحاكم عن " ابن عباس " .

ويقول : " دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً بَيْنَ يَدَيّ ، قُلْتُ ما هَذِهِ الخَشْفَةُ ؟؟ فَقِيلَ هَذَا بِلالُ يَمْشِي أَمَامَكَ " صحيح ، للطبرانى عن " أبى أُمَامَة ".

وقال : " لَمَّا كَذَّبَتْنِى قُرَيْشُ حِينَ أُسْرِيَ بِى إلى بَيْتِ المَقْدِسِ قُمْتُ فِى الحِجْرِ فجَلّى اللّـه لِيَ بيتَ المَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِه وأنا أنْظُرُ إلَيهِ " صحيح ، رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن " جابر ".

ويقـول ﷺ " اطّلَعْتُ فى الجَنّةِ فَرَأَيْتُ أكْثرَ أهْلِهَا الفُقَراءَ .. واطّلعت على النّار فَرَأيْتُ أكْثرَ أهْلِهَا النّسَاءَ " حديث صحيح ، رواه البخارى والترمذى عن " إبن عباس " وعن " عمران بن حصين " .

ويقـول ﷺ " لَقَدْ رَأَيْتُ الآنَ مُنْذُ صَلَّيتُ لَكُم الجَنَّـةَ والنَّارَ مُمَثَّلَتَيْنِ فِـى قِبْلَـةِ هَـذا الجِـدَارِ ، فَلَمْ أرَ كَاليَوم فِـى الخَيْـرِ والـشّرّ " صحيح ، رواه البخارى عن " أنس " .

فمـا العجـب أن يكـون لأتبـاع رسـول اللّـه ﷺ المخلَـصين المقرّبين بعضاً من هذه الكرامات .. إكرامًا لرسوله ﷺ .

نعود لكلامنا عن الرؤى فى عالم الملكوت فنقول : -

يتدرج العبد فى إدراكه لهذه الرؤى .... وكلما قويت وازدادت طاقات نفسه الروحية كلما اتسعت دائرة تعامله مع عوالم الملكوت ..

وتدرَّج فيها وازداد عمقاً وعلواً .. فاذا ارتقى الى بعض عوالم الملكوت الأعلى ... فإنه كذلك يصل إلى رؤية اليقظة الكاملة ، ويترك حالة الذهول التى تكلمنا عنها ...

وفى هذه المرتبة يستطيع بتوفيق اللّـه تعالى له أن يتعامل مع عوالمه الجديدة بقواه الباطنية ، كما يتعامل بحواسه الظاهرية مع الكون المادى الذى يعيش فيه ... وتمر عليه صور عالم الملكوت ، ويتعامل معه أيضا دون أن يظهر أثر هذا التعامل على جسده ومظهره...

وفى المرحلة العليا تصير النفس كالميتة تماماً .. حيث تستولى أنوار الروح عليها بالكلية ، حتى أن إبليس لايجد اليها سبيلاً ولامنفذاً ... ولاتسمح أنوار الروح بأى رغبة من رغبات النفس أن تظهر .... وهذا هو العبد الربانيُّ الذى استغرقته تجَلِّيَّاتُ صفات اللّـه تعالى .. فتغيرت صفات نفسه .. وراحت وانتهت صفاتها المادية .. وقَوِيَتْ فيها صفاتها الحميدة ، وأمدّها اللّـه تعالى بأنوار صفاته .

ومثل هذا يكون مجال إدراكه هو الملكوت الأعلى وليس عالم الجبروت .. وهو إمَّا ساكنٌ تحت أنوار صفة واحدة من صفات اللّـه .. وإمَّا متلونًا من صفة إلى أخرى .. أو من عدة صفات معاً ...

ومثل هذا لاينشغل إلا باللّـه تعالى وأسراره وأنواره الذاتية .. وهنا نمسك عن الكلام خوفاً من الزلل ...

ففى هذا المقام تظهر على العبد مظاهر الهيبة من اللّـه تعالى .. والحب للّـه تعالى .. والشوق إليه جَلَّ شأنه .. وهكذا ..

من المراتب العليّة .

ولاستكمال هذه الصورة ، أحب أن أشير إلى أن الفاظ الحب والشوق إلى اللّه تعالى مَثَلاً ، يجب أن تطلق بحقِّها وليس اعتباطاً ....

فمن يحبُّ اللّه تعالى لابد وأن يكون يعرفه معرفة كافية.. فإن المحبّة لاتكون لمجهول ... والمحبة أيضا لاتكون إلا لجمال وكمال وعظمة في المحبوب .. فالمعرفة لازمة للمحبَّة ... ولاتصدق من يدّعى محبة اللّه تعالى وهو لايعرف عنه إلا القليل الذى لايناسب عظمته جَلَّ شأنه ...

والشوق لايكون إلا لأمرٍ جميل محبوب عرفتَ عنه جانباً .. فنبت فيك الشوق ، لتجَلِّى كمال المحبوب ..

والمحبُّ طالب .. ، والمحبوب مطلوب ... والمحبُّ أسير محبوبه .. وهو الضعيف .. وهو المهموم ، والمحبوب صاحب دلال .. فيتقرب حينا ويبتعد حيناً .. ولكنه حريص على محبوبه فى الحالتين .. القرب والبعد ..

والمحبوب يحب الأدب العالى من حبيبه .. ويرضى بمناجاته .. وتقرُّبه .. ويشفق عليه .. ويزداد له رحمةً كلما رأى تدَلُّه محبوبه ....

ولكن المشكلة أنه كلما اقترب المحبوب من المحب .. إزداد الأخير له حبّاً وشوقاً وتعظيماً .. ولانهاية للمحبة ولانهاية للقرب.

فالمحبُّون مقتولون بحبهم لامحالة .... إن اقتربوا ماتوا

من حبّهم .. وإن ابتعدوا ماتوا من شوقهم ...

وليس أشد ولا أشق ولا أصعب على المحبّ من الحجاب بينه وبين محبوبه ... فالموت عنده أهون ألف مرة من حجاب بينهما ...

والغريب أنه كلما هتك أو اخترق حجاباً .. إزداد حُبُّه .. وازداد شوقه .. ولا نهاية لهذا أيضاً ..

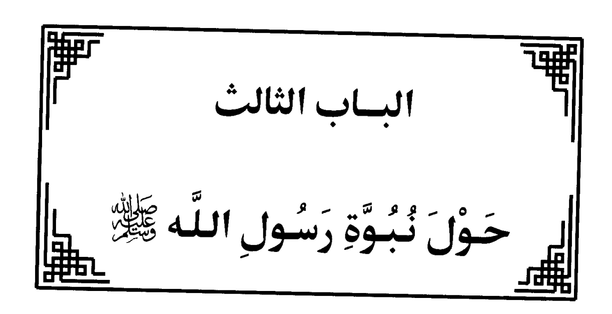
فمن دخل في دائرة الحُبِّ والشوق .. محال أن يخرج منها إلاَّ قتيلاً ..

وللّه المثل الأعلى .. وتعالى اللّه عمَّا نقولُ عُلوًّا كبيراً .

وما دُمنا قد لمسنا في كلامنا درجات الفتح والكشف والرؤى والمحبة والشوق والخلافة في الأرض ، فقد وجب علينا أن نتشرف بأن نلمس لمساً ضعيفاً جانباً روحانيا حول نبوة رسول اللّه ﷺ العبد الكامل والخليفة الحقّ للّه جَلَّ وعلا .

نسأل اللّـه تعالى أن يجعلنا من خلصاء أحبابه .. ومن أقرب محبيه ... وأوفى عباده وأن يعلمنا الأدب معه اللائق بجنابه العظيم وقدس ذاته العليِّ الكبير ..

وصلى اللّـه وسلم وبارك على مولانا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



البـاب الثالث

حَـوْلَ نُـبُـوَّةِ رَسُـولِ اللّـه ﷺ

إذا كان مفهومُ الإحسان أنَهُ أعْلَى درجاتِ العبادةِ للّه تعالى ...، بـين الفـضل ، والزيـادة ، والاتقـان فـى العبوديـة .. وبـين المراقبـة ، والمشاهدة للّه تعالى ، وأفعاله ، وصفاته ، وتجلّيّاته ...

ورسـول اللّـه محمـد ﷺ هـو خـير خلـق اللّـه تعـالى .. إمـام المرسلين أجمعين وقائدهم ... وهو أعرف الخلْقِ بربِّهِ .. وأقربُهُمْ إِلَيْهِ مَحبَّةً ، وشكراً ، ويقيناً ، وتقديساً ...

فهل ترى فى كل خلق اللّه تعالى ، مَنْ هو أعظم إحساناً ، وأتمّ عبوديـةً ...، وأكمـلُ إيماناً ...، وأعلى أدباً مع ربِّ العزة ذى الجـلال والجبروت ... من رسول اللّه محمد ﷺ !!!.

فتعال معى .. على حَذَرٍ .. وبأدبٍ يُنَاسِبُ مقامه ﷺ .. تعالَ معى لنقترب من بعض أنـواره وأسـراره .. عسى اللّـه أن يفتح علينا وعليكم ، فيكون لنا من أنـواره وأدبه نفحةً منه .. تزجُّنا فـى أنـواره وأنـوار اللّـه تعالى زجًّا نستغنى به عن كل ما سواه ....

ونـسألُ اللّـه تعالى أن يلهمنا الـصواب والتوفيـق وحـسن الأدب وفصاحة الاسلوب وصدق المعنى .. ونحن نخوض فى أنوار هذه البحـور الدافقة .. والسموات العالية.. وأن يجنبنا بفضله زلاّت اللِسان .. وعَثَراتِ الفِكْر ، ولايَكِلَنا إلى أنفسنا طرفة عين .. وأن يجعل كل مـا نقـول منـه وبـه وإليه جَلَّ شأنه العظيم ....

ونحنُ لنْ نَتَحَدَّثَ عن سِيرته ﷺ .. ولا مُعْجِزاتِه .. ولكننا نُرِيد أن نتعرض لبعض خصائصه النورانِيَّةِ التى لم يتعرض لها الكثير من أهلها .. أو قد تناولوها بأسلوب قد يصلُ بالقارئ إلى غير ما نريد أن نصل نحن إليه ....

وعلى سبيل المثال ، نتعرّضُ لبعضِ هذهِ النّقاطِ ، فنقول وباللّـه التوفيق ....

- **كان خلقه القرآن :**

يقول اللّه تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1].

ويقــــول : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[2] .

ويقول ﷺ " **أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى** " رواهُ ابن السمعان عن " إبن مسعود " ، وهو صحيح .

وتقول " السيدةُ عائشة " رَضِيَ اللّه عنها " **كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنْ** "

وصدق اللّه تعالى ... وصدق رسوله ... وصدقَت السيدة عائشة .. وصدق كل من مدحه ﷺ .. وما وفَّاه حقه ....

وقد نزل القرآن على رسول اللّه ﷺ منجَّماً طوال فترة الرسالة .. وكلُّ فترةٍ يتنزَّلُ القُرْآنُ بأدبٍ وخُلُقٍ .. لِيَتَأَدَّبَ بِهِ المؤْمِنُونَ ، ويَتَخَلَّقَ بِهِ مَنْ حَوْلَ رَسُولِ اللّه ﷺ ...

واكتمل الدين .. واكتملت الأخلاق الفاضلة .. وتمَّت النعمة ، حـين قـال ربُّ العِـزَّةِ ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[3] ، وما كان هذا إلا فى آخر سَنَةٍ من البعثة المحمديَّة ...

---

(١) سورة القلم آية : ٤ (٢) سورة النساء آية : ١١٣

(٣) سورة المائدة آية : ٣

ولنا أن نتساءل ... هل كان خُلُقُ رسول اللّه ﷺ القرآن .. بعد أنْ ينزِلَّ القُرْآنُ ... أمْ قَبْلَ أنْ يَتَنَزَّلَ القرآن .!!!!

نحن لانتحدث عن الأوامر الشرعية ، ولا عن الأمور الشرعية كالصيام والصلاة والحج .... ولكننا نتحدث عن الأخلاق والأدب الذى نزل به القرآن الكريم ...

ألم يكن رسولُ اللّهِ ﷺ صادقاً .. ، أمينا .. ، يوفى بالعقود .. ، ذاكراً .. ، شاكراً .. ، عفواً .. ، سمحًا... ، رحيماً ، من قبل أن ينزل القرآن.!!

لقد شرح اللّه تعالى له صدره الشريف .. ونزع عنه حظَّ الشيْطَانِ .. وهو مازال طفلا صغيراً عند " حليمة السعديَّة " .. مما جعلها تردُّهُ إلى أمِّهِ ، خَوْفًا عَلَيْهِ مِمَّا حدث له ، كما تروى روايات السيرة النبوية ... فنشأ ﷺ كاملاً مكمَّلاً فى خُلُقِهِ وصفاته .. وتولاَّهُ رَبُّهُ بالعناية والأدب والرعاية .. حتى عِنْدَمَا كان يجتمع مع أقرانه وهو صبىٌ صغيرٌ ، فإن اللّه كان يرعاهُ ويحفظهُ حتى من حضور مجالس الأنس واللّهو ....

فاللّه جَلَّ شأنُهُ هو الذى ربَّاهُ .. وجعلهُ أُمّيًّا ، فعلمَّهُ ... حتى لايكون لمخلوق عليه فضل فى الرعاية والتربية ، عِلْماًوخُلُقاً ...

فاذا قلنا أنَّهُ ﷺ كان خُلُقُه القرآن .. فلا شك أنَّهُ مِنَ الأنْسَبِ والأَحَقِّ لِشَرَفِهِ ﷺ أن نقول أنَّ القرآنَ الكريمَ وما فيه من آداب وسلوك،

كان ينزلُ بما فى رسول اللّـه ﷺ من خُلُقٍ وآدابٍ .. لِيُعَلِّمَ .. وَيُؤَدِّبَ بِهَا غَيْرَهُ ... وهذا هو الأنسبُ لِمَقَامِهِ ﷺ ...

والقُرْآنُ هو كلامُ اللّـه تعالى .. ونوره وأسراره .. وآياته نزلت من تحت العرش ، ومن كنوز الجنَّةِ ، كما ورد فى أحاديث رسول اللّـه ﷺ ... والعربية عند محمد ﷺ.. وهو أبلغ العرب .. الذى أوتى جوامع الكلم ...

و يقولُ المفسِّرون والعُلماءُ إن القرآن قد نزل فى ليلة القدر دُفْعَةً واحدة من البَيْت المعمور إلى بيت العزَّةِ فى السماءِ الدنيا .. ثم ما زال يتَنَزَّلُ على الرسول ﷺ مُنَجَّماً ، تَبَعاً للحوادث خلال فترة الرسالة .. حيث يتنزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام .. على قلب محمد ﷺ ، حيث يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾(1) ...

فكلُّ نُورِ القرْآنِ وأسرارِهِ فِى مُحَمَّدٍ ﷺ... فقدكان قرآنا يمشى على الأرض ، فروحانيته عليه الصلاة والسلام مُحَمَّلَةٌ بأنواره وأسراره .. وأى روح فى الخلائق كلها أوْلى وأشرف وأعلى وأطهر من روحِ حبيبِ اللّـه وإمام أنبيائه ورسله .!!!

ثم يأتى سيدنا جبريلُ بالأمرِ من السماء تبعـًا لِكُلِّ واقعةٍ ، وحسبما يريد اللّـه تعالى .. ليخرج من رسول اللّـه ﷺ ما يشاءُ اللّـه

---

(1) سورة الشعراء آية : ١٩٣-١٩٥.

تعالى من القرآن .. بلسانٍ عربيٍ مبينٍ ، تشرَّفت اللغة العربية بأن يكون لسانُ المصطفى ﷺ هو الناطق بها ....

لــذلك يقــول تعــالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[1]، ويقــول ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾[2] وظــاهر الآيــة واضــح .. فـالنطق والبيـان مـن رسـول اللّـه ﷺ مُقـيَّدٌ بنـزولِ الـوحيِّ والأمـرِ بالنُّطْقِ.. وهذا شأن سيدنا جبريل وما هو مكلف به من رب العزة جل شأنه .

ولذلك كان رسول اللّه ﷺ شديد الحب لسيدنا جبريل عليه السلام..

يقـــول تعـــالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3] ويقـول: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾[4] وكان سيدنا جبريل عليه السلام خلال شهر رمضان كل عام يستعرض ويتناوب مع رسول الله ﷺ تلاوة ما نزل من القرآن .. وفي آخر سنة من حياة رسول الله ﷺ قرأه مرتين وكان ذلك إيذاناً بانتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ...

ونُنبهُ إلى أنه ليس كل ما تعرفه الروح وتحمله .. لابد وأن تعرفه

(١) سورة طه آية : ١١٤.
(٢) سورة القيامة آية : ١٦.
(٣) سورة الدخان آية : ٥٨ .
(٤) سورة مريم آية : ٩٧ .

وتحمله الذات البشرية ، فالروح عالمةُ بربها بطبعها .. ورغم ذلك فكم ذاتٍ كافرة برَبهَا .. وروحها مؤمنة .. فافهم .. فالروح بينها وبين الجسد علاقة ما .. بها يحس .. وبها يعرف .. ولكن ليس كل ما فى الروح يعرفه الجسم ... وإلا لأدرك كلُّ كافرٍ بالله أنَّ رُوحهُ مؤمنةُ منذ خاطبها الله وقال ألستُ برَبُكم .

وهذا الموضوع فى غاية الدقَّةِ والخطورة ، فيجب الحديث فيه بحذر ... حتى لا يُساءُ فهمُنا ... وكل ما نريد قوله هو أن الذات المحمدية قد اشتملت القرآن فيها .. وحوت أنواره وأسراره .. وأنَّ القرآنَ الكريمَ بآدابهِ وأخلاقهِ كانَ يتنزلُ بأخلاقِ الرسول ﷺ ليتَعَلمَ مَنْ حوْلهُ وَمَنْ بَعْدَهُ .

ورسول الله كان كاملاً مُكمَّلاً من قبل نزول القرآن كما هو بعد نزوله ...

ولعل فى كلامنا هذا إشارة إلى بعض التساؤلات التى نبتت بين المسلمين ، حيث يقولون طالما أن روح رسول الله ﷺ هى الروح الأعظم .. والأقرب إلى الله تعالى .. وهى بلا شك أعلى وأسمى من روح سيدنا جبريل عليه السلام .. حيث أنها تقدَّمَتْ واحترقت الحُجُبَ فى لَيْلَةِ الإسراء والمِعْراج ، بينما تأخَّرَ جبْريلُ ، وقال لو تقدَّمتُ لاحْتَرَقْتُ .. أما أنت يا محمد فلو تقدَّمْتَ لاخْتَرَقْتَ ... وما منا إلا وله مقام معلوم ...

وصدق الله تعالى .. وصدق رسوله ﷺ .. وصدق جبريل عليه

السلام ... ولكن يبقى السؤال كيف تكون الروح الأقلُّ .. – روح جبريل عليه السلام – هى الواسطةُ بينَ الله تَعَالَى والروح الأعظم .. روح محمد عليه الصلاة والسلام !!! وهى أعلى منها وأعلمُ بالله تَعَالَى !!!

وإلى هؤلاء نقول :

إنَّ بَشَرِيَّةَ رسولِ الله ﷺ ضرورة لازمةُ .. فيها يعيش على الأرض .. وبها يُعَلِّمُ النَّاسَ الشَّرِيعةَ ... وبها يكون قدوةَ وأسوةً حسنةً للخلْقِ .. والبشرية لها طبعها ولها طاقتها ... وانطباق الروحانية العالية على البشريَّة الأرضيَّة .. أمر فيه من المشَقَّةِ والجهدِ ما يفوق الوصف ... ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يتصبَّبُ عَرَقاً ... ويكاد يكون كالمَغْشِيِّ عليهِ .. وتُنيخُ بهِ نَاقَتُهُ ... ويلاقى من الجهد والعناء الكثير ... يقول تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [1].. ثقلٌ مادى .... وثقل معنوىّ....

ويأتى هنا دور أمين الوحى عليه السلام ... فتكون المؤانسة .... والوساطة بين الروحانيَّة و البشريَّة .... مع مالا نعلمه من الأمور الأخرى التى نعجز عن فهمها ... يقول ﷺ " **أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ ، فَرَاجَعْتُهُ ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** " صحيح ، رواه البخارى ومسلم وأحمد عن " ابن عباس " .

---

(١) سورة المزمل آية : ٥ .

ويجب أن تدرك أن ما كان يعترى رسول اللّـه ﷺ من الجهد والمشقة ، لم يكن من رؤية سيدنا جبريل .. ولامن الحديث معه ... بل هو " الوحى " المقصود ... فسيدنا جبريل عليه السلام كثيرا ما كان يأتى إلى رسول اللّـه ﷺ ويخاطبه ... دون أن يُحْدِثَ لرسول اللّـه شيئاً من هـذا الجهـد والمـشقة ... وكانـت الـصحابة تـراه فـى صـورة سـيدنا " دحْيَةَ الكلبىِّ " دون معاناة منهم ....

وقد خاطب سيدنا جبريل السيِّدَةَ مَرْيَمَ عليها السلام وتمَثَّلَ لها بشراً سوياً ... وكذلك جاءت الملائكة إلى نبىِّ اللّـه لوط ... ولم يعرِفْهُم حتى عرَّفُوهُ بأنفسهم ... وجاءوا إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وبَشَّرُوهُ وبَشَّرُوا إمرأتَهُ " سَارَةَ " بالوَلَدِ .. ولم يعرفهم بداية كذلك حتى عرَّفُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ ....

فالموضوع إذاً ليس نزول والتقاء الملائكة بالقلب البشرى ، بقدر ما هو الأمر الذى تتنزَّلُ به الملائكة من الملكوت الأعلى ... والأنوار الإلاهية التى فيه ... بل الأَمرُ أَعْقَدُ مِنْ هَذا الكَلامِ ، وفيه اسرارٌ لايجوز البوح بها .. وكلها تؤكد المقام الأسمى .. والدرجة العظمى لرسولِ اللّـه ﷺ.

وفى هذا القول الكفاية لمن أدركته العناية .. فافهم رحِمَك اللّـه وإيَّانا ....

فرسولُ اللّـه ﷺ صاحب البشريَّة الكاملة خَلْقاً وخُلُقاً .. المبرؤ من كلِّ نقصٍ أو عيبٍ .... الكامل فى كل شئٍ من الجمال والجلال ﷺ.... حيناً تغلب عليه هذه البشرية .. فيأكلُ ويشربُ ويعاملُ الناس ،

ويمشى فى الأسواق ، وتظهر فيه ﷺ العبوديَّةُ الكاملةُ للّـه تعالى ... والأدبُ الأعلى معه جَلَّ شأنه ... حيث تراه صابراً .... شاكراً ... ذاكراً ... مفوِّضَاً الأمور للّـه تعالى ... مسبِّحاً ... مستغفِراً ... موحِّداً .... كأعلى ما تكون هذه الأحوال فى بشر....

يقول ﷺ " **إِنِّى فِيمَا لَمْ يُوحَ إِلَىَّ كَأَحَدِكُمْ** " حديث حسن ، رواه الطبرانى عن معاذ ، وهذا يُفَسِّرُ لَكَ بَعْضَ ما تَعْجَبُ مِنْهُ حين تقرأُ فى سيرتهِ ﷺ ، فترى مثلا كيف يَخفى أمرُ حديث الإفك عنه زَمَنًا ... وهو أمر يخصُّ أهلَ بيته .!! أو كيف كان يصفرُّ وجهُهُ الشريف إذا رأى ريحاً مقبلة !! ويظل يدعو اللّـهم اجعلها ريحَ رحمة ، ولاتجعلها ريحَ عذابٍ ومقت ..!! أو كيف كان يدعو خلال معركة " بدْر " ، وكله تضرع إلى اللّـه تعالى ، وعبودية محضة ، .. ويتذلل إلى اللّـه تعالى أن ينصر جنده .... بينما كان ليلة المعركة يُعَيِّنُ لمن حوله مصارع القوم من قريش .. وما تَعَدَّى أحدٌ منهم مقتله ومكانه . !!!

وحينًا تغلبُ أنوارُه الروحِيَّةُ ، أنوار الذات البشريةِ المحمّديَةِ ... فلا تَسَعُهُ حينذاكَ الأكوانُ جميعًا ....

فإنّ رسول اللّـه ﷺ .. بروحانيته لاتَسَعُهُ السمواتُ ولا الأَرْضُ " **إِنِّى لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ .. فِإِنِّى أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّى يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِى** " ......

فهو بروحانيته لايسَعُهُ بشرٌ .. ولايسَعُهُ إلاَّ اللّـه تعالى .... تلك هى عظمـةُ نُبُوَّتِـهِ وهـو بذاتـه الـشريفة الماديـة ... العبـد الكامـل بالخـضوع

والإسلام للّه تعالى ... يجاهد .. ويحارب .. ويكِدُّ .. ويشقى ... ويضرِبُ اللّه بِهِ تعالى الأمثِلةَ ، لِلنَّاسِ .. وللمؤمنين .. وللعابدين ...

أمَّا في روحانيته .. فَإِنَّهُ يرى السمواتِ .. والأرضَ .. والجنةَ .. والنار ... وما هو أعظم من ذلك .... وفي بشرِيَّتِهِ ترى فيه الأُسْوَةَ الحسنة للعبْدِ الكاملِ للّه تعالى ، لايرفع حاجبه عن الأرض ، تعظيما وتقديساً وعُبوديَّةً للّه تعالى ...

ألا ما أكملك ... وما أعظمك .. وما أرفع أدبك .. يا سيدى يا رسول اللّه صلَّى اللّه عليك وسلَّمَ وباركَ .....

فلا تسمعْ يا أخي لِمَنْ جَهِلَ وتساءل كيف يكون محمدٌ حبيبَ اللّه وخير خلق اللّه .. ولايعرف كذا وكذا .. أو يحدث له كذا وكذا ..!

فقل لهم هو حيث أقامه رَبُّه .... لايعلمُ إلا ما علَّمَهُ اللّه ... ولايأمرُ إلاَّ بأمرِ اللّه ، وما ينطق عن الهوى ... ، وهو في تجلِّيَّات اللّه تعالى حيثُ يَشَاءُ اللّه .. فحيناً هو مع اللّه تعالى بلا أكوان ، .... وحينا هو مع اللّه تعالى بالأكوان ... ، وحينا هو مع اللّه تعالى في الأكوان!!!... فأمْسِكْ لِسَانَكَ .. وقيِّد عقلك بالأدب .. فنحن نتحدث عن خير خلق اللّه وأقربهم إلى اللّه تعالى .... صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ....

- **القــرآن :**

وطالما طُفْنَا وحَوَّمْنَا حَوْلَ الوَحْيِّ والقُرْآنِ .. فَيَجِبُ أنْ نُشِيرَ إلى معنيين هامَّيْنِ : وهما القرآن .. والمصحف ......

والقرآن ببساطةٍ شديدة هو كلام اللّه تعالى .. بأنواره .. وأسراره .. وتجلّـيَّاتِه ، وهو الوحى الذى أنزل على قلب رسول اللّه ﷺ ... وهو الذكر الحكيم ...

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾ [1]. ويقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] . ويقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [3] .

ويقول : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [4]

ويقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾ [5]

وبنظرةٍ فاحصةٍ على هذه الآيات الكريمة ، نرى أنَّ المقصود بالقرآن الذى هو شفاء ورحمة .. وتُسَيَّرُ بِهِ الجِبَالُ .. وهو فى كتاب مكنون عند رب العالمين .. هو تلك الروحانية العالية ... والنورانية السامية .. والسرُّ السارى فى كلام اللّه تعالى إلى خلقهِ ، .. وعلى قلب

---

(١) سورة النمل آية : ٦.

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٢.

(٣) سورة الرعد آية : ٣١.

(٤) سورة الحشر آية : ٢١.

(٥) سورة الواقعة آية : ٧٧-٨٠ .

نبيه ﷺ ... ، وهو القول الثقيل الذى ذكره تعالى فى سورة المزمل حيث يقول .. ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾

ومنه ما نزل من تحت العرش .. ومنه ما هو من كنوز الجنة ... وكل سورةٍ ولها نورها .. وكل آيةٍ ولها سِرُّهَا .... كما ذكر رسول اللّه ﷺ .

وهذا القرآن العظيم .. مظهره المبارك هو فى حروفه وألفاظه التى يحتويها المصحف بين دفتيه ... ، فيكون إذا لدينا مصحفٌ مسطرةٌ به آيات القرآن وحروفه بلسان عربى مبين ....

ويكون لدينا قرآنٌ كريم ، يحتوى على الأنوارِ والأسرار والتجلِّيَات الإلاهية العالية ....

والمصحف بترتيبه ومظهره .. توقيفى .. ، أى من رسول اللّه ﷺ ولادخل للبشر فى ترتيبه ولا نِظام آياته ولا أماكن سِوَرِهِ ، ... بلْ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ رسول اللّه ﷺ .. كما كان يتدارسه مع سيدنا جبريل عليه السلام ...

وآن لنا الآن أن نفرِّقَ بين من يتلو المصحف .. وبين من يقرأ القرآن ....

فتالى المصحفِ هُو قارئُ حروفِهِ وألفاظِهِ وآياتِهِ .. وله الأجر والثواب .. بل لكل آية أجر ، ولكل كلمة ثواب .. ولكل حرف ثوابٌ ودرجةٌ كما قال ﷺ...

ويقال لقارئ القرآن يوم القيامة .. أُتْلُ .. وارْقَ .. ، وكلما تلى أيةً ارتفع درجة في الجنة .. ، فطوبى لأهل القرآن .. وحفظته الذين استدرجوا حروفه وألفاظه بين جنبيهم ....

وتلاوةُ كتاب اللّـه بفهمٍ وبغير فهمٍ لها ثوابُهَا ... وكلٌ ميسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ... وكلٌ تبعًا لرزقه من كتاب اللّـه وتلاوته ...

فإذا عَرَّجْنَا إلى قارئ القُرآنِ .. بِحَقِّهِ ..، فذاك أمرٌ آخر .... ، فقارئ القرآن لايقرأ بعينيه ولاببصره ... ، بل يستجلى المعانى اللدنية ، والأسرار العلوية الظاهرة ، والخافية في آيات القرآن ، ويتسامى بروحه ويتطاول ، لتلتقط بعضا من المعانى النورانية ، التى كانت تتنزل على رسول اللّـه ﷺ ...

وأمرٌ جانبى له علاقة بكلامنا ..

ذلك أننا مأمورون بالتكبير عند رؤية الحريق .. حتى ينطفئ الحريق .. ولو أخلص العبد لأصاب غرضه .. فرسول اللّـه ﷺ كلامه الصدق وليس بالهزل ... ولكن ما يحدث أن التكبير من بعض الناس ، لايؤدّى إلى إطفاء الحريق ... وأبداً ومطلقاً لن يكون الخطأ في الأمر ، ولكن يكون النقص في الأداء والتنفيذ .. ولفظ التكبير هوَ هوَ .. ولكن أين روح المُكَبِّرِ المُسَبِّحِ للّـه بروحهِ وقلبهِ !!. فلابد وأن يحدث بين الذِكْرِ بالتكبير باللسان والهِمَّةِ الإيمانية بالقلبِ ، قوة خارقة وهِمَّةٌ عاليةٌ تطفئ هذه النيران .. فإن نقص شرط منهما فما يكون الغرض المطلوب والنتيجة المقصودة ....

لدغت عقربٌ أعرابياً فى زمن رسول اللّه ﷺ ، فلجأ إلى رسول اللّه ﷺ للاستشفاء ، فقابله " إبن الخطاب " فى الطريق وعرف قصته ، فوضع " إبن الخطاب " يده على مكان لدغة العقرب ، فشفى الرجل كأن لم يكن به شئ ... ورجع إلى رحله ....

وما كاد يصِلُ إلى رحْلِهِ حتى لدغته أخرى .. ، ففعل كما فعل " ابن الخطاب " .. وضع يده على اللدغة وقرأ الفاتحة ، ولم يُشْفَ الرجل .. فذهب إلى رسول اللّه ﷺ مستجيراً مستعجباً مما حدث ... فقال له ﷺ " **الفَاتِحَةُ هِيَ الفَاتِحَة ... وَلَكِنْ أَيْنَ عُمَرْ ..!!! ...** "

إيجازٌ من رسول اللّه ، يوضح الكثير والكثير .. فالفاتحة هى الفاتحة .. والسرُّ الذى فيها ما يزال فيها بلاشك .. ولكن أين المستقبل له.. المنفعل به .!! أين روحانية " عمر بن الخطاب " التى تلتقط روحانية فاتحة الكتاب ، ليكوِّنا معاً طبًّا وشفاءً وقوةً إلاهية تشفى هذا المريض ..!!

وقول رسول اللّه ﷺ فى صباح الهجرة المباركة ، حين خرج على من كانوا يتربصون ببابه ليلة الهجرة ، وذرَّ فى وجوههم بعضًا من الرمل ، وقال : فأغشيناهم فهم لايبصرون ... فظلُّوا فى مكانهم لا يرون ولا يشعرون ، حتى حَمِيَتْ الشمسُ على رؤوسهم ، وحيثُ كان رسولُ اللّه ومن معه قد غادروا مكة وما فيها ... فتمثل رسول اللّه ﷺ بهذه الآية الكريمة فى سورة يس ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ .. خرجتْ من فَمِهِ الشريفِ مَقْرُونَةً بِرَوْحَانِيَّة ذاتِه المباركةِ ، فكانتْ برَكةُ

الآيةِ وسِرِّها ، مَعَ بَرَكَةِ رسولِ اللّه وسِرِّهِ ، هُوَ السِلاحِ الفعالِ ضِدَ هَؤُلاءِ ... فأصمَّهم وأعماهم .....

ومقصودُ كلامِنا أنَّ الروحَانِيَّةَ العَالِيَةَ فى الإِنْسَانِ هِىْ فَقَطْ التى تستطيع أن تستجلِىَ روحانية وأسرار وقوىَ وتجلِّيَّات آياتِ اللّه العظيمةِ فى القرآنِ الكريمِ .. وبغير هذا الروحانية الفِطْرِيَةِ فى التَّالِى فلا يستطيع أن يصل إلى هذه المرحلة المؤثرة من آيات اللّه تعالى ...

ولقد قدَّر سيدنا " عمر بن الخطاب " تكبيرةَ سيِّدِنا " المقداد بن الأسود " بألف تكبيرة ممن عداه .. وأرسل " لعمرو بن العاص " قائلاً له " رجلٌ بألفِ رجلٍ " .. وهو " المقداد " .. ولقد كتب اللّه النصر على يديه ، كما توقع سيدنا " عُمر " رَضِىَ اللّه عنهم جميعاً..

ومقصود كلامِنا باختصار أن الروحانية التى فى آيات القرآن العظيم هى لاشك فيها ... ولكن لايلتقطها .. ولايتعامل معها إلاَّ أولَئِك الذين أنعم اللّه عليهم بروحانيَّةٍ ساميةٍ فى قلوبهم .. تلتقط ما فى القرآن من روحانية .. وتتفاعل معها .. ليكونوا معاً قوةً عُظْمَى مِنْ فضلِ اللّه تعالى ....

فمن أراد القرآن الكريم وأنواره .. فلايكتفى بالتلاوة المجرَّدَةِ باللِّسَانِ والشَّفَتَيْنِ – رغم ما فى هذه التِّلاوة من خير عظيم – إلا أَنَّهَا ما أهونها بجوار أسرار اللّه وتجلِّيَّاتِه ، التى يفيضها على العبد التَّالِى للقرْآنِ بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ ...

فمـن قـرأ القـرآن بلـسانه ، فلـنْ يتجـاوز المعنـى عقلـه البـسيط المادىَّ ....

ومن قرأ القرآن بلسانه وقلبه ، فالمعانى تَتَجَاوَزُ عقْلَهُ البَشَرِىَّ ، لِتُنِيرَ قلْبَهُ ببعض الأسرار النورانية .... ومن قرأ القرآن بلسانه .. وقلبه .. وروحه ... فناهيك بأفضال اللّه عليه وأنواره وتجلِّيَّاتِه ....

ولذلك ورد عن رسول اللّه ﷺ أنَّهُ قام ليلة كاملةً فى تَهَجُّدِهِ وهو يُرَدِّدُ فى صلاتهِ آيةً واحدةً ، وهِىَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[1].

ولوْلاَ أنَّ رسولَ اللّه تعالى يستجلى فى كل مرة يتلو فيها هذه الآية معنى جديداً .. ونورانية متجددة .. وأسراراً كانت مستورة .. لَمَا ظَـلَّ يُرَدِّدُهَـا الليـلَ كُلَّـهُ لِيَـسْتَزِيدَ مـن أسـرارها وأنوارهـا .. قـال ﷺ : " **أُنْزِلَ القُرْآنُ على سَبْعَةِ أحرفٍ ، لِكُلِ حرْفٍ منها ظهرٌ و بطنٌ وَ لِكُلِّ حرفٍ حَدٌ ولكُلِّ حدٍ مُطَّلَعٌ** " رواه الطبرانـى فـى الكـبير عـن " إبـن مـسعود "، وهـو حـديثٌ حـسنٌ ، واختلـف العُلمـاءُ فـى المقـصود مـن الحرف الذى جاء فى الحديثِ الشَّريفِ ... وارجع إلى الكتب المختصَّةِ فى هذا المجالِ مثل " الإتقانِ " للسيوطى وغيْرِهِ .

وأياً كان المقصودُ فالظَهرُ هنا هو ما ظهر من المعنى ... والبطنُ هو ما كان فيه من إشارةٍ أو رمزٍ أو تأويلٍ ... والحَدُّ هُوَ منتهى فهم

---

(١) سورة المائدة آية : ١١٨

العقل البشرى للمعنى ... أمَّا المُطَّلَعُ فَهُوَ بداية المعانى النورانية الذوقية القلبية .

سُئِلَ الإمام علىٌّ كَرَّمَ اللّه وجهَهُ .. هل خصَّكُمْ رسولُ اللّه يا آلَ محمدٍ بشئٍ منْ كتاب اللّه ، أو سرٍ منْ أسرارِ الشَّرِيعَةِ ... فقال الإمامُ كَرَّمَ اللّه وجْهَهُ .. لا واللّه ، ما خَصَّنَا رسول اللّه بشيئ من ذلك .. اللّهمَ إلاَّ بشئٍ هو فقهٌ فى كتاب اللّه وفهمُ آياته ....

فمِن كرمِ اللّه تعالى على آل بيت رسوله .. وإكرامًا لخاطرِ جَدِّهِمْ الذِى أنْزِلَ عليه القُرْآنُ ، قد يخُصُّهمْ ببعض الفهم الخاصِّ فى كتابه ولبعض آياته .. نورانيَّةٌ خاصةٌ لآل محمدٍ تعينهم على استنباط انوار وأسرار بعض آيات اللّه سبحانه .

فافهم - رحمك اللّه - الفرق فى تلاوة كتاب اللّه وآياته بين المسلم العادى ... والتقىِّ الورع ... والولىِّ للّه .. والعارفِ باللّه تعالى ... فكل منهم له روحانية فيه ، يستلهم بها قبساً من نورانية هذه الآيات فتظهر فاعليتها فى الأكوان .

وانظر رحمك اللّه وايانا ، وفتح علينا وعليكم إلى أول كل سورة من سور القرآن الكريم حيث تبدأ بـ " بسم اللّه الرحمن الرحيم " ... وما معنى البسملة ببساطةٍ وبلا تعقيدٍ ..!!

معناها أنَّكَ قدْ خرجت من نفسك .. ومن صفات البشرِيَّةِ .. وبدأت تقرأُ آيات اللّه تعالى نيابة عنه جَلَّ شَأْنُهُ .. غارقاً فى أنواره ... ومستلهما أسراره .

وقراءة ساداتنا للقرآن ، عادة ما تكون بهذه الكيفية الروحانية العالية ... فكلها تدبرٌ واستغراقٌ فى أنوار القرآن مستلهمين .. وراجين...أن يكون لهم بعض النصيب من الأنوار والأسرار النورانية ، التى كانت تتنزل على رسول اللَّه ﷺ بِنُزولِ هذه الآيات المباركة ، وبهذا يعيشون بين أنوار اللَّه تعالى وكلامه القديم ، ونورانية رسول اللَّه ﷺ وقت تلقيه لهذه الأنوار المباركة العظيمة ، فتكون النتيجة أن يتقاربوا إلى روح رسول اللَّه ﷺ ، لينالوا بعض التجانس منها .. فإنَّ المُجالِسَ مُجَانِسٌ ، فتكون لهم بها الأنس والمودة مع رسول اللَّه .. ليتأدبوا بأَدَبِهِ العَالِى مع اللَّه تعالى ، مما يَسُرُّ خاطر الرسول بأن من أتباعه من لديهم الهِمَّةُ والسُّمُوُّ لأن يتعلقوا بحبل اللَّه المتين ، من حُبِّ اللَّه تعالى و حُبِّ رسول اللَّه ﷺ ...

أردنا أن نوضح الفرق ببساطة بين قارئ المصحف .. وقارئ القرآن .. وبين من يتعامل مع المصحف وآياته وحروفه .. وبين من يتعامل مع القرآن بأنواره وأسراره ...

وقرآن اللَّهِ العظيم .. هو عند اللَّهِ فى كتاب مكنون ... محفوظ .. مُطَهَّرٍ مكنوزٍ .. لايَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ ... منْ طَهُرَتْ قلبه وروحه... وتسامَى قلبه وعقله .. فسوف يَمَسُّ مِنْ أَسْرارِ هَذا القُرْآنِ ما يشاءُ اللَّه تعالى له .. ومنْ لَمْ تَرْتَقِ رُوحُهُ ويَتَسامَى عَقْلُهُ .. ويطهر قلبه .. فهيهات أن يكون له نصيبه من القرآن إلاَّ عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ وهِمَّتِهِ وظَنِّهِ باللَّه تعالى ...

وفضل كلام اللّه تعالى على كلام الناس .. كفضل اللّه تعالى على خلقه ... وما أبعد البَوْن ... وما أكبر الفارق .... فذكر اللّه تعالى بتلاوة آياته هو الأعلى عند اللّه .. وهو الأحب إليه جَلَّ شأنه .. ولكن بشرط تلاوةِ قرآنه بحقِّهِ وبِأَدَبِهِ .. وبفكرِهِ .. وبروحهِ ، حتى يفيضَ اللّه تعالى عليه من أسرارِهِ وأنوارِهِ مالا يجده مسطوراً فى كتاب ولامسموعاً فى كلام ....

وانظر مثلا كيف اختلف المفسرون فى شرح آية ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] وكيف أفاضوا فى القضاء المبرم .. والقضاء المعلّق .. والقضاء المشروط ... وما هى أم الكتاب .. واللوح المحفوظ .. والدعاء الذى يرد البلاء .. وزادوا وعادوا ، وجزاهم اللّه خيراً على اجتهادهم ..

ثم يأتى رسول اللّه ﷺ لأحد الصالحين مناما ليقول له " يَا عَبْدَ اللّه دَعْكَ مِن كُلِّ مَا سَمِعْتَ وَمَنْ سَمِعْتَ .. واسْمَعْ مِنّى ... يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ فى الأوْهَامِ والخيَالِ والفِكْرِ والظَّنِّ والمَنَام " .... وهذه هى ما قلنا عنها أنَّهَا عوالم الجبروت ... وصدق رسول اللّه ﷺ... وما أجمل إيضاحَهُ وشرحه ....

فعلى قدر هِمَّةِ .. وقُوَّةِ إيمانِ التَّالى .. يلتقط من الأنوار ما يناسب هِمَّتَهُ وقوةَ إيمانه ...

---

(١) سورة الرعد آية : ٣٩ .

فلا تعجب من تالٍ للقرآن لايؤتى أثره على مريض مثلا .. وتالٍ آخر يكون أثرُ تلاوته كالبرق اللامعِ ... وآخر يستلزم التكرار والإعادة لاستجماع همته الروحية ...

والقرآن واحد لا يتغير ... إنما التفاوتُ فى التَّالى نفسه وقوته ... فافهم رحِمَكَ اللّه ... وهذهِ مِنْ أسرارِ الذَّاتِ البَشَرِيَّةِ وغَلَبَةِ الرُّوحِ عليها ....

وإذا وصلنا الى هذه النقطة من قوة إيمان المؤمن ، وطرقنا باب الهِمَّةِ الإيمانِيَّةِ ، فعلينا أن نمر مر الكرام على هذه الهِمَّة ذات الميزة الخطيرة ....

- **التكـوين :**

ذَكَرْنَا فى الباب السابق بِأَنَّ أهلَ الإِحْسانِ سابحونَ فِى ملكوتِ اللّه تَعالى .. مُسْتَغْرِقُونَ فى تَجَلِّيَاتِ صِفَاته .. وأنَّـهم أينما يُولُّوا فثمَّ وجهُ اللّـه تعالى .... وقلنا أن فيهم من هـو صاحب الصفة الواحدة .. ومنهم من هو صاحب الصفتين .. ومنهم ما هو أكثر من ذلك ... كما ان منهم منْ ظاهِرُهُ ثابتٌ لايتغيرُ ، وباطنهُ ثابتٌ أو يتغيُر .. وقلْنـا أن المقام الأكمـلْ هـو الظـاهِرُ المـتمكِنُ الثابـتُ .. سـواءٌ كـان باطِنُـهُ مُتَلَوِّنـًا .. أو ثابتًا ...

وقلنا سابقاً أن هذه الأمور لاتدرك بالعقل والمنطق الماديين .. ، بل لابد من القلب ، والمذاق ، والإحساس ، وعلى سبيل المِثَال .. : نحنُ نَعْلَمُ أنَّ اللّـه تعالى واحدٌ أحدٌ لاشريكَ لهُ ...

هذا أمر إيمانيٌ بَدَهِيٌ يُفْهَمُ مِنَ الوهْلَةِ الأُولى .. والعقل يقول لو كـان فى السماء أو الأرض آلهـةٌ أخرى لاختلفوا .. ولَعَلَى بعضهم على بعضهم .. تعالى اللّـه عما نقول عُلُوًّا كبيرًا

ولكنك لو استغرقت فى معنى " الفَرْدانـيَّة " هـذه .. ونظرت إلى المخلوق البشرى .. وكيف أنَّه لابُدَّ لَهُ مِنْ شَرِيكٍ يؤانسهُ فى وحدته .. فإن الوحدة له قاتلة .. ، وقد يحارُ فى أمر فيحتاج إلى من يستشيره .. ويستهديه .... ، وقد يكلُّ ويتعبُ .. فيحتاج إلى بعض الراحة ... ، وقد تعتلُّ صِحَّتُهُ .. فيحتاج إلى استشفاءٍ وعلاجٍ .... ، وقد يخطئ فى بعض

أحكامه فَيَحْتَاجُ إلى مُرَاجَعَتِهِ أو النُّكُوصِ فى الرأى .. وقد ينشقُّ عليه بعض أتباعه فيحتاج لمن يحسم أمورهم !!!

وانظر إلى ملوك الأرض وما يعانون فى تدبير ملكهم .. على صغره .. وهم لايملكون جزءاً من ألف ألف الف جزء من ملك اللّه تعالى ... بل إن اللّه تعالى مالك الرقاب ، والحياة ، والموت ، والأرزاق، من الافلاك إلى البحار إلى كافةِ المخلوقات...

فانظر .. وتذوق ... واشعر ... وعظِّمْ .. وقَدِّسْ .. وسَبِّحْ ذا الجلال والإكرام ... الواحد الأحد الفرد الصمد .. الذى ليس بغائبٍ فينتظره أحد ، ولا بغافلٍ فيُذَكِّرَهُ أحدٌ .. ولابنائمٍ فيوقظهُ أحدٌ .. ولايعلمُ ما هو إلا هو .. ولا يعلمُ كيف هو إلا هو .. ولاشريك لهُ .. ولامعقبَ لِحُكْمِهِ .. جَلَّ جَلالُ اللّه .

نعود فنقول أن المستغرِقَ فى بعض تجلِّيَّاتِ صفاتِ اللّه تعالى .. لابد وان يكون له حظٌ - صَغُرَ أو كَبرَ - منْ أنْوارِ هذهِ الصفةِ .. فتتأثَّرَ بها رُوحُهُ ونَفْسُهُ .. ورُبَّمَا جَسُدُهُ كذلكَ كما أسلفنا .. وتأمل فى دقيقةٍ قرآنيةٍ ....

" مَرْيَمُ العذراءُ " عليها السلام .. المؤمنة العابدة القانتة ... جاءها جبريل الأمين فى محرابها ، وتمثَّلَ لها بشراً سوياً ، وبشَّرَها بعيسى .. ونفخ اللّه تعالى فيها من روحه .. ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ

وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[1] .

وخلق اللـه تعالى " سيدَنا عيسى " من هذه النفخة الروحية القدسية وبشريَّة "مريم بنت عمران " .. وبلا والد ... فغلبَت على طبيعتة البشرية قوتُهُ الروحيةُ .. لذلك كان يحيي الموتى بالنفْخ منه ، فينتقل سرُّ روحانيته إلى الميت فيحيا ... وإلى الأكمه فيبرأ .. بإذن اللـه تعالى وبقوّتِهِ جَلَّ شأنه ... وبما وضع في عيسى عليه السلام من هذه الروح .

ومنَ المعروف أن السيد المسيح عليه السلام كان يتغير شكل وجهه عند القيام بهذه المعجزة ، حتى أن الحاضرين كانوا لا يستطيعون النظر إليه رهبةً ومهابةً ، وحتى كانوا يتساءلون من هذا ، وكيف تغيَّر وجهُهُ .!! ومن هنا نبتت فكرة ألوهيتهِ عندهم بعد ذلك بفترة زمنية تحليلاً لتلك الظاهرة وغيرها ....

فإن قلت أن " آدم عليه السلام " قد نفخ اللّه فيه من روحه ، ولم يكن يحي الموتى ، فإنَّ اللّه قد خصَّ سيدنا عيسى بهذه الخاصيَّة لتكون معجزة له مع قومِهِ ، وقد خصَّ كثيراً من الأنبياءِ بما يناسبُ أقوامهم وأزمِنَتَهُم ، وقد ألان اللّه لسيدنا " داود " الحديد و علَّمَ سيدنا " سليمان " لغة الطير والحيوان .... وما أذن اللّه تعالى لآدم أن يحيي الموتى ، ولكنه أذن لعيسى ، فمثَلُ عيسى عند اللّه كَمَثَلِ آدم .. كلاهما بلا والدٍ ، بل خلقاً بالقدرة الإلاهية والأمر .. وكلاهما عبدٌ للّه تعالى .. ولا ينسبُ المسيح بالبُنُوَّةِ إلى اللّه تعالى ، كما لا ينسبُ آدمُ

(1) سورة التحريم آية : ١٢.

بالبُنُوَّةِ إليهِ تعالى ... لذلك يقولُ القرآنُ الكريم على لسان السيد المسيح ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]

فالفِعلُ " لِعيسى عليهِ السّلام " .. والإذْنُ والأمر من اللّه تعالى .

وهذا مَثَلٌ نسوقه لتقريب المعنى إلى الذّهْن .. ، وأرجو ألا يُساءَ فهمه .. ، فكل ما أردنا قوله هو أن اللّه تعالى اذا أكرم عبدا ببعض تجلّيّاتِ صفة من صفاته .. ، فإن هذه التجلّيَّات لامانع من أن تظهر على العبد فى حالات خاصة ، كما يريد اللّه تعالى ... ، ولكن العبد يظل عبدًا لاحول له ولاقوة .. ، إلا بأمر اللّه تعالى ، فافهم وتدبَّر رحمك اللّه وايانا ....

وقلنا أن الروح إذا نشطت وقويت أمدَّتْ النَّفْسَ ببعضِ قواها وغيَّرَت فى طبائعِهَا ... حتى يصبح العبدُ ربانيًّا صِرْفًا ... وارجع إلى الحديث القدسي الذى سبق ذكره ، و الذى يقول أن اللّه اذا أحبَّ عبداً كان عينه التى يبصر بها .. ورجله التى يمشى بها ... الخ .

وكذلك الأحاديث النبوية التى ذَكَرَتْ أنَّهُ رُبَّ أشعثَ أغبرَ .. مدفوعٍ عن الأبوابِ لو أقسم على اللّه لأبرَّهُ ..

فهؤلاء ومن مثلهم فى هذه المقامات العالية .. لهم ما يشاؤن عند

---

(1) سورة آل عمران آية : ٤٩.

ربهم .. لايخزيهم اللّه تعالى .. ولايَرُدُّ لهم دعاءً ولارجاءً .. بل إن اللّه تعالى يدافعُ عنْهم .. ورُبَّمَا دون أن يدروا .. فمن آذى وليًّا للّه تعالى .. كان اللّه خَصْمَهُ .. وكان اللّه هوَ المدافع عنْهُ .. بنصِّ الحديث القدسيِّ ...

صحيحٌ أن هذه الدرجة لايدركها إلا من صار ربانياً صِرْفًا ، .. وروحانياً خالِصاً ، ليس فيه مجالٌ لهوى النَّفْسِ .. ولامدخلٌ من مداخل إبليس ... ولكنها يدركها بعضُ عِبادِ اللّه تعالى المخلَصِين ...

وقوى النفس المدرِكة من باطنٍ هى التى تبسط الروح عليها قُوَّتها وأنوارها .. فالوهم ، والخيال ، والتخيل ، والتفكُّرُ والتذكُّرُ .. كل هذه القوى تنير بنور الروح .. وتقوى بقواها ..

والهِمَّةُ ... مِن قوى النفس .. فهى اليقين .. وقوة العزْم ... والإصرار الباطنىُّ ... كلها من قوى النفس الباطنة .. والتى هى محل التلوين والتمكين ايضا ....

وقد تصل هذه القوة إلى درجة يُسَمُّونَها " التكوين" ... وهى أن النفس الكاملة المنيرة بنور اللّه تعالى .. إذا توجهت بهِمَّتِهَا وعزمها واصرارها على فِعلِ شيئٍ .. فإنَّ هذا الشئ يحدثُ بأمر اللّه تعالى .. واكراما لهذه النفس المنيرة والروح العالية ...

وهذا يا أخى يفسِّرُ لك دعوة رسول اللّه ﷺ المؤمنين إلى تغيير المنكرات بقلوبهم ... أى بقوة توَجُّهِ قلوبهم وأرواحهم وهمتهم إلى هذا المنْكَرِ فيتغير بفضلِ اللّه تعالى ....

ولاحظ أن قول رسول اللّه ﷺ فيه أمرٌ بالتغيير .. حيث يقول " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ " ... ولم يقل فليعترض عليه .. أو يستنكره وكفى... بل أَمَرَ بالتغيير لمن عنده القدرة على التغيير ... باليدِ .. أو اللسانِ ... أو القلبِ .... فافهم يا أَخِي ...

وفِي هذا المقامِ إشارة خفيةٌ أخرى .... فرسولُ اللّه ﷺ يقولُ أن من همَّ بحسنةٍ ولم يفعلها ... كُتِبت له حسنةً .. ، فإن فعلها كُتِبت له عشراً ... ، فالأولُ هَمَّ بالفعلِ وعزم عليهِ ، ولكن حبسه حابسٌ ، فلم يخرج الفعلُ إلى دنيا الأفعالِ وعالمِ المُلكِ ... ولكن اللّه يعطيهِ ثواب ما نواهُ صادقًا ... والأجرُ والثَّوابُ لا يكونُ إلا على فِعلٍ مفعولٍ ، فلا بُدَّ أن تكون هذه النيةُ وهذا العزم قد نشأ عنهما فِعلٌ حقيقيٌ ، ولكن ليس فى عالم الدنيا وترابيتها ولكن فى عوالم غيبية ، كالعوالم التى ذكرناها سابقا .. ، ويُنسبُ الفعلُ إلى صاحبهِ.. ويثاب عليهِ ... وليس ثوابه كثوابِ الفعلِ الظاهِرِ للناسِ ، الذى فيهِ حركةٌ ، وعملُ جسدٍ ، ولذلِك كان أجرُهُ بالمِثلِ ولا يُضاعف ....

وهذا مثلٌ لأفعالِ القُلُوبِ ونوعٌ منها .....

ولاتظن أن أصحاب التمكين هؤلاء يسيرون فى دنياهم على هواهم وحسبما يُحِبُّونَ ... فإِنَّهُ لايَصِلُ إلى هذهِ الدرجَةِ إلاَّ من باع نفسه للّه تعالى وصار ربانِيًّا صِرْفًا .. وعبداً خالِصًا ... فلا يريد إلا ما أراد اللّه .. ولايفعل إلا ما أمرَ اللّه ...

ولاتخلط بين هؤلاء .. وبين أهلِ الوحى من الأنبياء ... فأهلُ

الوحى لهم شأن خاص ، وأسلوبٌ خاصٌ فى وصولِ الوحى إليهم .. ، ولكن هؤلاء أقل من هذا المقام .. فهم ليسوا بالأنبياء ولا بالرسلِ ... وللّه فى خلْقِهِ شئون ...

وتأمل هذه الحادثة ....

تخلف سيدنا " أبو ذر الغفارى " فى المدينة المنورة عن غزوة " تبوك " التى كان فيها رسول اللّه ﷺ ، وفى كل مرحلة كان الرسول يسأل عنه أصحابَه ، فيخبرونه أنه قد تخلَّفَ فى المدينة ... وفى عصر يومٍ رأى القوم غُباراً لم يلحق بهم من بعيد ، فأبلغوا رسول اللّه ﷺ فالتفت إلى الغبار وقال ﷺ " كن أبا ذرٍّ " ....

فلما اقترب الغبار منهم ، انقشع عن سيدنا " أبى ذَرٍّ " رَضِيَ اللّه عنه ...

ونحن نذكر هذه الحادثة لمجرد أن رسول ﷺ قد نطق بهذا اللفظ " كن "... ، ولم نتعرض لأكثر من هذا ....

والشيئُ بالشيئِ يُذْكَرُ .. فَإِنَّ " صاحب سليمان " عليه السلام قد أحضر إليْهِ عَرْشَ مَلِكَةِ سبأ فى أقل من غمضة عين .. هى لحظة .. أو كما نقول جزء من أجزاء الثانية العصرية عندنا ..

ونحن لانعلم كيف أحضره !!! هل نقله من مكانه !! وكم كانت سرعة النقل والانتقال !! هل قَسَّمَهُ إلى أجزاء !! ثم أعاد جمعه .. فى لحظة !! هل نقله بسرعة الضوء بعد أن جعله ذرات ثم أعاد تكوينه !!! هل أعدم العرش الأول فى مكانه .. وأنشأ بقدرة اللّه تعالى عرشاً مثله

عند سيدنا سليمان !!! ولم لا ... كل هذا جائزٌ واللّه تعالى أعلم .

يقول تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾[1].

واللّه سبْحانَهُ وتعالى قادرٌ ... وينشئك نشأً جديداً .. فيما لاتعلم من العوالم... ولامانع من أن ينشئك فى عالم من عوالم الغيب .. ويجعل لك أكثر من صورة ...

ألم تتعرض من قبل لحديث الاسراء والمعراج وكيف أن " جبريل " قد أتى ببيت المقدس إلى حيثُ كان الرسول ﷺ فى حِجْرِ إسماعيلَ بمكة .. وظلّ الرسول ينظر إليه ، ويصفه للمشركين من قريش ..!!!. أليس هذا إنشاءً من اللّه تعالى لصورة من بيت المقدس ، صوَّرَهَا جَلَّ شأنه مع سيدنا " جبريل " ، ورآها رسول اللّه عليه الصلاة والسلام !!! .

وهل تظن أن قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ ﴾[2]، أنَّ الأمْرَ مرتبط بالكاف والنون !!، إنَّمَا اللّه تَعَالى مُنَزَّهٌ جَلَّ شَأْنُهُ عنْ النطق بالحُرُوفِ ... فالنطق بالحروف

---

(١) سورة الواقعة آية : ٦٠-٦١ . (٢) سورة يس آية : ٨٢ .

يستلزم لساناً وشفتين .. ونَفَسًا .. وحنجرة ... إلخ ... واللّه تعالى منزَّهٌ عنْ كُلِّ هذا ...

إنَّمَا المقصود حيثُ وكيفمَا توجَّهَتْ المَشِيئَةُ الإلاهية .. كان الأمر الإلاهى .. وكان الخلق .. وكان الإيجاد .. وكذلك كان العدم ....

فالأمر كله مشيئة وإرادة وقدرة ... ، ويقابلها من البشر هِمَّةٌ .. ، وعزم ... وفعل.... ، وجَلَّ اللّه تعالى عمَّا نقولُ وعلا علوًا كبيراً ....

ويسوقنا الكلام إلى القضاء والقَدَر .... فنقول فى أبسط تعبير ممكن :

إن القضاء هو ما قضى اللّه تعالى به ، فى علمهِ القديم قبل خلق السموات والأرض .... ، والقدر .. ، هو ظهور هذا القضاءِ ، حسبما أراد اللّه تعالى ، حيث تُنَظِّمُ قدرته جَلَّ شأنه الأمور بعضها على بعض ....

يقول ﷺ " **قَدَّرَ اللّهُ المَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِيَن بِخَمْسِينَ أَلفِ سَنَةٍ** " حديث صحيح ، رواه أحمد والترمذى عن " ابن عمرو " ..

ويقول ﷺ " **إذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا** " حديث صحيح ، رواه الطبرانى وهو عن " ابن عمر " وكذلك عن " ابن مسعود " رَضِيَ اللّه عنهما .

ولذلك نمسك عن الكلام فى هذا الأمر إمتثالا لأمره ﷺ .. ولكننا أردنا فقط أن نفرق بين القضاء .. والقدر ...

وما ذكرناهما إلا لأننا نرى كثيراً من الخلق قد انشغلوا بهما .. وكل قد أدلى بدلوه عن علمٍ أو جهل .. بينما في العصر الذي نحن فيه... وما انكشفت فيه من الحقائق الكونية والعلمية ، فإنَّ هذه الحقائق قد تساعد كثيراً ، على شرح كثير من المعاني ، التي كان السلف لا يطرقونها .. ، واذا طرقوها فإنَّمَا كان ذلك على قدر علمهم آنذاك ... فاذا كانت عقول البشر اليوم غير تفكيرها ومنطقها منذ قرون ، فجاز لنا أن نتناول هذه القضايا ، بما يناسب العقول الحاضرة ، في حدود ما قال اللّـه تعالى ، وما قال رسوله ﷺ .. ، وألاّ نَتَجَاوَزَ حُدُودَ الأَدَبِ في عرضِنَا لِهَـذِهِ الأُمُورِ بَلْ يَكُونُ الالْتِزامُ ظَاهِراً بَاطِنًا بِأَوامِرِ اللّـه تعالى وسُنَّةِ رسُولِهِ ﷺ..

وليست حُجَّةً علينا .. ، ولاحَتَّى لنَا ، من يقول أن السَّمَواتِ السَّبْعِ هي الكواكب السيارة السَّبْعُ !! ، كما ورد في بعض التفاسير المحدثة منذ قرنٍ تقريبا عندما اكتشف العلماء الكواكب السيارة السبع . !!

وليس لنا أن نلتزم بقول القائلين بأن الأرض يحملها ثورٌ على قرنه!! والثور على ظهر حوت سابح في الماء !!! ولا أن نهاية مايرى بصرك على شط البحر هو انطباق السماء على الأرض !!! وأمثال هذه الشروح والتفسيرات التي كانت على قدر عقولهم وأفهامهم حينذاك ... منذ عدة قرون ....

وما أوقعهم في هذه المحظورات .. إلا أنهم قد حَجّروا عِلْمَ اللّـه تعالى وقدرته على قدر عقولهم هم .. وعلى قدر ما تطيق أفهامُهم ..

فاختلطت الأمور عليهم .... وما كان أولاًهم ألاّ يدخلوا فيما لايدركونه يقيناً .. حتى لايسيئوا من حيث يظنون أنهم يحسنون .. واللّـه تعالى يجزيهم على قدر نياتهم وعقولهم ....

وهذه النقطة تسوقنا إلى أمرٍ فى غاية الأهمية ... وذلك هو ...

وفى أبسط تعريفٍ يمكن أن يُقال .. هو أنَّ النَّبِىَّ مَنْ نُبِّئَ مِنَ السماء ... هو صاحب وحىٍ مِنَ اللَّه تعالى إِلَيْهِ .. وعلمٍ خاصٍ لديْهِ باللَّه تَعَالَى .... فهو قدْ نُبِّئَ فى نفسه .... ثم إِنّ مِنْهُمْ منْ هُوَ نَبىٌّ وصاحب تشريعٍ جديدٍ له ... ومنهم منْ هو تابعٌ لرسولٍ معه أو سابق عنه ... "فهارون " نبىٌّ ... تابعٌ " لموسى " وشريعته ... وأنبياءُ بنى إسرائيلَ لم يكونوا أصحابَ تشريعٍ ، وكان " لوط " نبياً ورسولاً ، وفى زمن إبراهيم وهو أيضا نبىٌ ورسول .. صلى اللَّه عليهم أجمعين..

هذا هو النبىُّ .. من نُبِّئَ فى نفسه من السَّماء وهو إمَّا تابعٌ وإما صاحب تشريعٍ .. وهذا التشريعُ قد يكون لِنَفْسِه فقط .. وقد يكون لنفرٍ قليلٍ حولَهُ فقط ....

والرسول .. هو نبىٌّ وصاحبُ رسالةٍ من السماء إلى قومِهِ ...

لذلك فإن كل رسول نبىٌّ ... وليس كل نبىٍ رسولا ....

والنبىُّ فى حد ذاته ، لابد وأن تكون له مقومات خاصة به .... ، وعلمٌ خاصٌ من اللَّه وباللَّه لديْهِ ... فإنَّهُ يُنَبَّأُ مِنْ السَّمَاءِ ويأتيهِ الوحْىُ مِنْ اللَّه .. وهو من صفوة خلقِ اللَّه تعالى الذين أصطفاهم وطهَّرَهُمْ .. وجهَّزَهُم لهذا الأمر .. فلابد وأن يكون على علمٍ باللَّه تعالى ومعرفةٍ تفوق حدَّ البَشَرِ .. وأَنْ تكونَ روحه نبويَّةً .. ونفسه نبويَّةً .. وجسدُهُ معصوماً كذلك ....

ثم تأتى الرسالة من السماءِ ليقوم الرسولُ بإبلاغها إلى قومه ... أوامرٌ .. ، ونواهٍ .... وإجمالٌ ، وتفصيلٌ ، وشرحٌ ، وإيضاحٌ ، وتخويفٌ ، وترغيبٌ .. ، وكل ما يريد اللّه تعالى أن يَعْلَمَ بِهِ خَلْقُهُ ....

والنبىُّ الرَّسُول .. مكلّفٌ بابلاغ هذه الرسالة إلى قومه بالضرورة .... ولكنه غير مكلف بإيضاح ، أو توصيل ، أو شرح معالم نبوته، أو عِلْمِهِ هو الخاصُّ باللّه تَعَالَى... وما أفاضَ اللّه عليْهِ مِنْ تجلّيّاتٍ خاصةٍ اقتضتها نبوَّتُهُ .... لأن النُّبُوَّةَ خاصَّةٌ بِهِ مِنَ اللّه لِنَفْسِهِ ... والرسالةُ هِيَ مِنَ اللّه إِلَى قَوْمِهِ .. فهى حَقُّهُمْ فى المعرفةِ ، وزادُهُمْ للعِبَادَةِ ، ووسيلتهم للدُّخولِ إلى مرضاةِ اللّه تعالى ورضوانه ....

لذلك يقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1]

ويقول : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]

والأمر هنا واضح وصريح .. فالرسالة مِن اللّه تعالى بالأوامر والنواهى وغيرهما هى من اللّه إلى الرسول .. الى الخلْقِ .. وَعَلَى الرَّسُولِ أنْ يُبْلِغَهَا ...

أمّا ما سِوى ذلك .. فهذا له شأنٌ آخر .. فعِلْمُهُ باللّه تعالى .. وأسرارُ اللّه تعالى لديه ، وأنوارهُ فيه ، فهذا بينه وبين ربه .. وهو ليس

(١) سورة المائدة آية : ٦٧ . (٢) سورة النحل آية : ٤٤.

مكلفاً .. ، بل لا يجوز لَهُ أنْ يُفْشِيَ سِرًّا بينه ، وبين ربه .. فهذهِ عطايا وهدايا خاصةٌ له من اللّه تعالى ...

وكُلُّ نبيٍّ على قدره .. وكُلُّ رسولٍ على قدرِ رسالته ... ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [1] كما يقول تعالى في كتابهِ العزيز .

وهذا التفضيل لايقتضى التميُّزَ .. ولايصحُّ أن نُفَاضِل بين الرُّسُلِ صلى اللّه عليهم وسلم ، فنحن لانفرِّقُ بين أحدٍ منهم .. ولكن المقصود أن كلاًّ منهم له فضلٌ خاصٌ .. وميزة خاصةٌ ولكن كلهم مَمَيَّزون .. وكلهم مُفَضَّلُونَ عليهم الصلاةُ والسَّلامُ .

لذلك فعندما يقول رسولنا ﷺ " لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَلَمَا سَاغَ لَكُمُ الطَّعَامُ وَلا الشَّرابُ " صحيح ، رواه " أبو ذر " ورواه البخارى عن " أنس "،

ويقول " إنَّ أتْقَاكُمْ وأعْلَمكُم باللّه أنا " وهو صحيح ، رواه البخارى عن " عائشة " رَضِيَ اللّه عنها ،

ويقول ﷺ " إيَّاكُمْ و الوِصَال ، إنَّكُمْ لَسْتُمْ فِى ذَلِكَ مِثْلِى ، إنِّى أَبِيْتُ يُطْعِمُنِى رَبِّى وَيَسْقِينِى ، فَاكْلَفُوا مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ " رواه البخارى ومسلم عن" أبى هريرة " ،

---

[1] سورة البقرة آية : ٢٥٣ .

ويقــول " مَــرَرْتُ لَيْلَــةَ أُسْــرِيَ بِــى بِــالَملإِ الأَعْــلَى ، وجبريـلُ كَـالحِلْسِ البَّـالِى مِـنْ خَـشْيَةِ اللّـه تَعَـالَى " وهـو صـحيح ، رواه الطبرانى عن " جابر " ،

ويقول " مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِى، عَلَى مُوسَى قَائِمًا يُصَلِّى فِى قَبْرِهِ " وهو صحيح ، رواه أحمد ومسلم عن " أنس " ،

ويقول " كُنْتُ نَبِيًّا وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ " وهو صحيح ، رواه الطبرانى عن " إبن عباس "

وكذلك يقول .. " كُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ فِى الخَلْقِ وآخِـرَهُمْ فِى البَعْثِ " وهو صحيح ، رواه ابن سعد عن " قتادة " ..

ويقـول ﷺ قـال جبريـل " قَلبتُ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ رَجُلاً أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ " رواه الحاكم عن " عائشة ".

ومثل هذا كثير ، يبين بعض خصوصيةِ رسول اللّه ﷺ

فاذا ارتأى النبىُّ أن فيمن حوله من أصحابه منْ يُطِيقُ بعض هذه الأسرار .. وبعض هذه التجلِّيَات الخاصةِ مِنَ اللّه تعالى إِليْهِ .. فهو مُخَيَّـرٌ ﷺ فـى أن يخاطـب هـؤلاء صـراحة أوعلانيـة .. أو برمـزٍ فيـه تأويلٌ ....

وهو ﷺ قد أُوتِى جوامع الكلم .. ، ودانت له العربيّة ببلاغتها وفصاحتها .. ، ثم هو قبل كل هذا وبعده ، ما ينطق عن الهوى .

فإن أسَرَّ رسولُ اللّه ﷺ إلى سيدنا " حذيفة بن اليَمَانِ " بِسِرِّ النِّفَاقِ ، بل وبأسماء المنافقين .. واختصه بها .. فذلك من حكمته ﷺ التى لاندركها ، حتى أن سيدنا "عمر بن الخطاب " عليه رضوان اللّه تعالى ، كان لايصلى على جنازةٍ بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الاعلى إلا اذا حضرها " حذيفة بن اليمان " .. حتى يتأكد أن الميت ليس من المنافقين ، وكان يقسم رَضِىَ اللّه عنه على "حذيفة " ويسأله باكياً إن كان رسول اللّه ﷺ قد ذكر له اسم " عمر " فى المنافقين !!!

اللّه اللّه عليك يابن الخطاب ... اللّه اللّه عليك وعلى أصحابك ، وأقرانك ، ومن حضرك من صحابة رسول اللّه ، خير خلق اللّه ، وخير القرون ، وخير أدب مع اللّه ورسوله، رَضِىَ اللّه تعالى عنهم جميعا ونحن معهم فضلا من اللّه وكرما ....

واذا كان رسول اللّه ﷺ قد ذكر فى أحاديثه الشريفة أن الصلاة فى المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاةٍ فى غيره ، وأن الصلاة فى مسجده بالمدينة المنورةِ تعدل ألف صلاةٍ فى غيره ... كما أن الصلاة فى المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فى غيره ، كما ذكره الرواة جميعا عن " ابى هريرة " وعن " جابر " وغيرهما .... وفى روايةٍ أنْ الصلاةَ فى المسجد النبوى بخمسينَ ألفِ صلاةٍ .

واذا كان ﷺ يقول عن مسجد قباء " الصَّلاةُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ " وهو صحيح ، رواه مسلم والنسائى وغيرهم ، فَإن لِى هنا وقفة يجب أن يقِفَها مَعِىَ كُلُّ قارئٍ ....

فظاهر الحديثين يدعو الناس إلى المسجد الحرام ... وإلى مسجد قباء .!!!! ومَنْ مِنَ النَّاسِ يَسْتَبْدِلُ مائة ألفِ صلاةٍ فى المسجِدِ الحرامِ بألفِ صَلاةٍ فى المسجد النبوى !!! لاشك أن كل من يريد أن يستكثر من الثواب والدرجات ، فعليهِ بالصلاةِ فى المسجد الحرامِ ، إن كان مُخَيَّراً بين المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف المبارك ... هذه واحدةٌ ....

والثانيةُ مَنْ يكون فى المدينة المنورة ... ويعلم فضل صلاة ركعتين فى مسجد قُباء .. هل يتركهما أو يتهاون فيهما .... أم يواظب عليها ويحرص كُلَّ الحِرصِ على أدائهما !!!

ويسكتُ رسولُ اللَّه ﷺ ... أدباً مع اللَّه تعالى .. وتعظيمًا لشعائرِ اللَّه . !! ولم يقل ﷺ ما هُوَ ثوابُ مَنْ يصلى ركعتين فى مسجده الشريف الذِى ضم جسده الطاهر المُطَهَّرَ .. أحبُّ خَلْقِ اللَّه إلى اللَّه وأكرمُهُمْ على اللَّه ...

فإذا صلينا فى مسجد قُباء كان لنا أجرُ عمرةٍ ... واذا صلينا فى مسجده الشريف !!! ماذا يكون لنا !!! وإذا ما كُنْتَ حاجًا لِبَيْتِ اللَّه الحَرامِ والصلاةُ فِيهِ والحسناتُ بمائة ألف ... فَلِمَ أذهب إلى المدينة

لأُصَلِّيَ في المسجد النبوِيِّ وأجرِي فيه على النصف أو أقل من أجرِي بالمسجد الحرام !!!

لابُدَّ وأنَّ في الأمرِ سِراً !!!

ولا أفهم منه إلاَّ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ بأدبه العظيم العالي .. وتواضعه الذي ليس بعده تواضعٌ .. يدعوك برقةٍ ورحمةٍ إلى زيارته هُوَ بالمدينة المنورة .. ولا يَكُنْ قصدُكَ زيارةَ مَسْجِدِهِ .. كما فَهِمَ الكثيرون ....

فالصلاة في مَسْجِدِهِ على نصف أجرِ الصلاةِ بالمسجد الحرام .... أما بنية قصد زيارتهِ ﷺ والتَشَرُّفِ بالسلامِ عليه .. فذاك أمرٌ آخر .. أهلاً بِكَ ضَيْفًا علينا ... والضيفُ مُكْرَمٌ .. ونحن نُهَادِيكَ ونُهْدِيكَ مِنْ عِنْدِنا بِمَا لاتَعْرِفُ ولا تُقَدِّرُ ولا تَحْتَسِبُ ...

وإنْ شِئْتَ الثَّوابَ والأجرَ المعدودَ المعلومَ .. فَبِجِوارِكَ مسجد قُباء ، الصلاةُ فِيهِ بِعُمْرَةٍ .... فَمَا حرَمْنَاكَ مِنْ ثَوابِ عُمْرَةِ البَيْت الحَرامِ ... فإنْ قصدْتَهَا فَهِي عِنْدَنَا ... بخلافِ ترحيبنا بك ... وهدايانا لك ....

ويترك رسول اللَّه ﷺ هذا الأمر .. لايوضِّحُهُ الوضوحَ الكافي .. ولكن يتركهُ لِمَنْ يُحِبُّهُ ﷺ أن يستجليه .. ويشعر به بروحه وقلبه ...

ويُعَظِّمُ ﷺ شعائر اللَّه تعالى .. المسجد الحرام وما فيه .. و مسجد قُباء ...

ومِنْ أَخْذِ الحديثِ على ظَاهِرِهِ ... مَنَعَ الناس من زيارةِ رسول

اللّـه ﷺ بدعوى أنَّ الصلاةَ في المسجدِ الحرامِ لا تعدِلُهَا صلاةٌ في مسجدٍ آخرَ ... بلْ وجعلوا زيارةَ المدينةِ المنورةِ ، إنما هي بنيةِ الصلاةِ في مسجده الشريف فقط !! وليست بنية زيارته ﷺ ...

بلْ مِنْهُم من تمادى في جَهْلِهِ فمنع النساءَ من زيارةِ الروضة الشريفة بدعوى أن الرسول ﷺ لعنَ زائراتِ القُبُور !!! أعاذنا اللّـه تعالى منهم ومن شرِّهِم وجهلهم ...

لفتةٌ بسيطةٌ أردنا أن نعرضها لك .. لتعيد النظر في أحاديث رسول اللّـه ﷺ وما تحتويه من دقائق ومعانٍ قد تخفى على الكثيرين ..

يقول رسول اللّـه ﷺ : " **مَنْ زَارَنِي بِالمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا وشَفِيعًا يَومَ القِيَامَةِ** " ، وهو حديث حسن ، رواه البيهقي عن " أنس " رَضِيَ اللّـه عنه .

والعجيب أن قول رسول اللّـه ﷺ : " **مَنْ زارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي** " والذى رواه ابن عدى في الكامل وكذلك البيهقي في شعب الايمان عن " أنس " رَضِيَ اللّـه عنه ، قد عدَّهُ العلماء في الأحاديث الضعيفة ...

وهذا موضوعٌ سوف نطرُقه فيما بعد بإذْنِ اللّـه تعالى..

فإذا عُدْنا إلى كلامِنا عن الرِّسَالةِ والنُّبُوَّةِ... فإنَّما نعُود لنؤكِّدَ أنَّ كُلَّ ما أُمِرَ به رسول اللّـه ﷺ أن يبلغه لأمتهِ .. فقد أبلغهُ .. ، وتركنا على المَحجَّة البيضاء .. ليلُها كنهارِها .. لايزيغُ

عنهَا إلاَّ هالك .. ونحن على ذلك من الشاهدين... فجزى اللّه عنا رسوله خيرَ ما جازى نبيًّا عن أمته ..

أمَّا مَا فى رسول اللّه ﷺ من أنوار النبوةِ .. وأسرارِ اللّه تعالى .. فهذا أمرٌ آخر .. خاصٌ برسولِ اللّه ﷺ .. فإن أشار إليهِ .. أو تحدث عنه .. أو اختصَّ به أحداً دونَ غيْرِهِ .. فهذا لا يقدحُ أبداً فى أداءِ رسالتهِ على الوجهِ الأكملِ ...

وأرجو ألا يظن الناس أن كل ما عند رسول اللّه ﷺ من عِلمٍ قد أبلغه للعامة أو للخاصة ، فهذا أمرٌ غير واردٍ ، لا شرعًا ولا بداهةً كما عرضنا له....

وقد خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ و الرِّسَالةُ بمبعثه ﷺ ... فلا رسول بعده ، ولا نبيَّ بعده كما قال ﷺ فى الأحاديث التى أوردناها من قبل .. فهو ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ....

غير أنى أحب أن أشير إلى أمرٍ هامٍ فى هذه القضية ....

ذلك أن الرسالة لها بداية ولها نهاية .... فبنزول الوحى على رسول اللّه ﷺ بدأت الرسالة .. وبانتهاءِ نزول الوحى عليه ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الاعلى تمت الرسالة .. وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [1] ...

---

(١) سورة المائدة آية : ٣ .

كَمُلَ الدِّينُ .. وتَمَّتْ النِّعْمَةُ ... وبُـلِّغَت الرِّسَالَةُ .. وانقطع وحيُّ السماءِ عن الأرضِ ، ورَضِيَ اللّـه تعالى الإسلام ديناً لايزيد ولاينقص ولايتبدل حتى يَرِث اللّه الإرض ومن عليها ....

فزمن قيامه ﷺ بأداء رِسالته محددٌ ببدايةٍ ونهايةٍ .. وإن كانت الرسالة نفسها باقيةٌ إلى يوم الدين ...

أما زمن النُّبُوَّةِ.. فأمرٌ مُختلف ...

والحديث الذى ذكرناه منذ قليل وهو قول الرسول ﷺ " **كُنْتُ نَبِيًّا وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ** " وكذلك قوله " **كُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ فِى الخَلْقِ وآخِرَهُمْ فِى البَعْثِ** "وهما صحيحان كما ذكرنا ، يدلان دلالة واضحة على أن بداية النُّبُوَّة كانت قبل خلق سيدنا آدم عليه السلام ... وما كان قبل خلق آدم إلاَّ الأرواح ....

فإن قلنا أن اللّه تعالى قد جعل النُبُوَّةِ فى روح رسول اللّه ﷺ منذ خلقها .. فما نكون قد تجاوزنا حدًّنا ...

وقد أخذ اللّه تعالى كُلَّ أرواحِ بنى آدم ، وأشهدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم ألستُ بِرَبِّكُمْ .. فقالوا بلى .. وماكانت أجسادهم قد خُلِقَتْ بعد .. بلْ إنَّ الأجسادَ مازالت تُخْلَقْ الآن وبعد الآن ، كلٌّ على حسب ما قدَّرَ اللّه لهُ .. وانظُرْ رحِمَكَ اللّه إلى نصِّ الآيةِ الكريمةِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[1] .

وهذا هو يوْمُ العهد ... العهدُ الأول الذى أخذه اللّهُ تعالى على جميع الأرواح ، بالشهادة له سبحانه بالوحدانِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ والرُّبُـوبية ..

فَلَمَّا حَلَّتْ الأرواحُ فى الأجساد بعد ذلك .. ، آمَنَ مَنْ آمَنَ .. وكَفَرَ منْ كَفَرَ .. حيث دخلت الحُجُبُ الظُّلْمانية على الرُّوحِ مِنَ النَّفْسِ، فَحُجِبَتْ هذهِ عنْ تِلْكَ ، وأظلَمَت النَّفْسُ والعِياذُ باللّه .. بعدم سطوع أنوار الرُّوحِ عليها ....

فالارواح كلها مؤمنةٌ باللّه تعالى .. عارفة به منذ ذلك العَهْد ... فلا تعجبْ إنْ قُلْنا أنَّ أنْوَارَ النُّبُوَّةِ قدْ كَسَتْ كذلكَ أرواحَ الأَنْبِيَاءِ مُنْذُ ذلِكَ الحِينْ ... وكَانَتْ أشْرَفَهُمْ وأعلاهُم .. وأرْفَعَهُم هى روح مولانا وسيدنا محمد ﷺ ... بلْ إنَّهَا كانت تُمِدُّ بأنوارها العظيمة أرواحَ الأَنْبِيَاءِ الآخرينَ .. وكانت لَهُمْ بِمَثَابَةِ الوالِدِ المُرَبِّى .. والأَرْواحُ مُنْذُ نَشْأَتِهَا كُلُّها فِى البَرْزَخِ كمَا قُلْنا سابقاً ... درجاتها مُحَدَّدةٌ .. وتروح وتجئُ وتتزاورُ وتتآنسُ ... وتتآلفُ .. وتتناكرُ .. كما قال ﷺ " الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ مِنْها إئْتَلَفَ، ومَا تَنَاكَرَ مِنْها إخْتَلَفَ "

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٢،١٧٣.

حـديث صـحيح ، رواه الخمـسة عـن " عائـشة " وعـن " أبـى هريـرة " وعن " إبن مسعود " ...

كما قـال ﷺ " **إنَّ رُوحَـىْ المُـؤْمِنَيْنِ تَلْتَقِـى عَلَـى مَـسِيَرةِ يَـوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَمَا رَأى واحِدٌ مِنْهُم وَجْهَ صَاحِبِهِ** " رواه البخارى والطبرانـى عـن " ابن عمرو " ...

فالأرواحُ كمَا قُـلنا فـى البـابِ الـسابق لايَحُـدُّهَا زمـانٌ ولامكـانٌ .. وقوانينها ونظامها تختلف عن قـوانين ونظـام عَـالَمِ المُلْـكِ ، الـذِى نَعِيشُ فِيهِ بِأَجْسَامِنَا وَحَوَاسِّنَا ...

إذاً فـلا عَجَـبَ أنْ تَتَـصَدَّرَ رُوحُ سَـيِّدِنَا مُحَمَّـدٍ ﷺ عَـالَمَ الملَكُـوتِ ... ولاعجـب أن تتعـرَّفَ علـى أرواحِ الأَنْبِـيَاءِ جميعـاً .. وَتُعَامِلُهُمْ .. وتتآلَفُ مَعَهُمْ .. وَتُمِدُّهُمْ ... فإذا ما آنَ أوانُ ظهور هذا النبىِّ أو ذاك علـى الأرض بجـسده وروحـهِ معـاً .. فهـو عـارِفٌ بمحمـدٍ ﷺ .. وروحُـهُ تَـسْتَمِدُّ مِـنْ روحِ مُحَمَّدٍ كَمَا كانـت فـى عَـالَمِ الـبرْزَخِ ... وكُلُّهُمْ شَهِدُوا لرسول اللَّـه ﷺ بالنُّبُـوَّةِ والرِّسالةِ ، مِنْ قَبْلِ أنْ يُرْسَلَ ويُبْعَثَ ﷺ إلى الخلْقِ ...

فلمـا أرادَ اللَّـه تعـالى لرسـوله محمـدٍ ﷺ أنْ يظهـر ويُبْعَـثَ فـى الأرض .. واجتمع الرُّوحُ المُحَمَّدِىُّ العظيم مع الجَسَدِ النَّبَـوِىِّ الـشريف واكتملت الصورة الإنسانيةُ فى محمدٍ ﷺ ... حشر اللَّـه له جميعَ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ الـسَّابِقِينَ بِرِسَالاتِهِم .. وكـان هـو إمـامُهُم وسيِّدُهُم فـى بيـت المَقْدِسْ وكانت صلاته بهم جميعاً .... ليكـون هـذا تقريـرا واعترافـاً منهم

بإمامته لهم ...

وانظر كيف أخذ اللّهُ العهد على جميع الأنبياء والمرسلين أن يؤمنوا بمحمدٍ ورِسَالَتِهِ ﷺ وهم سابقون عنه فى بعثاتهم ....

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[1] .

فالدِّينُ عند اللّه هُوَ الإسلامُ ... وهو دينُ محمدٍ ﷺ الذى جاء به ، و " إبراهيم " كان مسلما ... ، و " يعقوب " كان مسلما .. وبنوه كانوا مسلمين .. ، قبل بعثة محمد ﷺ .. ، وانظر الآيات الكريمة التى جاءت بهذا المعنى .. وما أكثرها فى كتاب اللّه تعالى ..

أفلا يدلُّ كُلُّ هذا على أنَّ نُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ كانتْ سابقةً عن بعثة هؤلاء الرسل الكِرام !! يدليلِ أنهُم كانوا يعرِفونهُ و يؤمنون بهِ وهو ﷺ لم يُبْعَث بعد !! وطالما أَنَّهُم مؤمنون بهِ ، فلا بُدَّ أن تكون روحه الشريفة كانت تُمِدُّ جميع الأنبياء والمرسلين منْ قبلِ بعثتهِ ﷺ .. وأَنَّهُم جميعًا كانوا على دينه وإسلامهِ !!!

وتأمل رحمك اللّه وإيانا الدقيقة اللطيفة التالية ....

---

(١) سورة آل عمران آية : ٨١ .

يقول تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (1) .

وكيف يسألُ رسولُ اللَّه محمدٌ ﷺ الرُّسُلَ السّابقين ، وقد أفضوا إلى ربهم ، وانتقلوا إلى الدار الآخرة !!! وهو ما يزال يعيش على الأرض !!!

أليس هذا معناه أن لرسول اللَّه ﷺ مع إخوانه من الأنبياء الرسل السابقين بعثة عنه ..، علاقاتٍ ، وكلامًا ، وحديثًا ، ومعايشةً أيضاً . !!!!

أليست هذهِ علاقة أرواحٍ .. وصِلَةَ أنوارٍ .. وفيها من الأسرار ما قد يدرك وما قد لايدرك . !!!

وما بَشَّرَ اللَّه تعالى بنبيٍّ يأتي لاحقاً لنبيٍّ في حينه .. ، فما بَشَّرَ آدم بنبُوّة نوح .. وما بَشَّرَ نوحًا بنبُوّة ابراهيم .. وما بَشَّرَابراهيم بنبُوّة موسى !!!

ولكن اللَّه تعالى قد بَشَّرَموسى وعيسى بنبُوّة محمدٍ ﷺ .. وبينهما آلاف السنين .. وهل بَشَّرَهُم به إلاَّ ليؤمنوا بهِ .. ويقولوا لا إِلَه إلا اللَّه ، محمدٌ رسول اللَّه ... رغم أنهم سابقون عنه في البعثةِ إلى البشر .

يا أخي العزيز – رحِمَكَ اللَّه وإيانا – نحن لم نتعَسَّفْ في شرحِ آيةٍ .. ، ولمْ نتجاوز المعاني الصريحة للأحاديث .. ، ولم نلجأ إلى رمزٍ ولا

---

(1) سورة الزخرف آية : ٤٥ .

تأويلٍ .. ، بل إنَّنا لمْ نَتَقَيَّدْ بِكَلامِ غَيْرِنَا مِنَ السَّابِقِينَ لِيَكُونَ حُجَّةً لنا أو علينا .. ، بلْ إنَّنا نخاطبك بالمنطق السهلِّ البسيط .. ، والمنطِقِ المُعْتَادِ .. ، وكلُّ أساسِ أقوالنا واستدلالاتنا هيَ آياتُ اللّه تعالى وأحاديثُ رسولهِ ﷺ فى أبْسَطِ وأسهل مفهومٍ لهما .. ، لايخطِئُه المسلم العادىّ .. ، فافتح عقلك وقلبك لكلامنا .. ولاتتقيَّدْ أنْتَ أَيْضًا بِمَا يكونُ قد سبقَ أن قرأتَه ، أو سمعتَه ، وأغلقتَ عليه سمعك وعقلك ، فكل كلامِ خلْقِ اللّه تعالى يؤخذ منه .. ، ويردُّ عليه ... ، إلاَّ كَلام اللّه تعالى ، وأحاديث رسوله ، فما لنا من دليلٍ ولامرشدٍ سِواهُما .. ، وأعوذُ باللّه تعالى من أيَّةِ مخالفةٍ لهما ، أو شططٍ عنهما بقصدٍ أو بغير قصدٍ .. وقانا اللّه وإيَّاكُمْ شَرَّ الزَّلَلِ والبُهْتَان ...

ويجوز لنا أن نقول أنَّ الرِّسَالَةَ السَّمَاوِيَةَ بأنوارها التى تبسُطُهَا على الكون .. ، وتعاليمها ، وأوامرها ، ونواهيها .. إنما هِى من أنوار تجلِّيَّاتِ اسمه تعالى " الظَاهِر " حيث بها يعظِّمُ النَّاسُ شعائر اللّه .. وتظهرُ عبوديَّتُهم لخَالِقِهِمْ جَلَّ شَأْنُهُ ... أما النُّبُوَّةُ وما فيها من أسرارٍ وأنوارٍ باطنيةٍ للنَّبِىِّ فهى منْ أنوارِ تجلِّيَّاتِ اسمه تعالى " البَاطِنْ " ...

واللّه تعالى هو الظاهر والباطن ... ، ولايمكن أن تتعطل صفةٌ من صفات اللّه تعالى فى الكون أبداً ، ولا أن تتعطل جنودها ، وأنوارها ، وأسرارها ...

فأَمَّا استمرارُ الرِّسَالَةِ والأوامرِ الإلاهية ، فلا يمكن أن تخلُوَ الأَرْضُ مِنْ قائمٍ بها ... ولابُدَّ فى كُلِّ عصرٍ و كُلِّ زمنٍ أنْ تجِدَ منْ يأْمُرُ بالمعروف وينهى عن المنكرِ .. ،

وانظر إلى مؤمنِ آلِ فِرْعَونَ ، وكان متخفِّيًا ، ويدعو الناس إلى الايمان باللّه .. ، بلْ إنَّ إمرأةَ فِرْعَونَ فى بيت فِرْعَون نفسه .. كانت مؤمنةً .. وحتى فى أهلِ الفترات .. ، وهو ما بين الرُّسُلِ ومَبْعَثِهِمْ كانت الأرضُ لا تخلو مِنْ داعٍ إلى اللّه تعالى .. وإنْ لمْ يَكُنْ بنبيٍّ ولا رسولٍ ... ،

ويقول تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1].

ويقول ﷺ " لاتَزالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ حَتَى يَأْتِيَهُمْ أمْرُ اللّـه وَهُـمْ ظَـاهِرونَ " وهـو صـحيحٌ ، رواه الـشيخان عـن " المغيرة " ، وروى مثله الحاكم فى مستدركه عن " عمر " .

فهؤلاء الفِئة الظَّاهرة بأمر اللّـه تعالى .. وحتى قيام السّاعة هم حملة لواء الرسالة .. الدّاعون إلى اللّـه تعالى وإلى سُنَّةِ رسوله ﷺ...

يقـول ﷺ " أُمَّتِى أُمَّةٌ مُبَارَكَةٌ لا يُدْرَى أَوَّلُهَا خَيْرٌ أوْ آخِرُهَا " وهو حسن رواه ابن عساكر عن " عمرو بن عثمان " مرسلاً ...

ويقول " لَيُدْرِكَنَّ الدجَّالُ قَوْمًا ، مِثْلَكُمْ أو خَيْرا مِنْكُمْ " وهـو صحيح ، رواه الحاكم فى مستدركه عن " جبير بن نفير" ..

ويقـول ﷺ "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى لا يُقَالَ فِى الأَرْضِ : اللّـه .. اللّـه " وهو صحيح ، رواه أحمد ومسلم والترمذى عن " أنس " ...

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٤ .

هذا أمرُ الرِّسالة ، واستمرارها حتى قيام الساعة ...

والرِّسالةُ يلزمها النُّبُوَّةُ .. فلا رسول بغير نُبُوَّةٍ .. والرِّسالةُ ظاهرةٌ . والنُّبُوَّة باطنةٌ .. والرسول ﷺ ختم الرِّسالةَ وختم النُّبُوَّةَ .. وهو آخر الأنْبِيَاء والمرسلين .. فلا رسولَ بعدهُ ولا نبيَّ بعده ...

فإذا كانت أنوارُ اللّه الظاهرةُ فى الرِّسَالَةِ بِسِرِّ اسمِهِ تعالى الظَّاهِرِ ، مستمرَّةً فى الخلق إلى قِيامِ السَّاعَةِ .. فبالضرورة أن تستمرَّ الأنوار الباطنية للنُّبُوَّةِ كذلك حتى قيامِ السّاعة ...

وإذا كان اللّه تعالى قد قضى أن تنتهى الرِّسالةُ .. ثمَّ تستمر فى صورة الدّاعيَن إلى اللّه بِهَا ، وهم ليسوا رسلاً بل دعاةً بدعوةِ الرّسول ﷺ ..

فكذلك تنتهى النُّبُوَّةُ بمحمدٍ ﷺ .. ولكن تستمر أنوارها أو قُلْ بعضُ أنوارها فى قوم من أتباع محمدٍ ﷺ .. ، وهم ليسوا بأنبياء .. ولكنهم يرِثُونَ بعضاً من أنوار النُّبُوَّةِ .. وهم ما يطلق عليهم مسمى الأَوْلِيَاء...

يقول ﷺ " ذَهَبَتْ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتْ المُبَشِّراتُ " وقد سبق ذكره فى الباب السابق ، وهو صحيح ... وذكر أن الرؤيةَ الصَّادِقةَ جزءٌ من النُّبُوَّةِ ...

ويقول ﷺ " التُّؤَدَةُ و الاقتِصادُ و السّمْتُ الحَسَنُ جُزءٌ مِن أربعةٍ وعِشرينَ جُزْءاً منَ النُّبُوَّةِ " وهو حسنٌ ، رواه الطبرانِيُّ عن " عبد اللّه بن سرجس "

ويقول عليهِ الصلاة والسَّلام "مَنْ قرأ القُرآنَ واسْتَحفَظَهُ فَقدْ استدرج النُّبُوَّةِ بيْنَ جنْبيْه "

وببساطة شديدة نلاحظ أن النُّبُوَّة وإنْ كانت قد خُتِمَتْ بمحمدٍ ﷺ إلاَّ أنْ بَعْضَ أنوارها مازالت سارِيةً فى خَوَاصِّ أُمَّـتِهِ... العلماءِ باللّه تعالى ... الوارثون لنُورِه ﷺ ....

فإنه ﷺ كمَا أمدَّ الأَنْبِيَاءَ بِأنوارِ روحِهِ قبلَ بعثتِهِ .. فإنَّ روحهُ الطَّاهرة مازالت تُمِدُّ الأولياء من أُمَّـتِهِ بالأنوارِ والأسرار بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .. فالرّوح لاتموت ... ولاتتغير .. بل تزدادُ نُوراً ، ومعرفة ، وإيماناً ، وقوةً ..

فهذا ميراثه ﷺ .. يوزع على أتباعه المخلِصين المخلَصين ..

وقد سأل سيدُنا زكريا عَلَيْهِ السَّلامَ رَبَّهُ أنْ يَرْزُقَهُ الوَلَدَ .. لِيَرِثَهُ .. ، ويَرِثَ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وما كان فى آلِ يعقوبَ ولا زَكَرِيَّا إلاَّ النُّبُوَّة ...

وهـؤلاء الخـواصُّ مِنْ أُمَّةِ محمدٍ ﷺ الـذين يُشِعُّ عليهم أنوار نُبُوَّتهِ .. لابُدَّ وأنْ تَصِلَهُمْ بعْضُ الأسرارِ الإلاهية .. والأنوار السامِيَة من روح رسول اللّه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .. وكُلٌّ على قدرهِ ... هم أهل الإحسانِ .. وهم المُقَرَّبُون ..وهم الأَبْرار .. وهم المُتَّقُون ..

وما لنا نُضَيِّقُ على أنفسنا المعنى المراد .. وهو أوسع من ذلك وأعظم.!!!.

ويقــول تعــالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ ﴾[1]

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٥-٤٦ .

ويقول : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

فيصِفُ اللّـه تعالى رسوله فى الآية الأولى بأنَّهُ السِّراجُ المنير ، وفى الآيةِ الثَّانِيَةِ يشير إلى نوره ﷺ ، وإلى الكتابِ المبين الذى هو القرآن ..

كلاهما نُورٌ مِنَ اللّـه ... محمدٌ ﷺ بأنوار نبوته ... والقرآنُ العظِيمُ بأنوارِ رِسَالَتِهِ .. فافهم رحمك اللّـه ...

ويقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾[2].

ويقـول سـبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾[3] .

فرسول اللّـه ﷺ " يؤمن باللّـه ... ويؤمن للمؤمنين " .. أى أن إيمان المؤمنين مستمدٌ من إيمانه ﷺ .. فكلُّ مَنْ يؤمن به رسولاً ونبيًّا ينال حظَّه من إيمانِ روحهِ العظيم التى هىَ الأصْلُ فى الإيمانِ ...

ولتتأكدَ مِنْ هذا المعنى انظُر إلى قوله تَعَالَى أنَّهُ يَرَاهُ ﷺ حِينَ يقومُ الليْلَ عَابِداً .. ذاكِراً للّـه .... هذه واحدةٌ .. والثانية أن اللّـه تعالى أيضاً يراهُ بنورهِ ونور هداهُ متقلبًا فِى كُلِّ ساجدٍ وعابدٍ ...

---

(١) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٢) سورة التوبة آية : ٦١ .
(٣) سورة الشعراء آية : ٢١٧-٢١٩ .

فكُلُّ عابِدٍ وساجِدٍ وراكِعٍ .. ، ما عبد اللّه تعالى .. ، وما سجد له ، وما ركع له ، إلا بسريان نور إيمانِ محمدٍ ﷺ ،من محمد إلى قلبه .. ، إلى جوارحه.. !!!

ومالك تعجب من هذا الإيضاح والرسول ﷺ يقول " إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي فِي ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فِي العُرُوقِ" .. وطبعا لايجرى إبليس إلا بالغواية والشر ...

ويقول تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[1]

ويقول : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[2]

ألا ترى مَعِى أنَّ المِيزَانَ فِى ابْنِ آدمَ لايعْتَدِلُ إلاَّ إذا سَرَى فِيهِ نُورُ الهِدايَةِ أَيْضًا فى الدمِّ والعُرُوقِ . !!! ثم بعد ذلك على القَلْبِ أَنَّ يُصَفِّى ويُنَقِّى ويُطَهِّرَ وَيَفْصِلَ هذا عن ذاك ، ثُمَّ يَخْتَارُ ما يُهَيِّئُهُ اللّه له منْ خَيْرٍ .. أو غَيْرِهِ ... ثُمَّ الجَوارِحُ تُنَفِّذُ الأَوامِرَ . !!

ومن أَوْلَى بمحمدٍ .. ونورِ محمدٍ .. وهَدْى محمدٍ بالسريانِ فى العروق والدِّمَاء ، بالنُّورِ والهُدى ، لِيُواجِهَ إبْلِيس وأعوانه ، فى هذه المعركةِ !!!

ألا يوافق هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾. !! أى يسرى بالهداية فيكم . !!

---

(١) سورة البلد آية : ١٠.

(٢) سورة الشمس : ٧-٨ .

وما قولك .. وماذا تفهم من قول اللّـه تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] .. وما الفرق بين رسول من أنفسكم وبين رسول منكم !!!!.

وكما سبقت الاشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ .... وما المقصود بنحن !!! وأين هو حبل الوريد من القلب والنفس !!!

ومقصود كلامنا كُـلِّه .. ونحن نقوله بحذرٍ شديدٍ .. وحرصٍ أشد .... أنَّ أنوار نُبُوَّةِ رسول اللَّه ﷺ هي السَّارِيةُ بالهدايةِ فِينَا وحتى يوم القيامةِ ... وكلُّ مؤمنٍ يأخُذُ على قدره ، ما بين العامَّة والخاصَّةِ من أمَّتِه عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامْ ... فنورُ رُوحِهِ أَمَدَّتْ الأنْبِيَاءَ السَّابِقِين عَنْهُ بَعْثَةً ورِسَالةً ... ونور روحه هو السَّارى أيضاً بالهدايةِ فينا وفي اللاحقين من بعدهِ ....

فروح رسولُ اللَّه ﷺ .. هي الرُّوحُ الأعظمُ التِي استنارت بنور اللّـه تَعَالَى .. وهِيَ مَهْبطُ أسْرارِ اللّـه .. وكَنْزُ أنوارِ مَعْرِفَتِهِ جَلَّ شَأْنُهُ ... فأمدَّتْ بِأَنْوارِهَا وأسرارِهَا كُلَّ سابقٍ أو لاحقٍ ....

وكانت ذاتُهُ البَشَرِيَّة الشريفة .. هي الذَّاتُ الكامِلَةُ خَلْقًا وخُلُقًا .. وَجَمَالاً وكَمَالاً وجَلالاً ... ومَا فيها للشيطانِ حظٌ ولا نصيبٌ ، حيثُ شَرَحَ اللَّـه صدرهُ .. ، ووضعَ عَنْهُ وِزْرهُ .. ، وأَعْلى لَه قَدْرَهُ ...

---

(١) سورة التوبة آية : ١٢٨.

وعندما الْتَقَتْ الرُّوحُ المُحَمَّدِيَّةُ العَالِيَةُ بالجَسَدِ النَّبوِيّ الشَّريف .. كانَ الكَمَالُ كُلُّه فى الخِلْقَةِ الإنْسَانِيَّةِ ... ، وكانَ مُحَمَّدٌ ﷺ النَّبىَّ الرَّسُول .. ، البشرىّ ، الروحانىّ ، هو الصورة المثلى للإنسان ، والبشرية ، والنبوة ، والرسالة ... ، فاستحق بذلك الخلافة الحقَّةَ عنِ اللّه تعالى فى الكون .. ، بينما خلافةُ غيره ناقصة .. ، وهو سيد ولد آدم .. ، وإمام المرسلين .. ، وأعرَف الخلْق بربِّهِ .. فهو ﷺ العبد ... النبىُّ .. ، الرسول .. الكامل .....

وإذا كُنَّا نحن البشر جميعا ندين لأبينا آدم عليه السلام بأبوّتِهِ لنا جسداً ومادةً وبشريةً .. أفلا ندين لِمُحَمَّدٍ ﷺ بأُبُوَّتِهِ الروحية لنا !!! فإذا كانت روحه ﷺ هى التى تُمِدُّ أرواحنا بالهداية والنُّورِ ، أفَلا يَكُونُ هو الأبُ الروحى للخلْقِ جميعاً ...

وما معنى قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ [1] ... فإذا كان أزواج رسولُ اللّه ﷺ قد صَيَّرَهُنَّ اللّه أُمَّهَاتِنا .. أفلا يكون رسول اللّه ﷺ أبونا ووليُّنا الرُّوحى .

يقول ﷺ " **أنا أوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَمَنْ تُوُفِّى مِنَ المُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا فَعَلَىَّ قَضَاؤُهُ ، ومَنْ تَرَكَ مَالاً فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ** " وهو صحيح ، رواه الخمسة عن " أبى هريرة " (والخمسة هم البخارى ومسلم وأحمد والنسائى وابن ماجة) .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٦ .

أما قوله تعالى فى نفسِ سورة الأحزاب : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

فالآيات هنا تتحدث عن الأبُوَّةِ الماديَّةِ بالمُصَاهَرَةِ والنَّسَبِ ، وتنفى هذه البُنُوَّةَ عن المُتَبَنَّى ، كما هو معروفٌ فى قِصَّةِ سيدنا " زيد " ، حيثُ كانت العرب تعتبر التَّبَنِّىَ مِثْلَ النَّسَبِ ، فتقولُ زيد بن محمدٍ ، وتُحَرِّمُ مِنْهُ مَا يَحْرُمُ مِن النَّسَبِ الحقيقىِّ ، فأراد اللّه تعالى أنْ يُبْطِلَ هَذِهِ العَادةَ الجاهليةَ .. ، ونفى هذا النَّسَبَ المُدَّعَى ، وَقَالَ : ادْعُوهُمْ لأبَائِهِم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّه .. ومَا كَانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ... فهذه قضيةٌ أخرى .. فلا يحتجَّ بها أحدٌ علينا عنْ جهلٍ منه أو لغرضٍ فى نفسه ... فنحن لانتحدث عن بشرية رسول اللّه ﷺ .. ولكننا نتحدث عن نبوته وروحانيته عليه الصلاة والسلام.

وفى هذا القدرِ كِفايةٌ لِمنْ أدركته العِنايَةُ ... وما قُلنا فِى حقِّهِ ﷺ إلا أقلَّ القليل .. وما قُلنا إلاَّ أنَّهُ عبدُ اللّه وَرسولهُ.. ﷺ ...

والأُبُوَّةُ الرُّوحِيَّةُ تستلزم منَّا البِرَّ .. ،والمحبةَ .. ، والتعظيم لجنابه ﷺ ... وفى هذا البر والمحبة والتعظيم سرٌّ كبيرٌ يعود بنفعه علينا ... فإنك على قدر بِرِّكَ بأبيك وحُبِّكَ له وتعظيمك لحضرته واقترابك منه .. يكون استِمْدادُكَ من أسراره وأنواره .. والأرواح لاتجتمع إلاَّ بالمحبَّة .. ولاتسقى بعضها البعض إلا بالتآلف والمودَّة .. وبالتآلف والمودَّة

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٠ .

والاجتماع يحدث بعض التجانس والتشابه وتزداد المحبّة .. فيسْرِى النّور بين الأرواح بالهدى والإيمان .. وكلّما اقتربت روحك من روح رسول اللّـه ﷺ كلما نهلْت من مشرَبِهِ .. وفزت بنواله وهداياه .. فاستنارت روحك بنور معرفةِ روحِهِ باللّه تعالى .. فاقتربت به ﷺ إلى اللّه تعالى ...

فمحراب الأرواح كلها .. هو روح رسول اللّه ﷺ ، فمنتهى سيْر الأرواح إلى روحه العالية .. ومنها إلى اللّه تعالى ...

تمامًا كما أنّكَ لاتعبد اللّه تعالى إلا بشريعته وسنَّةِ رسوله ﷺ ولاتصِحُّ لك عبادةٌ إلاّ بما جاء به محمد من ربِّهِ .. وبيَّـنَهُ .. وأوضحه لنا .... كذلك لايصِحُّ لَكَ إيمانٌ باللّه تعالى إلاّ إذا ارتبطت روحك بروحه ﷺ وأخذت من إيمانها وأنوارها ....

أو بمعنى أدق .. أن يكون ظاهرك مع ظاهر رسول اللّـه ، وكذلك باطنك مع باطنه ﷺ ...

وما فى روحه عليه الصّلاة والسّلام إلا الإيمان الكامل .. والأنوار الإلاهيةُ ... والأسْرارُ السّماوية .

يقول ﷺ " خرجت من باب الجنة ، فأتيت الميزان ، فوُضِعْتُ فِى كَفّةٍ وأمتى فى كَفّة ، فرَجَحْتُ بالأمّةِ، ثم وُضِعَ ابو بكر مكانى فرَجَحَ بالأمّةِ، ثم وُضِع عُمر مكان أبى بكرٍ فرَجَحَ بالأمّةِ " رواه البخارى فى فضائل أصحاب النبى ، وكذلك أحمد فى مسنده ...

وتأمّلْ هذه المعانى ... ميزان " عمر بن الخطاب " رجح بالأمة

كلها ... وميزان " أبى بكر " .. رجح بالأمة وبعمر .. ، وميزان رسول اللّه ﷺ رجح بالجميع !!!

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1] ، يمدح اللّه سيدنا إِبْرَاهِيمَ عليه السّلام بأنه كان أُمَّةً وَحْدَهُ ...

فإذا كَانَ " عُمَرُ بن الخطاب " يفوق الأُمَّةَ بِأَسْرِهَا .. فكيف بأبى بكر الصديق .. وكيف برسول اللّه ﷺ !!!

ولعل قولنا أن روح رسول اللّـه ﷺ هى الروح الأعظم يستلزم بعض الإيضاح ... فنشير إشارةً بسيطةً إلى نور روح محمد ﷺ.

---

(١) سورة النحل آية : ١٢٠ .

• الأنوار المحمدية :

سبق القول بأنَّ النور هو وسيلة معرفةِ وإدراكِ الموجودات ، فكلُّ وسيلةِ إدراكٍ من بصرٍ وبصيرةٍ وعقلٍ وغيرهم لها نور من جنسها .. ، واللَّه سبحانه وتعالى أطلق اسم النور على كُلِّ أمرٍ يهدى إلى الحق والصواب ... بلْ إنَّ نتيجةَ أعمالِ البِرِّ والتقوى تكون لصاحِبها نوراً وهدىً ... والضِّدُّ وهو الظّلام ، قد أطلقهُ اللَّه تعالى على كل عملٍ لايرضاه جَلَّ شأنُهُ ...

فالذين آمنوا لهم أنوارٌ تسعى بين أيديهم وبأيمانِهِم ، ويقولون ربَّنَا أتمم لنا نورنا ... والذين كفروا فى ظلماتٍ بعضها فوق بعض ... والمؤمن بصيرٌ والكافر أعمى .. واللَّه سبحانه وتعالى ينزِّلُ آياتِه وكتبه ورسله ليخرجنا من الظلمات إلى النور .. ومن لم يجعل اللَّه له نوراً فما له من نور ...

وكلُّ معرفةٍ .. وهدىً .. وإدراكٍ .. مردُّها فى النهاية ومرجعها إلى اللَّه تعالى ... فهو سبحانه خالقُ البَصَرِ والبصيرةِ والإدراكِ والعقلِ والمنطِقِ .. والهُدى والإيمانِ والأنبياءِ والرُّسُلِ .. فهو سبحانه أعطى كل شئ خلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ، وكما قلنا من قبل أن انبساط النور على الموجودات هو وسيلة معرفة وجودها .. وبدونه تكون كالعدم .. فلا تُرى ولاتُدرك ...

ثم يقول اللَّه تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ .. ومـن أسمائـهِ الحـسنى " النُّـور " ... فـإن قلنـا أنـه لايُـعْرَفُ اللّــهُ تعـالى إلا باللّــهِ جَـلَّ شأنهُ .. ولايستطيع مخلوق أنْ يعرِف اللّهَ تعالى إلاَّ بنور اللّهِ فيهِ وإليْهِ .. ولذلك فمن لم يجعل اللّه له نورًا فما له من نـورٍ .. فما قلنا إلاَّ الحقَّ والصَّوابَ ....

وقول رسول اللّه ﷺ " إنَّ أتـقَاكُمْ وأعْلَمَكُمْ باللّه أنا " كما رواه البخارى ... يؤكّدُ أنَّهُ ما مِن مخلوقٍ فِى الكون كان نصيبه من النور الإلاهى مِثْلَ محمدٍ ﷺ ...

وقد سبق إيضاحُ أن روحهِ ﷺ هى الروح الأعظم التى كان لها النصيب الأوفى مِنْ نورِ اللّه تعالى ... ومنها أخذ كل كائنٍ حظَّهُ وقَدْره .. يقول ﷺ " إنَّ اللّه تَعَالى خَلَقَ الخَلْقَ فِى ظُلْمةٍ ، فَألْقَى عَلَيْهِم مِنْ نُورِهِ ، فمنْ أصابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّور يَومَئِذٍ اهْتَدى ، ومَنْ أخْطَأهُ ضَلّ " ، وهو صحيح ، رواه أحمد والترمذى والحاكم عن " ابن عمرو" ..

لذلك يقول ﷺ " السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِى بَطْنِ أُمِّهِ و الشَّقِىُّ مَنْ شَقِىَ فِى بَطْنِ أُمِّهِ " ، وهو صحيح ، رواه الطبرانى عن " أبى هريرة " .

فقـد سبقت الهدايـة مـن اللّـه تعـالى منذُ الأزل .. ، فريـقٌ فـى الجنة، وفريقٌ فى السعير ، وبهذا النور تعارفت الأرواح وتآلفت .. وتحابَّت واجتمعت مع بعضها البعض .. وعرفت كل روحٍ أحبابها .. وأتْبَاعَهَا .. ودرجتها وموضعها فى البرزخ كما اسلفنا ...

ولاشكَّ أنَّ النصيب الأوفى من النور الإلاهى كان للأنْبِيَاءِ عليهم السلام .. وكُلٌّ على قدره .. وأعلاهُم وأوفرُهُم وإمَامُهُم موْلانا وسيِّدُنا رسول اللّه صلّى اللّه عليهِ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ....

وقد قلنا من قبل أن نور الروح قد يُحْجَبُ بِحُجُبِ النفس وغيرها ، عندما نزلت الروح إلى الجسد ... وقلنا أن بعض هذه الحجب ظلمانية كونية .. وبعضها نورانية ...

ولكنَّ الأمرَ يخْتَلِفُ إلى حدٍ كبيرٍ مع الأنبياءِ عليْهِمُ الصَّلاة والسَّلام ... ذلك أنْ نفوسهم نبويَّةٌ خالصةٌ للّه تعالى ، لا فيها شهوةٌ دنيويةٌ ولاهوى ... ، ولا للشيطان عليهم من سبيل ، فإنهم معصومون قبل البعثة وبعدها ...

لذلك فإن نورَ أرواحهم لا يُحْجَبُ كثيرًا عما قد كان عليه .. اللّهمّ إلاَّ بمقدار ما تقتضيه بشريَّتُهم التى هم فيها .. ذلك لأنَّه كما قلنا أيضا أنْ للبشرِيَّةِ ، والماديَّةِ الجسديَّةِ طاقاتها التى تتحمل بها أنوار الروح ...

لذلك عندما طلب سيدنا موسى عليه السلام الرؤيا .. قال له رَبُّهُ " لنْ ترانِى " فإن البشرِيَّة لاتتحمل هذا .. والدليل أن الجبلَ الراسِخَ القوى ، دُكَّ دَكًّا ، عندما تجلَّى رَبُّه له .. بل وخَرَّ موسى صعِقاً .

أما كلام اللّه تعالى لموسى ، فقد كان بتجهيز خاص له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام .. ، وكذلك ما حدث فى الإسْراءِ والمعراج لرسولنا ﷺ .. وقدْ سبقت الإشارة إلى ذلك ... ومقصودنا باختصارٍ أن

أنوار أرواحِ الأنبياء تكون غالبة عليهم وهم فى الصورة البشرِيَّة ، أما اذا كانت النّفْسُ البشرِيَّة كامِلَةً مُكَمَّلَةً مِنْ رَبِّ العالمين ... كمالاً لا مزيدَ علَيْهِ كما كانت ذات محمدٌ ﷺ .. فالحجاب هنا لايكون أصلاً ، اللّهم إلاّ على قدْرِ ما تسمح الطاقة البشرِيَّة بتحمله من الروح وأنوارها ... ، والطاقة البشرِيَّة هنا تفوق غيرها بكثير ...

ورغم هذا فعندَّما كان ينزل الوحىُ على رسول اللّه ﷺ فإنَّهُ كان يجهد جهدًا شديدًا كما هو معروف ....

بينما كان رسول اللّه ﷺ.. وهو فى حياته البشرية العادية .. ، قد يرى الجَنَّة ، ويرى النَّار .. ، ويرى الملائِكَة .. ، ويرى الحُور العِينِ ....

يقول ﷺ " دَخَلْتُ الجَنَّةَ البَارِحَةَ فَنَظَرْتُ فِيهَا فَإذا جَعْفَرُ يَطِيرُ مع الملائِكَةِ ، وإذا حَمْزَة مُتّكِئٌ عَلَى سَرِير " ، حديث صحيح ، رواه الحاكم والطبرانى عن " ابن عباس "

وقال " دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً بَيْنَ يَدَيَّ ، قُلْتُ مَا هَذِهِ الخَشْفَة ؟ .. فَقِيلَ هذا بلالُ يَمْشِى أَمَامَك " وهو صحيح ، رواه الطبرانى عن " أبى أمامة "...

ويقول ﷺ " عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِى البَارِحَةُ لَدَى هَذِهِ الحُجْرَةِ حتّى لأنَا أعرَفُ بَالرَّجُلِ مِنْهُم مِنْ أحَدِكُم بِصَاحِبِهِ صُوِّرُوا لِىَ فِى الطِّينِ " ، وهو صحيح ، رواه الطبرانى عن " حذيفة بن أسيد ".

والأحاديث النبوية كثيرة فى هذا الشأن ...

وطالما أن الروح المحمديَّة أنوار تتلألأ .. والذات المحمديَّة نيِّرَةٌ بطبيعتها .. فان سُكْنى الروح المحمديَّة فى الذات المحمديَّة لاتكون إلاَّ نوراً على نورٍ ... نورٌ إلاهىٌّ خالصٌ .. ونور محمدىٌّ .. والكل من نور اللّه تعالى كما أسلفنا ....

ولفتة دقيقة نذكرها هنا ....

ذلك أن الشّدة التى تعرَّضَ لها رسول اللّه ﷺ فى سَكَراتِ المَوْتِ ، حتى تقولَ السيدة " فاطمة الزَهْراءُ " رَضِىَ اللّه عنها " واكرب أبتاه " ... هذه الشّدَّة والكرب والمعاناة ما كانت إلا لشِدَّة حب روح رسول اللّه ﷺ لجسدِهِ الشّريف الطّاهر المُطَهَّر .. وكذلك لِشِدَّةِ تعلُّقِ جسدِهِ الشَّريفِ بروحِهِ العاليةِ ...

ومَنْ عَبَدَ اللّه تعالى كما عَبَدَه رسول اللّه !!! ومن قام بجميع أوجهِ البرِّ والتقوى كما قام بها رسول اللّه ﷺ !!! ، لذلك صَعُبَ على الرُّوحِ أن تُفَارِقَ هذا الجسد النَّيِّرَ !!!

وقد كان آخِرُ ما تكلَّمَ به ﷺ " جَلالَ رَبِّى الرَّفِيع . فقد بَلَّغْتُ " وكأنَّهُ ﷺ خُيِّرَ .. فاخْتَارَ اللّه تعالى ولقاءه ... وهو صحيح ، رواه الحاكم عن " أنس " ...

انظر إلى قولِ اللّه تعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ

ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [1].

نور الذات المحمديَّة الطَّاهرة الكاملة جمالاً وجلالاً وكمالاً .. ونور الروح النبويِّ المبارك .. والنور كُلُّهُ مِنَ اللَّه تعالى .. فالوحيُ والقرآنُ من أنوارهِ تُمِدُّ النُّبُوةَ بالنُّورِ ... وكُلُّهُ ﷺ نُورٌ على نُورٍ ...

ذكر القرطبى فى تفسيرهِ لهذهِ الآيةِ المُبَارَكَةِ ، قولَ "ابن عمر" رَضِيَ اللَّه عنهما أنَّ المِشْكَاةَ هوَ جَوْفُ محمدٍ ﷺ ، والزُّجَاجَةُ قَلْبُهُ ، والمِصْبَاحُ النُّور الذى جعلهُ اللَّه فِي قلبِهِ ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ وهى أَصْلُهُ سيِّدُنَا إبراهيمُ عليْهِ السَّلام .. ، لاشرقيةٍ ولاغربيةٍ .. ، أىْ لامسيحيةٍ ولايهوديَّةٍ .. بلْ حَنِيفاً مُسْلِماً ... ، يَكَادُ زيْتُها يُضِيئُ أىْ مِنْ محاسِنِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

ويذكر " القرطبى " أيضاً قول " كعْبِ الأحْبَارِ " و " ابن جبير" أنَّ مَثَلُ نُورِهِ .. يعود الضمير على محمدٍ ﷺ .. ورسولُ اللَّه هو المِشْكَاةُ ، والمصباحُ هو النُّبُوَّةُ وأعمالُهَا وهُدَاهَا ، والزجاجةُ هى قَلْبُه ، والشَّجَرَةُ المُبَارَكَةَ هِيَ الوَحْيُ ... والزَّيْتُ هو الحُجَجُ والبَراهِينُ ....

وأيًّا كانت التَّفَاسيرُ فهى لا تزيد عن إجتهاداتٍ مشكورةٍ من

(١) سورة النور آية : ٣٥ .

ساداتنا العلماء رَضِيَ اللّـه عنهم ...

وخلاصةُ كُلِّ قَوْلٍ هِيَ أنَّ رسول اللّـه ﷺ هُوَ نُورٌ على نورٍ ... وحتى كمالُ بشريته ﷺ لمْ تكنْ لنبيٍّ قبله ...

وقد كانت " السيدة أم سليم " وهيَ أمُّ " أنس بن مالك "، تجمعُ العَرَقَ مِنْ جَبينِ رسول اللّـه ﷺ في قارورةٍ وتتطيبُ بِهِ .. وكان رِيحُهُ أطْيَبُ مِنْ أطيَبِ رِيحِ مِسْكٍ ... ، وتقول أم المؤمنين " عائشة " رَضِيَ اللّـه عنْهَا أنَّهَا كانت تجلسُ مع رسول اللّـه ﷺ ليلاً ، وهي تَخيطُ ثَوْبًا فسقط منها المِخْيَطُ .. قالت : فالتَقَطتُه على نورِ وجهِ رسول اللّـه ﷺ ...

يقـول ﷺ " مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الحَقَّ فَإِنَّ الشَيْطَانَ لايَتزَىَّ بي " ، صحيح ، للبخاري ومسلم عن " أبي قتادة ".

ويقـول ﷺ "مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي ، فَإِنَّ الشَيْطَانَ لايَتَمَثَّلُ بي" ، صحيح ، رواه البخاري والترمذي وأحمد عن " أنس " .

وهذه بشرى عظيمة من رسول اللّـه ﷺ فإنَّ من تشرَّفَ بِرُؤْيَتِهِ فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآهُ حَقًّا عليه الصلاة والسلام .. وإن الشيطان لايَتَمَثَّلُ به ﷺ ...

ولماذا لا يَتَمَثَّلُ الشَيْطان برسول اللّـه!!! لعل الاجابة هينة ... فرسول اللّـه ﷺ هُوَ النورُ الذاتيّ .. وفيه النورُ الإلاهيُّ كما أسلفنا .. فكيف لأصلِ الضّلالِ والظّلامِ ، وهو إبليس أن يَتَمَثَّلَ في صُورة النُّورِ !!

لايجتمع الضِّدَّان أبداً ولايستطيع الشيطان ... عنوان الضّلالِ والظّلام أنْ يَتَمَثَّلَ فى صورة رسول اللّه ﷺ ، عنوانِ النُّورِ وأصلِ الهدَايَةِ الرَّبَّانِيَّة على الكون كُلِّهِ ....

ولاداعىَ للتَّعَرُّضِ لِتَعَسُّفِ البَعْضِ ، الذينَ يَشْتَرِطُونَ شُروطًا لهذهِ الرؤيةِ ، سواءٌ للرائى أو لصورته ﷺ ، حيث أن بعضهم اشترط أن تكون الصورة المحمدية ، هى بالحِلْيَةِ المحمديَّة.. أىْ بالصورة الحقيقية البشرية لرسول اللّه !!!

وهذا وإنْ كانَ من زيادة حِرْصِهِم ، على ألاَّ يدعِىَ النّاس رؤيته ﷺ دون تحقق .. إلا أننا نقول ومَنْ مِنَّا فى هذا العصرِ يعرِفُ الحِلْيَةِ المحمديَّة .. أو يعرفُ ملامِح وجهِ الشَّرِيفِ عليه الصلاة والسلام !!! ومن من الرَّائين الذين يكرمهم اللّه تعالى بهذه الرؤية العظيمة ، يستطيع أن يتأمل مليًا فى نور وجهِ ﷺ حتى يعرِفَ حِلْيَتَهُ !!!

يقول " عمرو بن العاص " : "ماكنتُ أطيقُ أن أملأ عينى منه إجلالاً ، ولو سُئِلْتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ ".

وما كان ينظُرُ إلى وجهِ الشريفِ غيرُ "أبى بكرٍ و عُمرَ " وبعضُ خاصَّةِ الصَّحابَةِ عليهِم رِضوانُ اللّه .

ربما كان هذا الشرط يصلح للصحابة أو التابعين رَضِىَ اللّه عنهم ، الذين كانوا يعرفون الوصف الشريف جَيِّداً .. أما القُرونُ التى تلت ، فلا أظن أن هذا الشّرْط يلزمهم ...

كما أننا سبق أن قلنا أن الرؤْيَةَ قد يعْتَرِيهَا بعضُ عدمِ الوُضُوح ،

نظراً لعدم شفافِيَةِ الرائى وصلاحه بالدرجة الكافية .. ، إنَّمَا تأتى الرؤيا كفلقِ الصُّبْحِ ، حين تكون جُزْءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة .. ، أمَّا غيرها فكثيرا ما يلزمها تأويل ...

غير أننا نطمئن المُتَشَدِّدينَ فِي هذا الأمرِ فنقول أن رؤيته ﷺ مناماً تترك فى الروحِ والنَّفْسِ آثاراً روحيَّةً ونورانيَّةً ، تظهرُ على صاحِبِهَا وتُؤَثِّرُ فِيهِ بحيثُ لاتَدَعُ مجالاً لِلشَّكِ فى الرؤْيَا .. وهذا أمر مُشَاهَدٌ ومشهورٌ ، وليس برأيِّنَا نَحْنُ فَقَطْ والحَمْدُ للَّه .....

وارجع إلى كُتُبِ السِّيرةِ لتَقْرأ الكَثِيرَ عنْ مِثْلِ هذه الأوصَافِ الكَرِيمَةِ ..

فإذا تَحَدَّثْنَا عن الأنوار المعنوية لرسول اللَّه ﷺ ، فيجب أن نتنبَّهَ إلى نورانيته فى أقواله التى كان يهدى بها خَلْقَ اللَّه تعالى ... وهى على ثلاثةِ أقسامٍ ...

أولاً : القرآن الكريم

وهو كما أسلفنا كلام اللَّه القديم .. وفيه نور اللَّه القديم ، وهو يتنزَّلُ من اللَّه تعالى بأنواره .. وآياته .. وكلماته .. ومعانيه ..

يقول ﷺ " أنَّ اللَّه تَعَالَى كَتَبَ كِتَاباً قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّمَاواتِ والأرْضَ بِألْفَىْ عَامٍ وَهُوَ عَنْدَ العَرْشِ وَأنَّهُ أنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ البَقَرَةِ ، وَلايُقْرَآنِ فِى دَارٍ ثَلاثَ لَيَالٍ ،

فَيَقْرَبُها الشَّيْطانُ " وهو حسنٌ ، رواه الترمذيُّ والنسائِيُّ عن " النعمان بن بشير " .

فكلام اللّه ونوره .. يخرج من رسول اللّه ﷺ على ما هو عليه .. مكتسيًا بحالِ روحِهِ ، وقت نزول القرآن ما بين قَبْضٍ ، وبَسْطٍ ، وهيبةٍ ، وخوفٍ ، ورجاءٍ ، وشكرٍ ، وحالاتٍ أخرى لروحه ﷺ...

فالقرآن هو كلامُ اللّه .. ونورُ اللّه .. وكلِماتُ اللّه ، وليس لرسول اللّه فيه إلاَّ بعضُ أنوارِ حاله الروحيِّ وقت نزولِ الوحي ...

الثاني : الحديث القدسي :

وهو من نورِ كلام اللّه تعالى النَّازل على روح الرسول ﷺ .. ولكن الألفاظ والكلمات والتعبير منه ﷺ ...

لذلك يكون فيه نور اللّه تعالى ، مختلطاً بالنور المحمدِي ... وهو ليس في درجة الوحي السماوي ... ومثاله .. يقول ﷺ "قَالَ اللّه تَعَالَى : سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي " وهو صحيح ، رواه مسلم عن " أبي هريرة " ...

ويقول " قَالَ اللّه تَعَالَى : الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ " وهو صحيح ، رواه الحاكم عن " أبي هريرة " .

ويقول " قَالَ اللّه تَعَالَى : عَبْدِي .. إِذَا ذَكَرْتَنِي خَالِياً ذَكَرْتُكَ خَالِيًا ، وإِذَا ذَكَرْتَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُكَ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُمْ وأَكْبَرْ " وهو

صحيح ، رواه البيهقى عن " ابن عباس " .

فالحديثُ القُدُسىُّ هو دون الوحى .. والمعنى بأنوارهِ مِن اللّـه تعالى .. واللّفْظُ من رسول اللّه ﷺ بأنوارهِ الذّاتِيَّةِ ...

فنـــورُ الحـــديثِ القُدُســـىُّ .. نـــور إلهـــىٌّ عـــارِضٌ إلى ذات الرسول ﷺ ...

الثالث : الحديث النَّبَوِى :

وهـو مـن نـور ذات رسـول اللّـه ﷺ السَّاكِنِ الثَّابِـتِ فِيـهِ ، وهـو رسول اللّـه ﷺ ما ينطق عن الهوى أبداً ..

ولذلك يمكن أن نقول بأسلوبٍ آخر ...

أنَّ الكلام إذا صدر من الرسول ﷺ بوحى من السماء ونـور اللّـه القديمِ فيه ، وليس للرسول فيه اختيارٌ .. فهو القرآن ...

وإن كان الكلام منه ﷺ ، وسطوع الأنوارِ من اللّه تعالى و بدونِ وحْىٍ من سيدنا جبريل كالوحى المعروف .. فهو الحديث القُدُسِىّ ..

وإن كـان الكـلام ، والمعنـى ، واللفـظُ مـن رســول اللّـه ﷺ ونور ذاته ، فهو حينئذ الحديث النَّبَوِى .

والكل من عند اللّه تعالى ...

ولأصحاب الذَّوْقِ والرَّوْحانِيَّةِ فى هذا الأمر كلامٌ كثير .....

وهنا نشير إلى لفتةٍ دقيقةٍ ...

فمن المعروف أن ترتيب آيات القرآن فى السُّوَرِ .. وكذلك ترتيب السور فى المُصْحَفِ هو أمرٌ توقيفى .. بمعنى أنه أمرٌ من رسول اللّه ﷺ .. حيث كان يأمُرُ أن توضَعَ كُلُّ آيةٍ .. وكُلُّ سُورَةٍ فى المكان الذى يُحَدِّدُهُ .. وهكذا كان يتْلُوه رسول اللّه ﷺ....

ولابد أن يكون لهذا الترتيب حكمةٌ إلاهية .. ، وإلا لكانت الآيات وُضِعَتْ بتَرْتِيبِ نُزُولِهَا الزَّمَنِىِّ ... ، وهذا لمْ يَحْدُثْ ...

بَلْ إنَّ بعض السُّورِ تَجِدُهَا مَكِّيَةً ، أىْ نزلت فى مَكَّة المكرَّمَة .. ، ثم تجِدُ فِيهَا آيةً مَدَنِيَّةً ، كما هُوَ الشَّأْنُ فى سُورَةِ الجَاثِيَةِ ، حيث كلها مكية إلاَّ الآية رقم ١٤ فهى مدنية ... وهى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والعلماءُ رَضِىَ اللّه عنهم ، عادةً ما يكون تفسيرُهُم للقرآن الكريم بحسب أسباب نزول كل آية ، وهذا منطقىّ .. ، فإنَّ مُنَاسَبَةَ نُزُولِ كُلِّ آيةٍ مِنَ الأَهَمِّيَّة بمكانٍ .. غيَر أنَّهم لو تعرَّضُوا لِشَرْحِ الآياتِ فى سِيَاقِ ترتيبها فى المُصْحَفِ فلاشكَّ أنَّهُ سوف تظهرُ معانٍ جديدةٌ مضافةٌ إلى ما سبق التعرض له من أسباب النزول ...

وفى الحقيقة فإن معانِىَ الآياتِ القُرآنيةِ وما فيها من أسرار إلاهية لاتنتهى .. ورسول اللّه ﷺ يقول عن القرآن الكريم أنَّهُ لا يَخْلَقُ على

كثرة الرَّدِّ .. أىْ لا يزالُ غَضًّا طريًّا مُجَدَّدَ المعانى مهما نهلتَ مِنْهُ ، وقد قال الإمامُ علىٌّ كرّم اللّه وجهه كما سبق ذكره " إلاَّ أنْ يُؤْتِى اللّه عَبْدَهُ فَهْمًا فى آيةٍ من آياتِ كتابِهِ " .. وهذا معناه أنَّ هُناكَ دقائقَ ومنناً ومعانٍ تتنزلُ على عباد اللّه المخلصين فى فهم معانى بعض الآيات الكريمة ..

وهذا أمر منطقى وبَدَهِى ...

فاللّـه تعالى قد أنزل القرآن ، يخاطِبُ به كُلَّ النَّاسِ ، على اختلاف درجَاتِهِمْ الإيمَانِيَّةِ ، وعلى تبايُنِ نوعِيَّاتِ عِلمهم ، وثقافتهم ، وعقولهم .. ، ودعى الكُلَّ إلى تِلاوَتِهِ ، بالتدَبُّر والاتعاظ .. ، وفِى نَفْسِ الوقْتِ فيهِ من الإعْجَازِ البيانىِّ اللغوىِّ ما أدهشَ العربَ أصحاب البلاغة ، والكلمة ، واللغة ... ، وهذا من الناحية اللغوية التى كان العرب أهلَ تَمَيُّزٍ فيها وإبداع .. ولكنَّ القُرْآنَ إعجَازُهُ مستمرٌ حتى قيام الساعةِ .. وليس إعجازُه للعربِ وأصحاب اللُّغَةِ وأهلِ البلاغةِ فقط .. بلْ لابد وأن يكون فيه إعجازٌ لكل المؤمنين ، فمن المنطقىِّ أن يكون فيه إعجازٌ علمىٌّ يناسب ما يظهر من آياتٍ كونيةٍ مع تقدم البشرِيَّةِ واكتشافِ أسرارِ الكَوْنِ ... ولابد أن يكون فيه إعْجَازٌ روحىٌّ يناسِبُ كُلَّ تَالٍ لَهُ على كُلِّ مستوى إيمانىٍّ روحىٍّ للقارِئين ... ما بين الإيمانِ بالفطرة البسيطة .. والايمان العقلانىِّ العلمىِّ .. ، ولابد أن يكون فيه لأصحاب الولايَةِ العامَّة نصيبٌ .. ، ولأصحاب الولاية الخاصَّة للّه تعالى النصيب الأوفى ..

وسيدنا " عبد اللّه بن عباس " حبْرُ الأُمَّةِ .. كان يتلو الآية

الكريمة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [1] وكان يقف فى التّلاوةِ عندَ " وما يعلم تأويله إلا اللّه والراسخون فى العلم " ثم يستأنف " يقولون آمنا به " ...

وهى لفتة طيبة ، فإن الراسخين فى العلم باللّه هم أهل الفضل والمعرفة .. حتى قال اللّه عنهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .. وقال : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [3] .

ولو كان القرآن كُلُّهُ بعيداً عن فَهْمِ البشرِ أجمعين ، وعن روحانيّاتهم كُلِّهم ... لظلَّ كنزا مخفِيًا لا يُعرفُ قدرُه ، ولا تُدرَكُ قيمَتُهُ ... ، ولكنَّ اللّه تعالى يريد لعباده أن يعرفوه ، كُلٌّ على قدْرِ رزقِهِ ، .. فلا بُدَّ أن تكونَ لبعضِ خلْقِهِ خصوصية فهمٍ وإدراكٍ لبعض هذه الأسرارِ والأنوارِ

فاللّه سبحانه تعالى قد جَمَعَ فِى معيَّتِهِ العَلِيَّةِ أهلَ العلم به وكرَّمهم .. ، ولاعجب أنْ يُهاديهم من فضله ، ببعض نور أسراره ، ويطلعهم على بعض تأويل آيات كتابه .. ، وهذا لايمكن إلا لأهل العلم باللّه تعالى ، الذين تسبح أرواحهم فى الملكوت .. ،

---

(١) سورة آل عمران آية : ٧ .
(٢) سورة المجادلة آية : ١١.
(٣) سورة آل عمران آية : ١٨ .

وتطهروا نفسًا وروحًا وأصبحوا مؤهَّلِين لهذا الشَّرف العالى ..

فالحكمة لاتعطى لغير أهلها .. واللّه تعالى يخاطب الناس على قدر عقولهم .. ولذلك نقول لِكُلِّ أصحاب التفاسير القرآنيَّة ... أنَّهُمْ جزاهُم اللّه خَيْرًا ، ما فَسَّرُوا القرآن ، ولكنَّهُم قد اجتهدوا فى فهم معانيه على قدرهم .. ، وهذا هو منتهى فهمهم ، هم أنفسهم ، لكتاب اللّه .. ، ولانقول أنَّ هذا هو تفسيرٌ للقرآن الكريم ..

فاللّه جَلَّ شَأْنُهُ قد جَعَلَ نور آياته فى ظَاهِرِ كلامِهِ جَلَّ وعلا .. وجعل سِرَّ آياته فى باطِنِ كلامه .. وهو سبحانه الأَولُ ، والآخِرُ ، و الظَّاهِرُ ، والبَاطِنُ ...

فان كانت روحك تسبح فى عوالم الملكِ والشهادةِ .. فقد بَسَطَ آياتهُ لكَ فِى عَالَمِ المُلْكِ ترتادُها ، وتتذوقُها ، وتفهم منها ما قدَّرَهُ اللّه لك ، من الأكوان الظاهرة أمامك ...

وان كانت روحك تسبح فى عوالم الجبروت ، فقد أشار سبحانه إلى هذا العَالَم ، وما فيه من موتٍ ، وحياةٍ ، وأنوارٍ وتجَلِّيَاتٍ وأسرارٍ كثيرةٍ .

وإنْ كُنْتَ مِن رُوَّادِ عالمِ الملكوتِ .. فهو جَلَّ شأنه ينبِّهُكَ إليْهِ برمزٍ وتأويلٍ لايَلْتَقِطهُ إلا أهلُهُ .. حتى لايكون فتنة على غيرِهم ...

فان كانت روحانيتك على درجةٍ من القُربِ لروحانيَّة رسول اللّه ﷺ .. وحبك له ظاهرٌ باطنٌ .. وتَسْتَمِدُّ مِن أنوارِ إيمانِهِ كما قُلْنا .. فهو أعْرَفُ الخَلْقِ بِرَبِّهِمْ وأعلاهُم فهمًا لكتابِ اللّه تعالى بلا جدالٍ .. فهذا

هُو القُرآن الذى أُنْزِلَ على قلْبهِ ﷺ ...

فكلما اقْتَرَبْتَ من أنوارِ رسول اللّه ﷺ ، كلما ارتقى فهمك لآياتِ اللّه تعالى ، وأمدّكَ رسول اللّه ﷺ ببعض أسرارِهِ فضْلاً مِنْهُ وكَرمًا

ورَضِيَ اللّه تعالى عن " عمر بن الخطاب " الذى قرأ الفاتحة على المَلْدوغ فشفاه اللّه ... بينما المَلْدوغ نَفْسُه قرأ الفاتحة فلم يتِمَّ له الشّفاء .. فينبّهُ ﷺ إلى هذا السِّرِّ الدّقيق بقوله " الفاتحةُ هى الفاتحةُ ... ولكن أين عمر !!! ... " وصدق رسول اللّه .. أينَ روحُ عمر . !!!

وهذا يدُلُّكَ على أنَّ لروحانية القارئ للقرآن ، دورا هامًّا فى التقاطِ أنوارِ الآياتِ القرآنيةِ .. حتى وإن كانت ظاهرةً لعمومِ الخَلْقِ .. وكلهم مأمورون بِتِلاوتِها والذّكْرِ بِهَا .. ولكنْ كُلُّ روحٍ تأخُذُ على قَدْرِهَا .. وتسبحُ فى مستواها لاغير ...

يقــول تعــالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1].

وَإلى من يظنُّون أن تدبُّر القرْآن يكونُ بالعقل ، والعلم ، والثقافة، وكثرة القيل ، والقال ...، أُهْدِى هذِهِ الآية الشريفة .. ليتنبَّهوا إلى أن تدبُّرِ القرآن واستجلاءِ أنوارِهِ وأسرارِهِ .. إنَّمَا يكونُ بِالقَلْب ، وهداه ، وتقواه ، وحُبِّهِ للّه ورسوله ...

وصدق اللّه تعالى حيث يقول : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [2].

---

(١) سورة محمد آية : ٢٤. (٢) سورة البقرة آية : ٢٨٢.

وصدق رسوله ﷺ حيثُ يقول " مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرأْيِهِ فَأصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ " حديثٌ حسن ، رواه الترمذى والنسائى وابو داود عن "جندب "

فليس الأمر بالرأىِّ ، والعقلِ ، والعلمِ ، وكفى ... بل بالتقوى .. ، والإيمان ، ونورانيَّةُ الروحِ القريبةِ مِنَ اللّـه ورسولِهِ ....

وهل نورانيَّةُ الرُّوحِ وفِراسةُ المُؤْمِنِ الذى ينظر بنور اللّـه لاتختصُّ إلاَّ بِالأُمورِ الدُّنْيَوِيَّةِ الفانيةِ !! أمْ أنْ هَذِهِ الفِراسَةَ ، وهَذِهِ الحكمةَ تمتدُّ إلى فهمِ لآيات اللّـه تعالى ، وأنواره ، واسراره !!!

وسبحان من لاتنتهى عجائِبُهُ .. ولاتفنى خزائِنُهُ .. ولامانع لما يعطى ...

وما قيل عن القرآن .. يُقَالُ قريبًا مِنْهُ عن أحاديث رسول اللّـه ﷺ ...

فالرسول ﷺ أفصحُ العربِ وأبلغُ البلغَاءِ .. ودانت لهُ المعانى .. وأوتى جوامِعَ الكَلِمِ ﷺ ...

ثم بعد ذلك ، يخاطب الصغير ، والكبير ، والأمىَّ ، والمتعلِّمَ .. والأعراب ، وأهل الكتاب ... وهو خاتم المرسلين .. فأحاديثه يخاطب بها كُلّ أنواع البشر حتى يوم الدين .. فلابد أن تكون معانيها مناسبة لكل عصر .. ولكل قوم .. ولكل مؤمن .. ولكل مستوىً روحىٍّ والحديثُ واحدٌ .. والكلام واحدُ ... وخذ منه من المعانى الظاهرة والرمزية ما شئت ...

وقد ذكرنا لك من قبل الحديث الشريف " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ " .. وقُلْنا أنَّ الأمر هنا بالتغيير وليس بالاستنكار ، كما يفهم بعض الناسِ .. فالمطلوب التغيير ... والتغيير بالقلب ، لاشك يستلزم الدرجة الأقوى من الإيمان ...

كذلك قوله ﷺ : " لَقِّنُوا مَوْتَاكُم .. لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه " وهو صحيح رواه الخمسة عن " عائشة " وعن " أبى هريرة "وعن " أبِى سعيد "... يختلف فيه الشُّرَّاحُ بينْ منْ يستَحْسِنُ التلقين وتلاوة القرآن على رأسِ الميِّت ، وبين من يستنكره ويقولون إنَّ الميِّت إذا مَات فقدِ انْقَضَى وانْتَهَى وليس لَهُ عِنْدَنَا إلاَّ الغُسْلُ والتكفين ، والصلاة ، والتشييع، والدَفن ...

ورسول اللّه ﷺ أفقه الناس لغة .. ويعرفُ ﷺ الفرق بين الميت والمحتضر ... والحديث واضحٌ ، " لقنوا موتاكم .... "

فرسول اللّه ﷺ يضَعُ الكلِمَةَ بمعناها الصحيح فى الموضعِ الصحيحِ.. ولاتغنى عنها كلمةٌ مرادفةٌ أخرى .. وكثيراً ما يكون فى كلامه ﷺ توريةٌ لطيفةٌ كما قال لأهل بيتهِ قبل انتقَالِه للرفيق الأعلى أنَّ أسبقهُنَّ إليْهِ فى الدَّارِ الآخِرَةِ هى أطولهن يدًا ... وكان مقصوده ﷺ أطولهن يدًا فى الكَرَمِ والجُودِ والعَطاء وهى بلاغة وتورية منه ﷺ ...

وهنا نقف عند نقطة لها أهميتها ....

تلك هى أن مجموع الأحاديث الواردة فى الصحيحين البخارى ومسلم ، هو تقريبا ، حوالى الخمسة آلاف حديثٍ ، وذلك

بحذف المكرر ، والمتشابه ، والذى رُوِىَ عن أكثر من سلسلةٍ ... ، فاذا جمعتها كُلَّهَا ، المكرَّرة وغيرها ، تجدها حوالَىْ عشرة آلاف حديثٍ بالتقريب ، وهى ما أجمع عليه علماء الجرح والتعديل بأنها الأحاديث الحسنة الصحيحة على شروط الشيخين .. البخارى و مُسْلِم ... (ذكر البخارى حوالى سبعة آلاف حديث بما فيها المكرر ، وذكر مُسْلِم حوالى ثلاثة آلاف حديث بخلاف المكرر فيه) .

وجزى اللَّه عنَّا عُلَمَاء " الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ " خير الجزاء ، حيث وضعوا أساس أعظم علم للتمحيص والتدقيق والتحقيق لأحاديثِ رسول اللَّه ﷺ ورِجال الرواية للأحاديث ... وصنفوا درجة الحديث ما بين الصحيح ، والحسن ، والمشهور ، والمتواتر ، والمرفوع ، والمرسلِ و... الخ ، ولكل من هذه التعبيرات درجة من درجات الصحة ...

وما أريد أن أقوله هو أن ما جمعه البخارى ومسلم على شروطهما هو ليس كُلُّ حديث رسول اللَّه ﷺ ... فقد كان من درجات الحُفَّاظِ درجة تسمى " بالحافظ " وهو الذِى يحفظُ مائة ألف حديثٍ .. وكذلك

صحيح أنَّ البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة والنَّسائى هم أوثق ما جُمِعَ مِنْ أحاديثِ رسولِ اللَّه ﷺ... ولكن مقصودنا ألاَّ نحبسَ أنفسنا وعقولنا عليهِمْ .. لأن هذا تضييق لوسعة اللَّـه علَيْنَا ، وتركٌ كذلك لما لايجوزُ تركُهُ من الأحاديثِ ، بحُجَّةِ أنَّهُ لمْ يُذْكَرْ فى البخارى أو مسلم ... أو بحُجَّةِ أنَّهُ حديثٌ ضعيفٌ مثلاً ...

فأنت لاتدرى سبب ضعف هذا الحديث .. ولاحتى معنى أنه

ضعيف .. وهل يؤخذ به أم لا .. وما إذا كان هناك حديث ضعيف آخر بنفس المعنى !! كل هذا له علماؤه وأهله .. فرفضُ العملِ بالحديثِ لِضعفهِ خطأ ....

والعلماء يقولون مثلاً أنَّ الأحاديثَ الضعيفةَ يؤخذُ بها فى فضائل الأعمالِ ... ، وما أدراك أن تصنيف هذا الحديث أو ذاك أنَّهُ ضَعِيفٌ مثلاً هو أمرٌ مقصودٌ منَ اللَّه ورسولِهِ ، بحيث لايعملُ بِهَذا الحديث العامَّةُ والخاصَّةُ ... بل هو لأهْلِهِ فقَطْ .. الذين تلتقط روحانِيَّتهم .. روحانِيَّة هذا الحديث ....

فإن فى حديث رسول اللَّه ﷺ نورٌ من نور ذاته الشريفة .. وكُلُّ حديثٍ بنوره الخاصِّ .. وكلٌّ يأخُذُ مِنْ حديثِ رسول اللَّه ﷺ على قدر روحانِيَّتِهِ هو ..

وكُلُّ ما أردتُ قَوْلَهُ بحذرٍ وإيجازٍ هو أن أحاديث رسولِ اللَّه ﷺ التى لم تُذكر فى البخارى و مسلم ، أو لم تصنَّف بالصحيح ، ولا بِالحسن ليس لنا أن نتركها ولا نعمل بها .. ، ولاينبغى التضييق على عباد اللَّه ، بما ورد عن الشيخين فقط .. ، هذا مع التزام الحذر الكافى ، والحرص اللازم للبعد عن الأحاديث الموضوعة ... وما أقلَّها .. وما أسهلُ أنْ تُعْرَفَ لِمَنْ يتصدى لهذا الأمر ... وقد ألَّفَ فيها " السيوطى " اللآلئُ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ..... وغيره .

وليت علماء هذا الفَنِّ المبارك أنْ يجمعوا لنا خُطَبَ رسول اللَّهِ ﷺ كُلَّ صلاةِ جمعةٍ ، وكذلك أن يؤرخوا الأحاديث ، لِنَعْلَمَ السابِقَ من

اللاحق .. فإنى لم أعثر على هذيْن الأمرين ، فيما قرأت حتى الآن .. والله أعلم ....

وأحاديث رسول الله ﷺ .. هى الرُّكْنُ الثَّانِى من الشريعة بعد القرآن ، فهى التى تُفَصِّلُ ما أُجْمِلَ فِى كِتَابِ الله .. وتبَيِّنُ دقائق الأحكام .. وكيفيَّة الأفعالِ ، وكذلك توضِّحُ ما يعيبُهَا ويُنْقِصُهَا .. أو يُفْسِدُها بالكُلِّيَة ...

فالتشريع أساسهُ كتابُ الله تعالى وسنَّةُ رسولِهِ ﷺ ... والرسول ﷺ يأمرنا أن نحفظ حديثه ، وأن ننشره بين الناس ، ويدعو لمن يفعل ذلك فى أحاديث كثيرة .. ، ومنها " نَضَّرَ الله امْرؤاً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِن سَامِعٍ " وهو صحيح ، رواه أحمد والترمذى وابن حبان عن " ابن مسعود" ...

كما يُحَذِّرُ رسولُ الله ﷺ أشد التحذير ، ممن يتجرأ بالكَذِبِ على رسول الله ﷺ حيث يقول " إنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " وهو صحيح ، ذكره البخارى ومسلم عن" المغيرة " .

وما خرجنا به من هذه العجالة .. هو أن رسولَ الله ﷺ .. محمدٌ.. العبدْ ... البشرِىُ .. الرسولُ .. كُلُّهُ ﷺ نُورٌ على نُورٍ .. ولايصدُرُ مِنْهُ إلاَّ النُّور .. ، فى أقواله .. ، وأفعاله .. ، وأحواله .. بل وأكثر من هذا فى أهْلِ بيتهِ الكرامِ المُبَارَكِينَ .. خاصةً الذين هم من نسْلِهِ الشريف المبارك ... أولادِ " فاطمةَ الزهراء " ريحانة رسول الله عليها رضوان الله تعالى

وعلى ذريَّتِها إلى يوم الدين ....

وإذا كان اللّه تعالى قد ذكر فى آياته ، إكرامَهُ جَلَّ شأنُهُ للأبناءِ بصلاح آبائهم فى أكثرَ من موضعٍ ... ونبّه على أن تقوى اللّه تعالى وحسن عبادته .. يكون للذُرِيَّةِ منهما نفعٌ كبيرٌ .. وحصنٌ حصينٌ بصلاحِ الآباءِ .... فكيف بمن كان جَدُّهُمْ أعظمَ خَلْقِ اللّه .. وسيِّدَ ولَدِ آدمَ .. وإمامَ الأنبياءِ والمُرْسلِينَ !!! ألا يكون لهم من اللّه عناية ورعاية بتقوى جَدِّهِمْ .. وهو إمام المتقين .. وأعرفُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ .. صَلَّى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين !!!

يجب أنْ نكون علىَ يقينٍ بأن أوامرَ اللّه تَعَالى لِلعباد ، وكذلك أوامر رسوله ﷺ .. ، إنَمَا هي لمصلحتهم ، ولِمَا يُصلحُ أحوالهم فِي الدُّنيا والآخرة .... ، وتعالى اللّه جَلَّ وعَلا أنْ تَكُونَ لَهُ مصلحة ولا منفعة لو كان كل خلقه على أتقى قلب عبد منهم .. أو أفجر قلب رجل منهم ...

ورسوله ﷺ قد شرح اللّه له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع ذكره .. ، ويصلي عليه اللّه ، وملائكته دائما أبدًا .. ، وقرن اللّه تعالى اسمه باسمه في شهادة التوحيد ... فأيُّ فضلٍ وأيَّةُ زيادة تكون لرسول اللّه ﷺ ، إذا اتَّبَعَهُ الخَلْقُ أو انْفَضُّوا عنه !!!

ولكن اللّه تعالى لايَرضَىَ لعباده الكفر ... ورحيم بهم .. ومتودد إليهم .. ولطيف بهم .. فاللّه تعالى يحب عباده .. وعبيده ... وحتى من كفر منهم فإنَّ السماواتِ تَهْتَزُّ على من ظلمه ، ومن تكبَّر عليه ، أو عذَّبه ... على كفره ، وعلى جحوده ...

والآيات كثيرةٌ في هذا الشأن .. وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة ... بل إنَّ اللّه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب إليه ... ومن يقصده لايخيب أبدا .. ومن تقرَّبَ إليْهِ شِبْرًا من خَلْقِه .. تقرَّب اللّه إليه باعاً .. ومن جاءه يمشي .. أتاه اللّه هرولةً ... ويبدِّلُ اللّه سيئاته

حسناتٍ ... وكذب من ادَّعى أنَّهُ يعرِفُ فضْلَ اللّـه ، وكرمَهُ ، وجُودَهُ ، وإحسانه إلى خلقه .. جَلَّ جَلالُ اللّـه ...

ولكنَّ اللّـه تعالى يُبَيِّنُ لعَبيدِهِ منافِعَ ، ومحاسِنَ ، وثوابَ ما يدعوهم إليه مرة .. ، ومراتٍ لا يُبَيِّـنُ ، ولايُوَضِّحُ لهم ذلك .. حتى يكونوا بين الخوف والرَّجاء ، وبين مقام العبودية للّـه تعالى .... وحتى يكونوا شهداء على أنفسهم .. ، ولايدَّعِيَ مخلوقٌ ما ليس فيه ... فيعرف كل عبدٍ نفسه بين عابدٍ .. وزاهدٍ .. وصابرٍ .. وشاكرٍ ... ومحبٍ .. وعارفٍ للّـه تعالى ... وبين جاحدٍ .. وكافرٍ .. ومنافقٍ .. ومُراءٍ ... وأعمى لا يبصر نور اللّـه تعالى ....

ولو بيَّنَ اللّـه تعالى ثواب كل أمرٍ .. ومنفعة كل نهيٍ .. لما صار الأمر أُلُوهِيَّةً وعبوديةً .... ولاشُـكْراً .. ولامحبةً .. ولاتعظيماً .. ولاتقديساً للّـه تعالى ...

بل يصبح الأمر كله تجارةً ... وطمعاً لاغير ... ، وهذا وإن كان فيه خيرٌ .. واللّـه يدعو إلى تجارة معه لاتبور .... إلا أنَّ الأعلى .. والأوفق لعظمةِ اللّـه تعالى هو التقديسُ والتسبيحُ والتعظيمُ والحبُّ للّـه تعالى .... لأن الحـال الأول ، هـو طلـبٌ للـنفسِ ونعيمهـا فـي الآخـرة .. والحال الثاني ، هو قصد وجه اللّـه تعالى .. وتعظيمه وتقديسه ...

كان لابد لهذه التذكرة القصيرة لتكون مدخلا لما نحن بصدده ....

يقول اللّـه تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي

ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾[1] ، هكـذا يقـول اللّه تعالى لرسوله محمد ﷺ ...

ويقــول تعــالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

وانظر إلى ما قيل على لسان الرسل ....

يقـول سـيدنا نـوح عليـه الـسلام : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3] .

ويقول سيدنا هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم السلام ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[4]

ولاتعليق لنا .. فالأمر أوضحُ من أن يُوَضَّحَ ....

ويقول ﷺ ... " فَاطِمَـةُ بِـضْعَةٌ مِنِّـي ، يَقْبِـضُنِي مَـا يَقْبِـضُهَا ، وَيَبْسطُنِي مَا يَبْسُطُهَا ، وإِنَّ الأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ يَوْمَ القِيَامَةِ غَيْرُ نَسَبِي وَسَبَبِي وصِهْرِي " حديث حسنٌ ، رواه أحمد والحاكم .

ويقول ﷺ " فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي ، فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي " صحيح رواه البخاري.

---

(١) سورة الشورى آية : ٢٣. (٢) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .

(٣) سورة يونس آية : ٧٢ .

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠

ويقـول ﷺ "فَاطِمَـةُ سَـيِّدَةُ نِـسَاءِ أهْـلِ الجَنَّـةِ ، إلاّ مَـرْيَمَ بِنْـتَ عِمْرانٍ " وهو صحيح ، رواه الحاكم عن " أبى سعيد " ..

ويقول لسيدنا على كرم اللّـه وجهه "فاطمة أحبُّ إلَـيَّ مِنْكِ ، وَأنْتَ أعَزُّ إلَيَّ مِنْهَا " وهو صحيح ، رواه الطبرانى عن " أبى هريرة " .

ويذكر " ابن عابدين الحنفى " فى حاشيته المشهورة قول سيدنا " عمر بن الخطاب " رَضِيَ اللّـه عنه أنـّهُ لَمَّا سمِعَ قول رسولِ اللّـه ﷺ " إنَّ كُلَّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ القِيَامَةِ إلاّ سَبَبِى وَنَسَبِى ".. تزوج رَضِيَ اللّـه عنه " أم كلثومٍ بنتِ الإمام علىّ " كرم اللّـه وجهه ليدخل فى هذا النسب والمصاهرة ....

وهذا الحديث صحيح ، رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى عن " عمر بن الخطاب " ، كما رواه الطبرانى فى الكبير عن " ابن عباس " وعن " المسور " .. رَضِيَ اللّـه عنهم جميعاً ....

وتأمل هذه الأحاديث الشريفة ....

" إنِّى تَارِكٌ فِيْكُم خَلِيفَتَين : كِتَابُ اللّـه حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَابَيْنَ السَّمَاءِ والارض ، وَعِتْرَتِى أهْلُ بَيْتِى ، وإنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدا عَلَى الحَوْضِ " صحيحٌ ، رواه أحمدُ والطبرانى عن " زيد بن ثابت "

" مَثَلُ أهْلِ بَيْتِى مَثَلُ سَفِينةِ نُوحٍ : مَنْ رَكِبَهَا نَجَا ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِق " وهو حَسَنٌ ، رواه البزار عن ابن عباس وعن ابن الزبير ، ورواه الحاكم عن " أبى ذَرٍّ " ....

" **مَـنْ كُنْـتُ مَـوْلاهُ فَعَلِـيٌّ مَـوْلاهُ** " ، وفـى روايـةٍ " **مَـنْ كُنْـتُ وَلِيَّـه فَعَلِـيٌّ وَلِيُّـهُ** " وهمـا حـديثان حسنان ، رواهمـا أحمـد وابـن ماجـة والنَّسَائى والترمذى والحاكم عن " البرَّاء " ، وعن " بُرَيْدة "، وعـن " زيـد بن أرقم " ....

ومن خطبة لرسول اللّـه ﷺ يقول فى آخرها : " **وأَهْلُ بَيْتِى ، أُذَكِّرُكُم اللّـه فِى أهْلِ بَيْتِى، أُذَكِّرُكُم اللّـه فِى أهْلِ بَيْتِى** " صحيحٌ ، رواه مسلم عن " زيد ابن أرقم "

ويقول ﷺ .. " **النُّجُومُ أَمَانٌ لأَهْلِ السَّمَاءِ ، وَأَهْلُ بَيْتِـى أَمَانٌ لأُمَّتِى**" وهو حسنٌ ، رواه أبو يعلى فى مسنده عن " سلمة بن الأكوع " .

ويقول " **أَنَا دارُ الحِكْمَةِ ... وعَلِيٌّ بَابُهَا**" وفى رواية أخرى " **أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وعَلِيٌّ بَابُهَا ، فَمَنْ أَرَادَ العِلْمَ فَلْيَأْتِ البَابَ** " رواه الطبرانـى والحاكم عن " ابن عباس " وعن " جابر " رَضِيَ اللّـه عنهم ...

ويقول "**الحَسَنُ والحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ... وأَبُوهُمَا خَيْرٌ مِنْهُمَا** " وهو صحيحٌ ، رواه ابن ماجة والحاكم عن " ابن عمر " وعن " ابن مسعود "

ويقول "**مَنْ أَحَبَّ الحَسَنَ والحُسَيْنَ فَقَدْ أَحَبَّنِى ، ومَـنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِى**" وهو حسنٌ ، رواه أحمد وابن ماجـة والحـاكم عـن " أبـى هريرة " ..

ويقـول "**مَـنْ أَحَـبَّ عَلِيًّا فَقَـدْ أَحَبَّنِـى ، ومَـنْ أَبْغَـضَ عَلِيًّا فَقَـدْ أَبْغَضَنِى**" وهو صحيح ، رواه الحاكم .

ويقــول" **كُــلُّ بَنِــى آدَمَ يَنْتَمُــونَ إِلى عَــصبَةٍ ، إلاَّ وَلَــدُ**

فَاطِمَةَ ، فَأَنَا وَلِيُّهُم وأنا عَصَبَتُهُم" وهو حسنٌ ، رواه الطبرانى فى الكبير عن "فاطمة الزهراء " .

ويقول " كُلُّ بنى أُنثى فَإِنَّ عَصَبَتَهُم لأَبِيهِم مَاخَلا وَلَدُ فَاطِمَةَ ، فإنى وأنا عَصَبَتُهُمْ وأنا أَبُوهُم " وهو حسنٌ ، رواه الطبرانى فى الكبير عن " عمر " .

ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام " قُولُوا اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ إبْرَاهِيم ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ إبْرَاهِيم ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ " وهو صحيحٌ ، رواه البخارى ومسلم وابو داود وابن ماجة والنسائى .

ونستَجْلِى مِنَ الآيَاتِ والأحاديثِ التى ذُكِرَتْ أمورًا أهمها:

- إنَّ اللّه تعالى قد كَرَّمَ وطَهَّرَ وبَارَكَ عَلَى آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللّه ﷺ .
- إنَّ اللّه تَعَالَى يَأمُرُنَا بِحُبِّ ومَوَدَّةِ آلِ البيتِ ، بَلْ وَيَزِيدُ فى نفس الآيةِ ، أن من يمتثل لهذا الامر فإنَّ اللّه تعالى سوف يزيد له فيها حُسناً ....
- تفرَّدَ آل بيت محمدٍ ﷺ بِهَذِهِ الخُصُوصِيةِ (المودة فى القُربى) دُونًا عَنْ سَائِرِ الأنْبِيَاءِ.
- يؤكد الرسول ﷺ محبته لابنته " الزهراء " رَضِيَ اللّه عنها ولِوَلديها الحَسَنْ والحُسَيْنْ ونَسلِهُمَا.

- يبين الرسول أنه هو ﷺ عَصَبَتُهُم ... وأبوهم.. ووَلِيُّهُم ...
- يجمع الرسول عليه الصلاة والسلام بين محبة المؤمنين لهُ ومحبَّتِهم لآل البيت الكرام .... ويوصى بآل بيته مودة .. وتكريمًا وتعظيمًا ....
- يعلمنا ﷺ كيف نذكرهم فى كل صلاةٍ ... وغَيْرِ صلاةٍ بجمعهم مَعَهُ فى كل صلاة عليهِ ﷺ .

ونحـن نعلـم أن المقـصود " بـآل البيـت " هـم آلُ علـىٍّ .. وآل جعفر...، و آل عقيل ... ، وآل العباس وآل الحارس .. كما قال ﷺ ... وهم الذينَ لا يجوزُ لهُم تَقَبُّلُ صَدقاتِ الناسِ ولا زكواتهم .....

ولكن رسول اللَّه ﷺ يولى عِنَايَةً خَاصَّةً " بآل فاطمة " رَضِىَ اللَّـــه عنهـا ... ويؤكـد علينـا حُـبَّها وحُـبَّ ذُرِّيَتِهَـا إلى يـوم الدين ، رَضِىَ اللَّه عنهم جميعاً

ولساداتنا الكرام فى هذا الشأن رأى .....

فهم يذكرون قول رسول اللَّـه ﷺ بأنَّ الحُبَّ يُوَرَّثُ مِنَ الآبَاءِ إلى الأبناءِ ... وأساسُ الحُبِّ كُلِّهِ هو إلى رسول اللَّـه ﷺ ... فكيف لايكون لورثته من آل بيته !! وهل ورَّثَ آلَ بَيْتِهِ إلاَّ أنوارَ نُبُوَّتِهِ وأسرارَ روحانِيَّتِهِ !!. ويذكر ساداتنا قِصَّة سورة التوبة .... فقد نزلت على رسول اللَّـه ﷺ بالمدينة ، و المسلمون قد رحلوا للحجِّ ، وأميرهم ابو بكر الصديق رَضِىَ اللَّـه عنه ... فقال ﷺ : " لايُبَلِّغُ عَنِّى هَذِهِ السُّورَةَ للْمُسْلِمِيَن إلاَّ رجلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِى " ، ودعا " بعلىٍّ" كرَّمَ اللَّـه وجهه ،

وأركبــــه ناقتــــه القـــصْوَاءَ ... وأمـــرَهُ أنْ يَلْحَـــقَ بـــالحَجيجِ ، ويتلو عليهم السورة ....

وهــي لفتــة كريمــة ودودة مــن رســول اللّــه ﷺ إلى آل بيتــه المشـرَّفِيَنَ به ، وتنبيهٌ للمسلمين على قدرهم ومكانتهم .

وكيف يتصور أحدٌ أنَّ ذُرِّيَةَ رسُولِّ اللّه ﷺ التى هِيَ من صُلْبه ودَمِهِ المباركِ لايكون فيهما ميزةٌ وإكرامٌ لهم .!!!

حتى العِلْمُ الحديث يثبت بما يسميه " هندسة الوراثة " ، أن الاجيال لابد وأن تحمل بصماتٍ وطبائع من الجدِّ الأول .. بما يسمونها علم الجينات ... والكروموسومات .. وخلافها ....

صحيح أنَّ اللّه تعالى قد ضرب مثلا بسيدنا نوح وابنه .. ولكن ابن نوح كان كافرا باللّه ... والكفر والعياذ باللّه يقطع كل نسبٍ .. فلا وجه للمقارنة عندنا ....

وبعـض العلمـاء يقولـون أن " آل محمـدٍ " هـم كـل تقـيٍّ نقـيٍّ ، استنادا إلى الحديث الشريف بهذا المنطوق ، والذى رواه الطبرانى فى الأوسـط عـن " أنـس بـن مالـك " .. وهـو حـديثٌ ضـعيف ... واسـتنادا كذلك الى الحديث الشريف " **العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاء** " وهو ضعيف أيضا ، رواهُ ابن النَّجار عن " أنس " وكذلك ابن عديٍ فى الكامل ...

ولكننا لامـانع أن نأخـذ بهمـا تكريمـا للعلمـاءِ الـسائرين علـى نهـج وسنة رسول اللّه ﷺ ... فإن العالِم يحملُ دعـوةَ الرَّسُولِ ... ويـدعو إلى ما كان يـدعو إليـهِ الرَّسُولُ .. وهـو أمين علـى الـدعوة ... وقـائم بإبلاغها

للناس .. ، فلا مانع من أن يقال أنه يحمل من ميراثِ صاحب الدعوةِ ... فيكون من آله وخاصته ... ، وهو في هذه الصِفَةِ على قدر إخلاصِهِ ونيَّتِهِ للَّه ورسولِهِ ... وحُبِّهِ للَّه ورسوله ... ، لايبتغي بعلمه الدُّنيا ولا الفخرَ ولا الرِّياسة ... وإلاَّ فقد وقع في هوى نفسه .... وأصبح من " أهل الدنيا " ... بل لنا أن نتوسع – وفضل اللَّه أوسع – فنقول إن كل داعٍ إلى اللَّه ورسوله هو من ورثةِ دعْوَةِ رسولِ اللَّه ﷺ ... سواء كان عالماً بكل أمور الدعوة أو كانَ على قدرهِ ... في دعوته إلى أمر معين يُحِبُّهُ اللَّه ورسوله.

ورغم هذا فنحن نتحفَّظُ على قولنا هذا ... وعلى قول من أطلقوا وصفِ " آل محمدٍ " ، على كل من يدعو إلى اللَّه بدعوة محمدٍ ﷺ ....

يقول ﷺ " **سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ** " وهو صحيحُ ، رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن " عمرو بن عوف " ....

والمقصود هنا هو سيدنا " سلمان الفارسيّ " رَضِيَ اللَّه عنه .. وهذا تكريمٌ خاصٌ من رسول اللَّه ﷺ له ، وهو الذي عاني ما عاني في سبيل الوصولِ إلى حيثُ كان رسول اللَّه ﷺ ... لذلكَ ... ولِحِكَمةٍ أخرى يعلمها اللَّه ورسوله ، شرَّفَهُ رسول اللَّه ﷺ بهذه " النسبة " .. وهي خاصة به..

ولو كان كل تقيٍّ نقيٍّ هو مقصود رسول اللَّه تعالى من وصف " آل محمدٍ " لدخل الصحابة كلهم في هذه النسبة ... أو على الاقل لدخل خيار الصحابة فيها ... وما أتقاهم .. وما أنقاهم ، وماكان أعظم

حب رسول اللّه لهم ، وما كان أعظم حبهم له ﷺ ...

فاختصاص " سَلْمان الفارسيّ " بهذه النسبة ... وعدم إطلاقها على من هو مِثْلُهُ تقوىً وورعًا ، يجعلنا نقصر نسبة " آل محمد" على أهل بيْتِهِ وعِتْرَتِهِ الشَّرِيفَة ... وهم الذين منعهم الرسولُ من قبول الصَّدقَاتِ (الزَّكاة) ... وجعل اللّه لهم مصرفًا آخرَ ، حيثُ يقولُ جَلَّ شَأْنُهُ :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] ...

فقد حدَّدَ اللّه تعالى هذا الخُمْسَ مِنَ الغَنَائِمِ لرسولِ اللّه ﷺ وله التَصَرُّفُ فيه لِذَوِى القُرْبَى وغَيْرِهِمْ ، كما تقتضى المصلحة...

ونَزِيدُ كذلك ، أنَّهُ لولا أنَّ المقصود "بآل محمد " هو صِلَةُ النَّسَبِ والمصاهرة .. لما تزوّج " عمر بن الخطاب " من بنت الإمام عليٍّ كرَّم اللّه وجههُ ، ليَدْخُلَ فى هذا النَّسَبِ المُبَارَكِ ... ، وكلنا نعلم من هو " عُمَرُ " تقوىً ، وورعاً ، وفهماً لكِتَابِ اللّه وكلام رسولِ اللّه ﷺ ...

" وابو حامد الغزالى " وغيره .. يقولون أنَّ لِعَصَبَةِ رسولِ اللّه ﷺ - مهما نزلُوا - حقوقٌ على غيرهم من المسلمين فى الاحترام والمحبَّة ، مستمدةٌ من حقوقِ جَدِّهِمُ الأعلى ﷺ .. ، حتى أنَّهُ يعتبر أنَّ مِن التكافؤ فى الزواج أن يتزوج آل محمدٍ من آل محمدٍ ، فجدُّهُمْ واحدٌ .. ، ونورهم واحدٌ .. ، فلا يعلو بعضهم على بعض ...

---

(١) سورة الأنفال آية : ٤١.

ومن المُمْكِنِ أنْ نجمع كُلَّ هذه الاجتهادات فى التعريفِ معاً ..

فنقولُ أن مقْصِدَ رسولِ اللّـه ﷺ بأن العلماء هم ورثة الانبياء .. لابد وأنهم العلماء باللّه تعالى ... العارفون بجلاله وعظمته .. وليس العَالِمُ من قرأ عِلْمًا هنا وعِلْمًا هناك ، وحَفِظَهُ وقال به ، وقلبه خواء ... بل العالم هو الفقيه .. ، ولو كان فقيها حقاً ، لزهد فى الدنيا ، وأقبل على اللّـه تعالى بقلبه وروحه ... وصار للّه وليًا خالصا .. وسواء كان عالِمًا دِراسَةً واجتهادًا ، أو جمعًا وسماعًا ، فلابُدَّ أن اللّـه يعلّمُه بتقواه ، ويعطيه الحكمة من عنده ...

وهذا العلم .. وهذه التقوى .. وهذه الروحانية .. لاشك انها تجد تربتها وبذرتها فى نَسْلِ رسول اللّـه ﷺ وآل بيته ... فإنَّ فيهِمْ من نور ذاته الشريفة ...

فاللّه سبحانه وتعالى يجعلهم أهل اختياره واجتبائه واصطِفائه ..

وهذا مانجده فى غالب من نعرفهم من العلماء الأولياء مثل الشاذلى... والبدوى .. والقناوى .. والمغربى .. والدسوقى .. والدباغ .. والنووى ... وغيرهم ....

وحتَّى منْ كان من العلماء ، ولا نعلَمُ فيه هذا الانتساب الشريف ، فإنَّكَ قد تجد له زلاتٍ فى عِلْمِهِ غيُر هؤلاء .. ، لأن الغالب عليهم العقلانية والتجارة مع اللّـه تعالى ... ، وهو خير ، ولكن الأولون يغلب على كلامهم الروحانية والذوقِ المُحمّدى .... وكلاهما خير ... وكلاهما له دورٌ يؤديهِ بين البشر...

ونشيرُ إلى نقطة أخرى ... تلك وهى أنَّ المعروف والمشهور أن العَصَبَةَ تحتسب من قبل الرجال ... وليست من قِبَلِ النِّساء ...

ولكنَّنا نلاحظ أنَّ النُّورَ المُحَمَّدِيَّ يأتى إلى خَلْقِ اللَّه أيْضَاً مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ ، فكثيراً ممَّنْ كانت أمُّهُ مِنَ الأشْرافِ ، وأبوهُ ليسَ مُنَسَّبًا ... ، تَجِدُ فيهِ أثرَ النُّورِ المُحَمَّدِيَّ على صاحبهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ...

وانظر أنت فى سِيَرِ وتاريخِ آلِ البيتِ المُحَمَّدِيِّ .. لتجدهم جميعاً كانوا رضِيَ اللَّه عنهم علماءَ أتقياءَ ... وأئِمَّةً أعلامًا ومناراتٍ للَّهدى والنُّورِ .. والتاريخ يؤكد هذا ...

ونحن حين نُذَكِّرُكَ بآلِ بيت رسول اللَّه ﷺ .. ماقصدنا إلا أنْ تقترب إلى اللَّه تعالى بحُبِّهم .. والتودُّدِ إليْهِمْ بالدُّعَاءِ .. وكثرةِ الصَّلاةِ على رسول اللَّه ﷺ وعليهم مَعَهُ .. وأنْ يكونَ لَهُمْ فِى قَلْبِكَ من الوفَاءِ والتبجيل مايناسبهم ...

وكل ذلك إكرامًا لجدِّهم الأعلى وامتثالاً لأمر المودةِ فى القُرْبَى .. فإنَّ جَدَّهُمْ شفيعٌ لَهُمْ ووليُّهُمْ وكَفِيلُهُمْ .

يقول ﷺ " **أَوَّلُ مَنْ أشْفَعُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أُمَّتِى أهْلُ بَيْتِى** " وهو من حديث طويل ذكره الطبرانى فى الكبير عن " ابن عمر " ...

ويقول اللَّه تعالى ..﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1]

فإذا كانَ اللّه تعالى قد أكرم الأنبياء وجعلهم ذُرِّيَّةً بعضُهَا من بعض ... وانتهت هذه الشجرة النَّبَوِيَّة المباركةُ بمبعث رسولِ اللّه خاتمِ الانبياء والمرسلين ... وهو مصدر نورِهِم وهُدَاهُم ، أفتعجبُ أن يجعلَ اللّه تعالى لهُ امتدادًا ، في ذُرِّيَّتِهِ من هذهِ الأنوارِ الروحية ...

وتأمَّل في ردِّ الإمامِ عليٍّ كَرَّمَ اللّه وجْهَهُ عندما يسألونه هل خصَّكُمْ الرسولُ ، أنتم يا آلَ البَيْتِ بشيءٍ .... فقال : " لا ، لَمْ يَخُصَّنَا بِشَيءٍ، اللَّهمَّ إلاَّ فِقْهًا آتاهُ اللّه عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ " .. وهذا ما نُرِيدُ الوصولَ إِلَيْهِ ...

فرسولُ اللّه لم يخُصَّ آل البيْتِ بمزيدِ علْمٍ في الشَّرِيعَةِ والرِسَالةِ.. ، بلْ بلَّغَ الناسَ كُلَّهَا ، ودعَى خَلْقَ اللّه كُلَّهُمْ بِلا تَفْضِيلٍ ...

ولكنْ كما يقولُ الإمام " فِقْهًا آتاهُ اللّه عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ " .. هذا ياسيدى أمرٌ آخر ... هذا رزقٌ من اللّه إلى أصحابِهِ ... هذه روحانِيَّةٌ ونورٌ مِنَ اللّه تعالى ، لأحبابه ، ومن يصْطَفِيهِ مِنْ خَلْقِهِ ...

فلا تَخلِطْ بين المعَنَيَيْنِ .. ولا يأتينا نِصْفُ متعلِّمٍ لِيَزْعُمَ أنَّنَا قلنا أن رسول اللّه قد فرَّقَ في دعوته بين آل بيتهِ وبين النَّاس ... ونعوذُ باللّه من هذا الكلام وأمثالِهِ .. ونعوذ به تعالى من عمى الأبصار والبصائر.

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣٣-٣٤.

وما ظنى إلاَّ أنَّ الذينَ قَدْ يعترِضُون على مثل ما نقول ... ما كان اعتراضهم ، إلاَّ عَنْ جهلٍ بنور رسولِ اللّـه ﷺ ومقامِهِ بين خَلْقِ اللّـه تعالى جميعًا... ، ولو اقتربوا من روحانيتهِ وأنوارِه عليه الصلاة والسلام ، لالتزموا جانب الحذر ، وجانب الأدب في الحديث عنه وعن آل بيْتِه ...

ومـاذا نستطيع أن نقول عن واجب الأدب مع رسول اللّه ﷺ....

واستغْفِرُ اللّه تعالى ، وأتوبُ إليْهِ ، مِنْ كُلِّ قَوْلٍ صَدَرَ مِنِّى بِقصْدٍ أو بغير قصدٍ ، وفيه ما لا يرْضَى عَنْهُ اللّه ورسُولُهُ ...

ورَضِيَ اللّه تعالى عن كل آل بيت رسول اللّه إلى يوم الدين ، وعنَّا وعن عباد اللّه الصالحين أجمعين ، من أهل السَّموات وأهل الأراضين ...

- **الأدب مع رسول اللّه :**

الأدَبُ هو حُسْنُ أداءِ حقِّ الغَيْرِ في معاملتهِ بما يناسبُ مقامَهُ وحاله ....

فأنت اذا لم تعرف مقام من تعامله ، فلن تعرف حدود الاحترام الواجب عليك نحوه ... ، وكذلك إذا لم تراع حالَتَهُ من رضًا وغَضَبٍ وظروفٍ ، فلن تعرف ما يناسبُ حالته في المعاملةِ.

هذا تعريف الأدب على إطلاقه ... وواضح أن له ظاهرٌ وهو المعاملة ، وله باطنٌ وهو المحبَّةُ ، أو الاحترامِ ، أو الهيبة .... الخ.

فإذا كان الأدب هو مع رسول اللّه ﷺ ... ونحنُ لا نُدْرِكُ عُلُوَّ مقامِهِ وسُمُوِّ درجته ، فكيف يتسنَّى لنا الأدب مع حضرته ﷺ ...

صحيحٌ أنَّ اللّه جَلَّ وعلا قد علمنا ظاهر الأدب مع رسوله ...

فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾[1] ،

وقال : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[2] ،

---

(١) سورة الحجرات آية : ٢. (٢) سورة النور آية : ٦٣.

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (1)

وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (2)

وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (3)

وقال : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (4)

وقال : ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (5)

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (6)

وقال: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (7)

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ﴾ (8)

---

(1) سورة الانفال آية : ٢٤ .

(2) سورة الاحزاب آية : ٣٦.

(3) سورة الاحزاب آية : ٥٦.

(4) سورة الاحزاب آية : ٥٣ .

(5) سورة الحجرات آية : ١.

(6) سورة الاحزاب آية : ٥٧.

(7) سورة التوبة آية : ٤٤ .

(8) سورة البقرة آية : ١٠٤.

لذلك فقد كان صحابةُ رسول اللّه ﷺ على هذه الأحوال من الأدب معه ...

- فلا يقدّمون بين يديه بالكلام ، إلا إذا أذن لهم ..
- ولا يرفعون أصواتهم في حضرته ﷺ .
- وحديثهم مع الرسول ﷺ محاط بالهيبة والجلال والوقار ...
- ويلبون دعوته لهم ، حتى لو كانوا في الصلاة ...
- وليس لهم اختيار مع أمره ﷺ .. فلا يراجعون أوامره .
- وكانوا يصلُّون عليه في حضرته .. وفي غيبته عنهم ...
- وكانت زيارتهم لبيوته ﷺ ، على قدر الضرورة وبالدعوة منه..

وما كان أعظم أدب رسول اللّه ﷺ معهم ... يباسطهم .. ويتواضع لهم ... ويشاركهم أفراحهم ....ويعزِّي مُصابهم ... ويفرِش رداءهُ الشريف ليجلس عليه أصحابه ، ويهاديهم ... ويقبل هداياهم .. ، ويجزيهم عنها بأفضل منها ..

وما كان أعظم حياءه ﷺ .. فَيُعَلِّمُ جاهلهم برفقٍ ورحمةٍ .. ويعفو عمن يخطئ في حقِّهِ ... ويؤْثِرُهم على نفسه في الطعام والشراب والكساء ... ، ويخفف عنهم جلال هيبَتِهِ ، فيجلس على الأرْضِ ويقول " إنَّما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكّة " ... وما كان أشَدَّ تواضُعِهُ ﷺ... حتى كانَ يَأمُرُهُم ألاَّ يقوموا له ، إذا دخل عليهم .. ، مع أمره لهم بأن يُنْزِلوا الناسَ منازِلَهُم ... ويقول" **إنَّمَا أنا عبْد اللّه ورَسُولُهُ** ..."

ومع هذا ، فقد كان من الصحابة من يقبّل يده الشريفه ... وكذلك قدمه الشريفه كما فعلَ " العاصُ بن الرّبيع " ... ولم يعترض رسول اللّه ﷺ ... بل كان يقول " أخي .. لَعَمْرِي "....

ومنهم من كان يتمسَّحُ بجسدهِ الشَّرِيفِ تَبَرُّكاً به ... ومنهُم من جمع عرقه المبارك ، ليتطيب به ، كأمِّ سليم ، ومنهم من استهداهُ عباءَتَهُ، لتكون له كفنا بعد موته ... ، ومنهم مَنْ شَرِبَ من دَمِّهِ الشريف بعد حجامةٍ له ﷺ ، وهو " عبد اللّه بن الزبير " ، وكذلك "مالك بن سنان"... ومنه من شرب من بوله عليه الصلاة والسلام وهي " أم أيمن"... وما اعترض ﷺ على أحد من كُلِّ هؤلاء..

وعندما حجَّ رسولُ اللّه ﷺ حَجَّةَ الوداع ، أمر الحَجَّامَ فوزَّعَ شعره الكريم على الحاضرين ، حتى كان الصحابيُّ يحتفظ بالشعرةِ والشعرتين في عمَامَتِهِ كما فعل سيدنا " خالد بن الوليد " رَضِيَ اللّه عنه ... وكان لايقاتل في معركة إلاَّ بتلك العمامة ، ولهذا الأمرِ قصة معروفة في " موقعه اليرموك " فانظر إلى كُتُبِ التَّاريخ ..

ورسولُ اللّه ﷺ ... لم يعترض على أيٍّ من الصّحابةِ الذين أظهروا حُبَّهُ بِهَذِهِ الكَيْفِيَةِ.....

نعم هو لم يأمر بها ... ، ولكنه لم يَنْهَ عنها... ، بل هو الذى أمر الحَجَّامَ بإهداءِ شَعْرِهِ للحاضِرِين ...

ورسول اللّه ﷺ يعرف قدر نفسه .. ، ولكنه يتواضع .. ، ويتخذ دائماً مقام العبودية فخراً له ... ، وقد خيَّره اللّه تعالى بين أن يكون نبياً

ملكاً ، وأن يكون نبياً عبداً ... ، فاختار ﷺ العبودية للّه تعالى ...

ورسولُ اللّه ﷺ يعرف أنَّ جاهَهُ عنْدَ اللّه عظيم... وبه عَلَّمَ الأعمى أن يستشفع به عند ربِّه ، أن يعيد إليه بصره ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذِى وابن ماجة والحاكم فى مستدركه عن " عثمان بن حنيف " ، حيث قال للأعمى قل " اللّهم إنِّى أسألك ، وأتوجه اليك بنبيك محمَّد نبيِّ الرحمة ، يامحمد إنِّى توجَهْتُ بك إلى ربِّى فى حاجتى هذه لتُقْضَى لِى ، اللّهم فَشَفِّعهُ فىَّ " ،

وقد ردَّ اللّه تعالى على الأعمى بصره ، ببركة هذا الدعاء ...

ويقول ﷺ " **مَا اخْتَلَطَ حُبِّى بِقلْبِ عبْدٍ إلاَّ حَرَّمَ اللّه جَسَدهُ عَلَى النَّارِ** " وهو صحيحٌ ، ذكره أبو نعيمٍ فى الحلية عن " ابن عمر " .... فهو ﷺ يعرف قدره عند اللّه تعالى بلا شك ....

ويقول ﷺ " إنَّ لِى وزيرين مِن أهلِ السَّمَاءِ ، ووزيرين مِن أَهْلِ الأرضِ ، فوزيراى مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، ووزيراى مِنْ أَهْلِ الأرضِ أبو بكرٍ وعمر " وهو حديثٌ صحيحٌ ، رواه الحاكم فى مستدركه عن " أبى سعيد " ، كما رواه الحكيم عن "ابن عباس " .

فما ظنك بمن كان وزيراه جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ....

إنَّ علينا أن نقرأ ونمحص وندرس سيرَتَهُ ﷺ ... وسير الصحابة رضْوان اللّه عليْهِم ... لِنَتَعَلَّمَ كيف كانوا يتأدبون مع رسول اللّه ﷺ ... وكيف كانوا يوقِّرونه ويحبُّونه ... ويحولون بينه وبين أىِّ أذىً قد يصيبُه فى معركةٍ أو غيرها...

وعندما دخل أبو بكرٍ رَضِيَ اللّـه عنه غارَ ثورٍ خِلالَ الهجْرَةِ .. وتقدَّم رسولَ اللّه ﷺ في الدخول ، ليؤمِّنَ الغَارَ مِنَ الحشراتِ وَخَشَاشِ الأَرْضِ .. ، فوجدَ فِيهِ كُهُوفًا صَغِيرَةً ، فجعلَ يُمَزِّقُ مِنْ ثِيَابِـهِ ، ويَسدُّ بها هـذه الفتحـات .. حتـى بقيـت واحـدةٌ فَـسَدّها " أبـو بكـرٍ " بقدمـه .. واضطجع رسولُ اللّه ، ووضع خدَّه الشريف على فخذِ " أبي بكر " ... وكان في الفتحة ثعبانٌ .. ظلَّ يلدغُ قدم " أبي بكرٍ " .. ، و" أبو بكرٍ " لايحرِّكُ ساكنًا خشية أنْ يستيقظَ رسول اللّه ﷺ ...

ويبكي " أبو بكرٍ " ألمًا وحيرةً ... وتنزل دموعه على خدِّ رسول اللّه ﷺ ، فيستيقظ ، ويعلم بما حدث .. فيتْفِلُ على مكان لدغةِ الثُّعْبانِ .. فيُشْفَى " أبو بكرٍ " .... ببركة ريق رسول اللّه ﷺ ...

ويحكى عن " عمر بن الخطاب " رَضِيَ اللّه عنه .. أنَّ رجلا أتاه شاكيًا رسول اللّـه ﷺ ، قائلا ألا تنصفني يا عمر من صاحبك هذا ...، قال عمر : منْ .. ، قال : محمد .. ، قال عمر : أوَ قَدْ ظلمك ؟؟ ، قال : نعم .. ، قال : فانتظر حَتّى أُنْـصِفَك منه ... ، ودخَلَ عمر بيته ، واستل سيفه ، وضرب عنق الرجل .!!

لاشك أنَّ " عُمَرَ " قد أدرك أنَّ الرَّجُلَ مِن المُنَافِقِينَ ، وأنَّ نفاقه قد ظهر علانِيَة .... ، وإلا لمَا اتَّهَمَ رسولَ اللّـه ﷺ بالجَوْرِ والظُّلْمِ ... ولمَا تحدَّثَ عن رسولِ اللّه بهذا الأسلوبِ المستهتِر ..

وقد أجمع العلماء على أنْ من سبَّ رسول اللّـه ﷺ قد كَفَرَ واستُحِلَّ دَمُّهُ .. وحقَّ عليه القتل ...

ولاتحتجَّ عليَّ بالأعرابيِّ الذى قال لرسول اللّـه ﷺ " إعدِلْ يا محمد " فاحمرَّ وجهُ رسولِ اللّـه ﷺ ، وقال له " ويحك يا أعرابيُّ .. ومن يعدل إذا لم أعدل " ، وقام الرسول ﷺ من مجلسه ..

ولاتقل لى أنَّهُ لم يقتل الأعرابى ... فهذا كان شأنُ رسول اللّـه عليهِ الصلاة والسلام .. العفوُّ والرحمةُ .. وقد كان يعرف المنافقين جميعا.. ولم يقتلهم .. ولم يؤذهم .. بل كان يستغفر لهم ، حتى أمره اللّـه تعالى ألاَّ يصلِّى عليهم .. ولايستغفر لهم ... ،

ورغم ذلك فقد ذكرَ "القاضى عياض " فى " الشِفا " أن الرسول ﷺ قد أمر بقتلِ "كعب بن الأشرف " و"ابن خَطَل" وجارِيَتَيْهِ وغيرهم ممن كانُوا يسبُّون الرّسولَ ، وكان يقولُ لِصحابَتِهِ من يكفينى عدُوِّى " .. وكان القتلُ للسَّبِّ والأذى ، وليس للشرك فقط

أمَّا أصحابه رَضِىَ اللّـه عنهم فقد كانت غيرتهم عليه شديدة .. ولا يتجاوزون عَمَّنْ أخطأ فى حَقِّه ﷺ...

ومن المشهور عن " الإمام مالكٍ " رَضِىَ اللّـه عنْه أنَّهُ كان لا يركبُ فى طرقات المدينة المنورة ، ويقول رَضِىَ اللّـه تعالى عنه : أستحى من اللّـه أن أطأ تربة فيها رسول اللّـه ﷺ بحافرِ دابةٍ ...

ولفتة دقيقة أذكرها هنا ، لتعلم نور أرواح هؤلاء القوم ، عليهم رضوان اللّـه تعالى ... ، فمن المعروف أن رسول اللّـه ﷺ قد جُعِلَ قبره الشريف فى بيته .. ، بيت " السيدة عائشة " رَضِىَ اللّـه عنها ... ثم جُعِلَ قبرُ " أبى بكر " خلفه وعند القدمين الشريفتين ... وكانت " السيدة

عائشة " لاتستتر منهما بنقاب ولاخمار .. ، وكانت تقول : إنَّمَا هُمَا زوجى وأبـى .. ، فلمـا جعلـوا قـبر " عمـر بـن الخطـاب " معهمـا .. اسـتترت رَضِيَ اللّه عنْهَا ....

فـانظر وتأمـل هـذه الأرواح العاليـة .. والأدب الرفيـع .. عـسى أن تلتقط روحك بعض أنوار أرواحهم ....

هـذهِ كُـلُّها مـنْ مظـاهِرِ الأدبِ الواجـبِ مـع رسـول اللّـه ﷺ... وللأدبِ كذلك باطنٌ أىْ أدبٌ باطِنىٌّ .

يذكر البخارى ومسلم فى حديث صحيح ، رواه عن أبى هريرة أنَّ رسول اللّه ﷺ قال " **بَيْنَمَا رجلٌ مِنْ بَنِى إسْرائِيلَ يَسُوقُ بقرةً إذْ رَكِبَهَا ، فَقَالَـت البَقَـرَةُ : إنَّمَا خُلِقْتُ لِلحَرْثِ ، فقـالَ القَـوْمُ : سُبْحَانَ اللّه !! فَقَالَ رسولُ اللّه ﷺ : آمنتُ بِهِ أنا ، وأبو بكرٍ وعمر** " .. وليسا فى القوم ....

تأمَّل هذه الواقِعَة ... رسولُ اللّه يؤمن لأبى بكرٍ ولِعمر .. وهما ليسا فى القوم .. ومقصود " أبى هريرة " هـو أن الرسـول ﷺ آمـن لأبى بكرٍ ولعمر مع غيابهما عن المجلس .... أليس هو يؤْمن للمؤمنين .!!

فـانظر الى هـذه الأرواح المؤتلفـة علـى روح رسـول اللّـه ﷺ حتى كأنهم روح واحدة .. غيابهم كحضورهم .. وموتهم كحياتهم ...

وصدق رسولُ اللّـه ﷺ حيثُ يقـول " **لاتسبُّوا أصْحَابِى .. فلـوْ أنْفقَ أحَدُكُمْ مثْلَ أحُدٍ ذَهَبًا ، ما بلغ مُدَّ أحدِهِم ولا نصيفَهُ** " .

فالقضية إذا ليست قضية أفعال .. ولكن ما وقر فى قلوبهم من

إيمانٍ ، وتصديقٍ ، ومحبةٍ للّـه ، ولرسولهِ ، قد ميّزَهُمْ عمّنْ تلاهم من قرون .. ولاشك أنّ وجودهم وقربهم الماديّ من رسول اللّـه ﷺ والتّشَرُّفَ برؤياهُ والحديثِ معه والتلقّي منه .. والتشرُّفَ بملامسةِ جسدِهِ الشريف .. والتمتع بوجوده ﷺ بجسده ، وروحه ، ونفسه .. لاشك أنّ هذا الشرف ، وهذه القوة الروحية لاتتكرر على مدى القرون ... ، اللّـهم إلاّ منْ أكرَمَهُ اللّـه تعالى ، وافاض عليه ما لانعلم من أفضاله وإنعامه .. ولاحرج على فضل اللّـه ....

وكان الإمام مالك رَضِيَ اللّـه عنه ، وغيره من المحدِّثين .. لايحدثون بحديث رسول اللّـه ﷺ ، إلاّ وهم على وضوءٍ ، وفى زيهم الكامل وعليهم الهيبة والوقار ..

ويقول عبد اللّـه بن المبارك : أنّ عقربًا قد لدغت الإمام مالك ، وهو يحدث بحديث رسول اللّـه ﷺ ، فما حرك ساكنا ، وهو يتلون وجهه من الألم ، حتى انتهى من الحديث وتفرّقَ النّاس ..

ودعنا نتحدث دون ترتيب عن بعضِ أفعالِ الصحابةِ مع رسولِ اللّـه ﷺ وكذلك آل بيته وأصحابه .

يقول عمر بن أبى سلمة : لما نزلتْ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ وذلك فى بيت " أمّ سلمة " .. دعا رسول اللّـه ﷺ فاطمة وحسناً وحسينًا فجللّهم بِكِساءٍ ، و " عليٌّ " خلف ظهره .. ثم قال "اللّـهمّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِى فَأَذْهِبْ عَنْهُم الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ".

وكان سيدنا أبو بكر رَضِيَ اللّه عنه يقول " ارْقُبُوا مُحَمَّداً فِي أَهْلِ بَيْتِهِ " .

وفَرَضَ " عمر بن الخطاب " في العطاء " لأسامة بن زيد" أكثر مما فرض لابنه " عبد اللّه " وقال له " كان زيدٌ أحبَّ إلى رسولِ اللّه مِن أبيكَ ، وأسامةُ أحبّ إليْهِ مِنْكَ " .

وكان "أبو بكر الصديق " و "عمر بن الخطاب " في خلافتيهما يقَرِّبَان " السيدة حليمة السعدية " مرضعةَ النبي ﷺ ، ويبسطان لها ردائهما ، لتجلس عليه ، ويقضيان لها كل حاجاتها.. ، أدبًا مع رسول اللّه ﷺ .

ويذكر القاضي " عياض " في كتابِهِ الْموَثَّقِ " الشّفَا بتعريف حقوق المصطفى " .. أنَّ " أبا جعفرِ المنصور " الخليفة العباسي عندما زار روضة رسول اللّه ﷺ ، سأل " الإمام مالك " رَضِيَ اللّه عنه " يا أبا عبد اللّه أأستقبِلُ القبلةَ وأدعو ، أم أستقبل رسول اللّه ﷺ ؟؟ " فقال " الإمام مالك " " وَلِمَ تَصْرِفُ وجهك عنه ، وهو وسيلتك ، ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى اللّه تعالى يوم القيامة ؟ ، بل استقبلْه واستشفعْ به فيشفّعَهُ اللّه ... " ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[1] ، وحرمته صلى اللّه عليه وسلم حيًّا كحرمته ميتاً ...

---

(١) سورة النساء آية : ٦٤ .

وعندما احتضر سيدنا " بلال بن رباح " نادت زوجته واحزناه ...
فقال بلال : بل وافَرَحاهُ .. غداً ألقى الأحِبَّةَ .. مُحَمَّدًا وحِزبه ..

ويروى " أبو القاسم القشيرى " أن " العمرو بن الليث " المشهور " بالصَفَّارِ " وهو من قوَّاد جيوش خُراسان قد رُؤِىَ فى المنام .. فسئل ما فعل اللَّه بك ؟؟ فقال .. غفر لى .. فقيل : بماذا ؟؟ قال : صعدتُ مرَّة ذروة جبلٍ، استشرف جنودى ، فأعجبتنى كثرتهم ، فتمنيت أنِّى حضرتُ رسولَ اللَّه ﷺ فأعنتُهُ ونَصَرْتُهُ ... فشَكَرَ اللَّه لى ذلك .. فغفر لى ...

ويقول " البَّراء بن عازب " رَضِىَ اللَّه عنه : " لقد كنتُ أريدُ أن أسأل رسول اللَّه ﷺ عن الأمر ، فأُؤخِّرُ سِنِينَ من هيبته " ..

ودعنى أحدثك عن نوعِيَّةِ هؤلاء الصحابة المباركين ... لتعرف أىَّ رجالٍ هُمْ .. ولماذا قال عنهم رسول اللَّه ﷺ " **خَيْرُ النَّاسِ قرْنِى ثم الذِين يَلُونَهُم** .. " إلى آخرِ الحديث الصحيح ، الذى رواه الحاكم والترمذى عن "عمران ابن حصين " ، وقد روى قريبا منه البخارى ومسلم وأحمد عن " ابن مسعود " وعن " عائشة أم المؤمنين" رَضِىَ اللَّه عنهم جميعاً ...

الصحابى الجليل " ثابت بن قيس " ، استشهد فى موقعة اليمامة فى حرْبِ الرِّدَّةِ ، ورُؤِىَ فى المنام يقول لمن رآه ، أبلغ " خالد بن الوليد " أنَّ دِرْعى قد سَلَبَه فلان ، وخبَّأهُ فى مكان كذا وكذا ، فاذهب وخذهُ منهْ ، وابلغ " أبا بكرٍ الخليفة " بأن يبيع درعى هذا ، ويسدِّدَ ديْنِى وهو كذا لفلانٍ عندى ، وأن عبدى فلان قد اعتقته...

وأبلغ الرائى " خالدَ بن الوليد " .. ووجدوا الدرع كما وصف ..

وأبلغ " أبا بكر الصديق " فسدد دينه ، واعتق عبده ...

وصيَّةٌ بعد المَوْتِ ينفذها " أبو بكرٍ الصديق" !!!

يقول " الإمام مالك " رَضِيَ اللَّه عنه : ما أعلم وصيَّةً أوصى بها صاحبها بعد موته ، قد أُمضِيَتْ غير هذه ...

فانظر - رحمك اللَّه تعالى وإيانا - إلى أرواح هؤلاء الصَّحابة... فالحياة والموت عندهم سواء .. أحياء دنيا وأخرى ...

وكان رسول اللَّه ﷺ يقول عن سيدنا طلحة .. " **طَلْحَةُ شَهِيدٌ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ** " وقال : " **طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَىَ نَحْبَهُ** " ، وهما حديثان صحيحان ، رواهما ابن ماجة والترمذى عن " معاوية " وعن " جابر " و " أبى هريرة " وغيرهم ...

فالأدَبُ مع رسول اللَّه ﷺ يستلْزِم بالضرورةِ الأدَبَ مع آل بيته الكرام .. والأدَبَ مع صحابته الأبرار .. وتوقيرهم .. ومحبتهم .. ولايكون ذكرهم ، والحديث عنهم إلاَّ بالتوقير والمحبة والاحترام .. ، ولاننظر إليْهِمْ على أنَّهُم رجالٌ مثلنا .. أرواحهم كأرواحنا .. ونفوسهم كنفوسنا .. وعيوبهم كعيوبنا .. فهؤلاء قد فازوا بالتربية المحمديَّة .. وتشرَّفوا بالرؤية والصُحْبَةِ المُحَمَّدِيَةِ ، وتشبَّعُوا بأنوارِ الوحْى على رسولِ اللَّه ﷺ .. ونور ذاته الشريفة ، ونقلوا كتاب اللَّه تعالى إلَيْنَا مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ نُطْقًا وكتابةً .. وأوصلوا إلَيْنا أحاديثه ، وأفعاله ، وسُنَّتَهُ .. ونَشَرُوهَا على الأُمَمِ .. وتركوا أموالهم وديارهم فى سبيل اللَّه ، وفى سبيل نصرة دينه .. وحاربوا على قِلَّتِهِمْ جُيُوشًا وجحافلَ لا قِبَلَ لهم بها ، لَوْلا نصر

اللّه لهم .. فأى فضل لهم .. ، وأية كرامةٍ ، نتحدث بها عنهم أكثر من ذلك .. رَضِيَ اللّه تعالى عنهم أجمعين ، وعن عباد اللّه الصّالحين ، ونحن معهم بفضل اللّه تعالى ورحمته ، فضلاً منه وإحساناً ....

وان كنا قد تحدثنا عن ظاهر الأدب الواجب مع رسول اللّه ﷺ فإن الحديث عن الأدب الباطن معه عليه الصلاة والسلام أجَلُّ وأخطر .. ولا نهاية لدرجاته ...

فإنما يكون أدبك الباطن معه ، على قدر معرفتك ، وحبك لِباطن أنواره ﷺ ... ، وعلى قدر إحْسَاسِك ، وشعورك ، ويقينك ، بسريان نوره عليه الصلاة والسلام فى باطنك .. على قدر ما يكون أدبك معه ...

ولاتَظُنَّ أنَّا قد جِئْنَا بغريبٍ ولاشاذٍ .. ، فأنت فى كل صلاةٍ تصلى عليه صلاة الحاضر ، وتقول .. السلام عليك أَيُّهَا النَّبِىُّ ورحمة اللّه وبركاته ... ، وتأمل فى اللفظ تفهم مقصودى ... فهل تخاطب غائباً أم حاضراً !!! ......

وإذا جاز لك أن تخاطبه ﷺ وأنت فى الصلاة ...، فهل يجوز أن تخاطبه فى غير الصلاةِ !!... فتصلِّى عليه فى حضرة شهوده ﷺ !!!..

وهل حضرةُ شهوده تكون عند الصلاة عليه فقط ، أم عند كُلِّ برٍّ وأداء كل عملٍ من سننهِ وهديه ﷺ .!! وهل يخلو وقتكَ من سُنَنِه وآدابه ، ظاهراً باطِناً ، ليلاً أو نهاراً ...!!!

ونمسك هنا عن الكلام ... فليس كل علمٍ بالتعلم .. وليس كل رزق بالسعى إليْهِ .. فهناكَ رزقٌ تسعى إِلَيْهِ .. وهناكَ رزقٌ يسعى إِلَيْكَ ..

والـلَّـه تعالى ، هو الرزَّاقُ الفَتَّاحُ العَلِيمُ ، وفضْلُ اللَّـه واسِعٌ .. وكرَمُهُ عظيمٌ .. فاقصد وجهَ اللَّـه يُعَلِّمْكَ .. ويفضُ عليكَ ويرزقْكَ .. ويباركْ لك .. ويَزَكِّيكَ أنت ، وما تفعل ...

• الفرح بمولده ﷺ:

بعد أن تعرضنا لنفحات أنواره ﷺ في الكون كله ، لنا ملحوظة صغيرة ....

فإن من أحبَّ شيئاً .. أكثر من ذكره .. وعظَّمَهُ .. وعظَّمَ آثاره .. وأكثر الحديث عنه .. ولا يجد مناسبة للتعبير عن هذا الحُبِّ إلاَّ اقتنصها ...

ويوم مولد رسول اللّه ﷺ .. إهتزَّ له ديوان كسرى ، وتحطمت بعض شرفاته ، وانطفأت نيران المجوس ، وحُجِبَ عن الشياطين الصعود إلى السموات لاستراق السمع ، كما جاء في القرآن الكريم ، وتقول السيدة " آمنة " أنَّها رأت بمولده نوراً ، أشرق بين المشرق والمغرب...

فهذا " محمدٌ " .. سيد ولد آدم ... وإمام المرسلين ... ونور هداية اللّه تعالى .. وقد اكتملت الصورة المحمديَّةُ بين الروح النبوية العظمى ، وبين الذات الكاملة المطهَّرَة ...

وفرحت بمولده ﷺ كُلُّ الأكوان .. ، فإنه رحمة اللّهِ تعالى للعالمين .. وهو الذى كلَّمَتْهُ الجمادات والحيوانات ، كما تروى السيرة ... قبل البعثة وبعدها ...

وهو محل نظر اللّهِ تعالى ، وعنايته ، منذ ولادته ﷺ .. فشَقَّ الملِكُ له صدره وهو طفلٌ ، كما نعلم ... ورعاه رَبُّهُ بالأَدَبِ ، وحَبَاهُ بالخُلِق العظيم منذ الطفولة ...

ونحن المسلمون أتباع محمد ﷺ .. أوفر الناس حظاً من خيره ، وأرفع الخَلْقِ ذكراً برسالته ، ولله الحمد في الأولى والآخرة ...

وإظهار التعظيم لرسول الله ﷺ أمرٌ ضروري ، في حدود شرع الله وما أمرَ به رسوله ﷺ ، بحيث لا نُفْرِطُ ولا نُفَرِّطُ ...

والسعادة والفرح بمولده ﷺ في قلب كل مؤمن يحب محمدا ﷺ ... ، وسواءً أظهر هذا الفرح أم لم يظهره .. فإنه في قلبه وروحه .. فَرِحٌ بمحمدٍ ﷺ .. ، نعمة الله العظمى عليه .. ورحمة الله المهداة إلينا ...

وإن تجَاوَزَ هذا الفَرَحُ والسرور قلب العبد المؤمن .. فجمع إخوانه وأحبائه .. وذكر الله تعالى وصلَّى على نبيِّهِ ﷺ .. وأطعم الطعام للفقراء والمحتاجين ، ووسَّعَ على أهل بيته .. وتأسى بسيرته .. وذَكَّرَ من كان ناسياً من المسلمين .. وجَمَعَ من كان ذاكراً .. وتعاونوا جميعًا على البر والتقوى ... وصبغوا هذه الليلة بالذكر والصلاة على رسول الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .. وأطعموا الجائع .. وستروا العارى .. وجعلوا هذه الليلة ليلة من أيام الله تعالى .. بلا تجاوزٍ لأوامر الله ورسوله .. ولا تَشَبُّهٍ بغيرنا من الملل الأخرى .. ولا إطراءٍ خارجٍ عمَّا أُمِرْنَا به ..

أفيكون هذا بدعة وضلالة ، ونِيَّـةُ الناس وغرضهم هي التذكير بالله ، ورسوله ، والتأسِّي بسيرته وأدبه . !!!

صحيح أن المطلوب من المسلم أن يكون هذا الفرح وهذا التأسى برسول اللّـه ﷺ ، والذكر ، وعبادة اللّـه تعالى فى كل ليلة ، وفى كل وقت ...

ولكن إذا قَصُرَ جُهْدُ المسلمين عن هذا ، وجعلوا مناسبات روحِيَّةً، يستزيدون فيها من العبادة والذكر ، وتعويض ما يفوتهم من ذلك فى كُلِّ الأيام .. فهل نقول لهم ولا هذه !! ، لاتفعلوها فإنَّهَا مُنْكر .. واجعلوا يوم مولده كأى يوم من العام !!!

فبدلاً من أن نستزيد من هذه الإحتفالات ، ونجمع الناس لها .. ونأخذ بأيديهم ، ونعلِّمَهُم ذِكْرَ اللّـه تعالى .. ونذكِّرَ ناسِيهم .. ونعين ضعيفهم .. ونُقَوِّىَ هِمَمَهُم ، ونزيد من حبهم للّـه ورسوله .. نقول لهم ، هذه بدعة فتفرقوا !!!

وهؤلاء الذين ينادون بأنها بدعةٌ ، يطيلون فى خطبة الجمعة فى المساجد ، حتى يمَلَّ الناس ، فإذا سألتهم ، قالوا نحن نعلمُ أنَّ السنة الشريفة تأمُرُ بِقِصَرِ الخطبة .. ولكن هذه فرصتنا ، فالناس لايحضرون المساجد إلاَّ يوم الجمعة ، فنحن نغتنم هذه الفرصة للدعوة والتعليم ...

ومعنى هذا انهم يخالفون سُنَّةَ رسول اللّـه الصريحة الواضحة بدعوى حرصهم على الدعوة والإرشاد عندما رأوا ازدحام المساجد بالمصلِّين يوم الجمعة ....

فإذا كانت هذه نِيَّتُهُمْ وقصدهم ومبدؤهم .. وهو الجمعُ على اللّـه .. والدعوةُ إلى اللّـه ... فليعمدوا إلى هذه الجموع فى المولد ،

وما شابهه ويطهروها من البدع والضلالات .. ويعلموا الناس دينهم ، وما يرضى عنه اللّه ورسوله ...

والقائلون بأنها بدعة .. وكل بدعة ضلالة .. قد جانبهم التوفيق ...

فإن المقصود بالبدعة الضالّة هى ما كانت تَعَبُّدِيَّةً ليس لها أساس من الشرع .. وليست من جنس الأوامر الشرعية ..

وقد صنَّفَ عُلماء الفقه مفهوم البدعة إلى أربعة أقسام .. ما بين الحرام .. إلى المستحبِّ المطلوب .. وكلُّها تحت مسمى البدعة ...

والاحتفال بالمولد النبوى الشريف ليس اختراعًا جديدًا لعبادة ، ولكنه إظهار لمَحَبَّةِ رسول اللّه ﷺ ، وتذكير الناس به ، وتعظيم قدره ﷺ ، وشكر اللّه على هذه النعمة العظمى بالزيادة فى أوجه البرِّ والتقوى ...

وكم من بدعة ظهرت فى الإسلام منذ عهد الصحابة ، وما بعدهم .. ، وقيل عنها إنها بدعة حسنة ، باعتبار مسبباتها ، ونتائجها ... وعلى سبيل المثال :

- جمع القرآن وكتابته .. على عهد الصحابة .
- جمع الأحاديث النبوِيَّة وتصنيفها وتدوينها .. على عهد بعض الصحابة والتابعين ومن تلاهم.
- جمع المصلِّينَ قِيَامَ الليل فى رمضان على إمام واحد ، وقال عمر بن الخطاب " نِعْمَتْ البدعة هذه " .

- جمع الناس على صلاة التهجُّدِ فى عَصْرِنَا ، والصلاة جماعة بها.
- ختم القرآن فى صلاة القيام فى رمضان ، والدعاء جماعة بعد ختمه ...
- الدعاء جماعة ليلة القدر ، وتأمين الناس على دعاء الداعى ...

والعلماء لم يستهجنوا هذه البِدَع ، ولم يرموها بالضلال والمنكر .. ، فلمـــاذا خُـــصَّ الاحتفـــال بالمولـــد الـــشريف بهـــذا الاتِّهام .. ، والعلماءُ يستطيعون أن يتخذوا منه منابر للدعوة والهدى !! فـضلا عـن إيقـاظ هِمَـمِ المـسلمين ، وتَـذَكُّرِ ناسـيهم ، وإشـاعة الفـرح ، والسرور ، والروحانية فى الأمة الإسلامية كلها !!

والقائلون بأن هذا الأمر لم يكـن علـى عهـد رسـول اللّـه ﷺ ولا صحابته .. نشير لهم إلى أمرين :

الأول : أن رسول اللّه ﷺ قال عن صومه يـوم الاثـنين مـن كـل أسبوع " **ذَاكَ يَوْمُ وُلِدْتُ فِيهِ** " ...

وقد خَصَّ رسول اللّه ﷺ " يوم عاشورا " بالصوم ، وقال " **ذَاكَ يَوْمٌ نَجَّى اللّه فِيهِ مُوسَى مِنَ الغَرَق** " ...

وعن تعظيم يوم الجمعة قال ﷺ أن فيه تمَّ خَلْقُ آدمَ عليْهِ السلام.

فرسول اللّه ﷺ يحتفل بهذه الأيام تعظيماً لشعائر اللّه تعالى فيها ...

وتواضع رسول اللّه ﷺ معروفٌ مشهودٌ بِهِ .. فما يدعو الناس

للاحتفال بمولده ﷺ.. ولكنه يحتفل به وحده ... فيصومه .. ويذكُرُ أنه قد وُلِدَ فيه .. ويصوم ﷺ هذا اليوم .. ويتركك أنت وحبك له .. هل تجعل لهذا اليوم اعتباراً خاصاً عندك أم لا ...

تمامًا كما كان يأمر أصحابه بألاً يقوموا لمقدمه ﷺ .. وكان "حَسَّان بن ثابت" ، يقوم لقدومه عليه الصلاة والسلام .. وما نهاه الرسول ﷺ .

ويقول"حَسَّان " رضى اللّه عنه فى حضرة الرسول ﷺ :

قِيَــامِى للعَزِيزِ عَلَىَّ فَرْضٌ   وَتَرْكُ الفَرْضِ مَا هُو مُسْتَقِيمُ
عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ وَفَهْمٌ   يَرَى هَذا الجَمَال وَلايَقُومُ

فلاشك أن لِصيام رسول اللّه ﷺ ، لهذه الأيام ، إشارة الى تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، لسيرة وأحداث من سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. فإن عَظَّمْتَ أنت يوم مولده .. فما عليك من بأس .. وشكر اللّه لك بلاشك .

الأمر الثانى :

لقد كان حب الصحابة لرسول اللّه ﷺ ، يفوق الوصف والحدود وما كان يغيب عنهم ولايغيبون عنه ، لا حيًا ولابعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وحَبُّهُمْ كان على اتصال بمَيِّتِهم ، وقد سبق أن ذكرنا لك أن أبا بكرٍ الصِدِّيق قد أنفذ وصية صحابىّ ، و قد أوصى بها منامًا بعد موتِهِ ،

وأرواحهم معلّقةٌ باللّه ورسوله .. ، فمن منهم كان محتاجاً للتذكير باللّه ، وجمع إخوانه ليذكّرَهُم بِمَوْلِدِهِ ﷺ !!

أولَئِك قومٌ كانت حياتهم كلها ذكر للّه وصلواتٌ وقُرْبَى ... وهذا عصرٌ .. ، وما نحن فيه عصر آخر .. ، ونحن في أشد الحاجة لِمَنْ يُذَكِّرُنا باللّه ورسوله ....

أما الذى يتمثل بقول رسول اللّه ﷺ " **لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَت النّصَارَى المَسِيحَ بنَ مَرْيَمْ** " وقوله ﷺ " **لا تَجْعَلُوا قَبْرِى عِيدًا** " .

فقد خانه الفهم والتبس عليه الأمر ...

فمن احتفل بمولده ﷺ .. فما أطرى رسول اللّه كما أطرت النصارى المسيح بن مريم .. وما قد جعل قبره عيداً ...

فما قال مسلم منذ بعثته ﷺ ، وحتى اليوم أن محمداً إلهٌ ، ولا هو ابن اللّه ، وما جعل صورة لمحمدٍ علَّقَها في منزله ، ولاركع ولاسجد له .. ، ولاذهب إلى قبره فسجد وركع له .. ، ولاذبح على قبره ... ، والحمد للّه رب العالمين ...

فالإسلام محفوظ باللّه ، والإيمان في القلوب محفوظ بنور اللّه تعالى في الفطرة عند المسلمين ..

وعلى العموم : فإن الإعتراض على إقامة المولد لم يحدث إلاّ من بعض العلماء ، في القرن الثاني عشر الهجرى ، بينما الإحتفال به يقام من قبل ذلك بقرون وقرون ، ولم يعترض عليه أحد من العلماء .. ،

وهذا يلفت الإنتباه ..

وقد ذكر "ابن تيمية الحَرَّانِى" فى كتابه " إقتضاء الصراط المستقيم " ما نَصُّهُ " وكذلك ما يحدثه بعض الناس إمَّا مضاهاة للنصارى فى ميلاد عيسى عليه السلام ، وإمَّا محبة للنبى ﷺ وتعظيماً له ، واللَّهُ قد يثيبُهُم على هذه المحبة ، والاجتهاد ، لا على البدع " ، ثم قال فتعظيم المولد ، واتخاذه موسمًا قد يفعله بعض الناس ، ويكون له فيه أجرٌ عظيم، لحسن قصده ، وتعظيمهِ لرسول اللَّه ﷺ كما قدمته لك " ...

وأول من جعل المولد النبوى احتفالا رسميا فى دولته ، كان هو الملك " المظفر أبو سعيد كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين " .

وهو أحد ملوك منطقة " إربل " ، وكان عادلا حكيما شجاعا ، وله دور مشكور فى تعمير الحرمين الشريفين ، وتمهيد الطريق اليهما ، وهو الذى عَمَّرَ الجامع المظَفَّرى بسفح " قاسيون" ، وأقام دورا للضيافة للمغتربين ، وافْتَكَّ كثيرًا جِدًّا من أسرى المسلمين لدى الفرنجة، ودفع عنهم فديتهم ..

والمؤرِّخون يجمِعون على صلاحِه وتقواه وعِلمِهِ .

وهو غير من ذكرهم " الذهبىُّ " فى " ميزان الاعتدال " بنفس الاسم وهم :

- المظفّر بن أردشير الواعظ .
- المظفّر بن سهل المعروف بعابد الشطّ .
- المظفّر بن عاصم .

وكما أن بعض المُحْدَثِين لايوافقون على اقامة المولد النبوى ، فكذلك الكثير من علماء المسلمين الأجلاء الأفاضل العارفين باللّه تعالى فى كافة الدول الإسلامية من المغرب إلى الهند يستحبونه ، ويؤيدونه ...

ونحن مع جمهور العلماء .. لامع القِلَّةِ الشاذَّةِ منهم ... ، فإنَّ الأُمَّةَ الإسلامِيَةَ لا تجتمعُ على باطِلٍ .. كما قال بذلك رسول اللّه ﷺ ...

وكُلُّ اجتماعٍ على طاعة اللّهِ تعالى ، وحُبٍّ رسوله ﷺ ، فيه الالتزام بشرع اللّه والسُّنَّةِ وإظهار الفرح والسرور على المسلمين ، بما يرضى اللّه ورسوله .. فنحن نرحِبُ بِهِ سواءً كان مولد رسول اللّه ﷺ أو مولد أحد من بيت النبوة أو أحد الأولياء الصالحين ....

فما قصد المسلمون بذلك إلاَّ وجه اللّهِ تعالى و محبَّة رسولِهِ ومحبَّة آل بيتِهِ ، ومحبَّة الأولياء والصالحين ... وكُلُّ هذا للهِ تعالى .. فإن اجتمعوا على ذلك ، فيجب أن نستفيد من هذا الاجتماعِ ونزيدَ فى الدعوةِ إلى اللّه .. لا أن نُفَرِّقَهُم إلى اللهو فى الدنيا والانشغالِ بالشهواتِ .

هذا بِشَرْطِ أن نجتنب البدع فيها ، وأن يكون رائد المحتفلين هو القرآن والسنة والذكر ، وإطعام الطعام .. كما أمر اللّه ورسوله .

رزقنا اللّه تعالى وإياك حسن الأدب .. وتمام التأدُّب مع رسوله ﷺ وآل بيته وصحابته أجمعين ... وعلَّمَنَا مِنْ فضْلِهِ حقَّ رَسُوله عَلَيْنَا فِى التَّعْظِيمِ والتوْقِيرِ ،

ورزقَنا مِنْ جُودِهِ وإِحسَانِه حقيقة محبته ظاهراً باطناً ... وجعلنا وإياكم من خيار محبيه .. ومن أصدق مجيبيه .. وجعلنا جميعا فى كِتَابه ﷺ صلاةً ، وتسليماتٍ ، وبركاتٍ ، ورحماتٍ ، ورضوانًا .. ورضوانٌ مِنَ اللَّه تعالى أكبر ، عليه وعلى آله وصحبهِ ، و كُلِّ ولِىٍّ ، وكُلِّ تقِىٍّ ، وكُلِّ مؤمِنٍ ومؤمنة .... والحمد للَّهِ ربِّ العالمين ...حتى يرَضىَ عنا .. فنكون ممن رَضِىَ اللَّه عنهم ورضوا عنه .. وذلك هو الفوز العظيم ....

وهذا الباب لانهاية للكلام فيه .. فنكتفى بهذه الإشارات .. غير نقطة أخيرة نشير إليها باختصار ألا وهى :

- **ميراث رسول اللّه :**

فلعل سائلاً يسألْ فيقول : إنّ رسول اللّه ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ...، وصحابته . والتابعون .. وخير القرون قد أفْضوا إلى ربِّهم .. ، وآلِ البيتِ المُحَمَّدِىَ .. قد طال العهد بينهم وبين جَدِّهِم ... وازدادت الفتن .. وعمّ الفساد ... فأين نحن من هذه الأنوار .. وأين هذه الأنوار منا .. !!!

نقول وباللّه التوفيق :

ما كان اللّه تعالى لِيُخْلِىَ أكوانَهُ من ذِكرٍ له حقٍ .. وآيةٍ له بَيِّنَةٍ .. ولاتقوم السَاعَةُ وعلى الأرضِ من يقول اللّه .. اللّه ..

يقول ﷺ " **لاتَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالُ فِى الأَرْضِ : اللّه .. اللّه** " .. حديث صحيح ، رواه أحمد ومسلم والترمذى عن " أنس " وقال ﷺ : " **وَلا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللّهِ وهُمْ ظَاهِرُونَ** " وهو صحيح ، رواه الشيخان عن " المغيرة " .

ويقول ﷺ : " **أُمَّتِى أُمَّةٌ مُبَارَكَةٌ ، لايُدْرَى أَوَّلُهَا خَيْرٌ أَوْ آخِرُهَا** " .. حديث حسنٌ ، رواه ابن عساكر عن " عمرو بن عثمان " مرسلا...

ويقول ﷺ : " **لَنْ تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلاً مِثْلُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ : فَبِهِمْ تُسْقَوْنَ وبِهِم تُنْصَرُونَ ، مَا مَاتَ منهمْ أَحَدٌ إلاّ أَبْدَلَ اللّه**

مَكَانَهُ آخر " .. وهو حديث حسنٌ ، رواه الطبرانيّ في الكبير عن " أنس " ... وفي رواية " ثلاثين رجلا " ،

وقال : "الأَبْدالُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ ثلاثُونَ رَجُلاً .. قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ ، أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلاً " وهو صحيح ، رواه أحمد في مسنده عن " عبادة ابن الصامت ".

فلا تخلو الأرض .. ولنْ تَخْلُو من مُوحِّدٍ .. وذاكرٍ للَّه تعالى .. وداعٍ إليه جَلَّ شأنه ....

وقد مَدَحَ اللَّه هذِهِ الأمَّة بدعوتهم إلى الخير ونهيهم عن المنكر ، حيث قال جل شأنه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (1)

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (2)

فقارئُ كتابِ اللَّهِ تعالى .. ، والناطِقُ بحديثِ رسولِهِ ﷺ ...، ومعلم النَّاس الفقه والأحكام الشرعية .... ، وكل داعيةٍ إلى اللَّه ورسولِهِ .. ، وكل ناصحٍ للَّه ورسوله .. ، وكلُّ آمرٍ بمعروفٍ .. ، وكل ناهٍ عن منكرٍ ... ، كلُّ هؤلاء هم حملة دعوةِ الإسلام ، ويتحدثون بميراثِ رسولِ اللَّه ﷺ .. ، وجزاهم اللَّه عن الإسْلام خَيْرًا ...

وكذلك كُلُّ تقيٍّ نقيٍّ عابدٍ مخلصٍ ذاكرٍ مسبحٍ للَّه تعالى .. هو من حَمَلَةِ ميراثِ نبوة ورسالة رسول اللَّه ﷺ ...

---

(1) سورة آل عمران آية : ١١٠.   (2) سورة التوبة آية : ١٢٢ .

والصِّنْفُ الأول: هم دعاةٌ علماءُ بشريعة اللّه وسُنّةِ رسولهِ ،
والصِّنْفُ الثانى : عُمالٌ بكتابِ اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ...

وقد يجتمع الصنفان فى رجل واحد ، فَيُتِمُّ اللّه عليْهِ نعمته ظاهرةً وباطنةً ، فيكون عالِمًا بشرع اللّه تعالى وعالِمًا به جَلَّ شأنه ...

وليس مقصودنا من هذا التصنيف .. أنَّ العابد الذاكر للّه تعالى قد يكون جاهلاً بالأحكامِ ، بلْ كِلاهُمَا - الصِّنْفُ الأول والثانى - لابُدَّ ، وأن يكون عالمًا بحدود الحلال والحرام والسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، فلا يبتدع ولا يُفَرِّطُ .. ، ولكن مقصودنا أنَّ لِكُلِّ واحدٍ منهما رسالة ، يُتْقِنُها ، ويدعو إليْها .. فالعلماء بالشَّريعةِ يُحَدِّثُونكَ بالأسانيدِ ويفَنِّدُونَ أقوالَ الأئِمَّةِ وتصانيفهم .. ويتحدثون بالآراء المختلفة وهكذا .... والعابدون الذاكرون قد لايكون لهم باعٌ فى هذه المسائل ، وإنَّمَا هُمْ قائمون بدعوة النَّاسِ إلى ذكر اللّه ، وتقديسِهِ ، وتربيَةِ نفوسهم ...

وعلى أيَّةِ حالة فالصِّنْفانِ لابُدَّ ، وأن يكون لهما ميزانٌ ظاهرٌ .. فلايَتَعَدُّون حدود اللّه تعالى .. ولابد أن يكونوا زهادًا فى الدُّنْيا .. خالصين فى سلوكهم إلى اللّه تعالى ... ولا بُدَّ أن يكونوا أسوةً حسنةً .. وقدوةً صالحةً ...

فمن ادَّعى العِلْمَ ، ولمْ يَزْهَدْ فى الدُّنْيَا ، ولايرى أنَّها لا تسوَى عِنْدَ اللّه جناحَ بعوضَةٍ .. فَمَا هُو بعالِمٍ ولافقيهٍ ومنْ ابتغى منهما السُّمْعَةَ والشهرَة فى الدُّنْيَا ، فما لهُ عِنْدَ اللّه وزنٌ ولا قدرٌ ... فإنَّمَا هُوَ يُطِيعُ هَوى نَفْسِهِ لا غَيْر .. والأعْمَالُ بالنِّيَاتِ كما قال ﷺ ، فمن كانت هِجرَتُهُ

إلى اللّـه ورسـولِهِ فهجرَتُـهُ إلى اللّـه ورسـوله ، ومـن كانـت هِجْرَتُـهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُـهَا او امرأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرتُهُ إلى مَا هاجر إليه ...

وما كان كُلُّ صَحابَةِ رسـول اللّـه ﷺ حُفَّـاظًا لِكُلِّ كِتَابِ اللّـه ، ولا كانوا كلهم يروون كل أحاديث رسول اللّه ﷺ... ولكِنَّهُم كانوا كلهم حافظين لحدود اللّـه وأحكامِهِ ، وعاملين بسنة رسـوله ﷺ .. كـل علـى قدرِ طاقته وفهمه ...

وبعد انتقال رسولِ اللّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى... ما كان يتعرض للفُتيا للنَّاس ، إلاّ أقلّ القليل من الصحابة ، بلْ كانوا يتدافعون الفتيا ولايعرِّضُون أنفسهم لها ... وذلك من شِدَّةِ خَوْفِهِمْ مِنَ اللّه تعالى .. وتَحَسُّبًا لِخَطإٍ غيرِ مقصودٍ منهم قد يودى بهم ... وكُلُّ هذا احتراما لكتاب اللّه تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ ، وكان " أبو بكر " يستشير كبار الصحابةِ وعلى رأسهم " عمر بن الخطاب " .. كما أن " عمر " يستشير " الإمام على وابن عباس " وغيرهم .. وقد يحدث أن يختلفوا .. ولكن اختلافهم ، لا يزيدهم إلا ورعاً واحتراماً ومحبةً لبعضهم البعض...

وعند جمع القرآن .. ما كانوا يكتبـون آيةً إلا بـشاهِدَينِ عَدْلَين .. حفظاً وكتابةً .. حتى كانـت آخـر سـورة التوبـة التـى شـهد بهـا " خزيمـة " كما سبق ذكره من قبل ... رَضِيَ اللّه تعالى عن ساداتنا الكرام البررة ..

وكان هذا الحرص نفسه فى تدوين أحاديث رسول اللّه ﷺ ..

حتى أنهم وضعوا عِلْمًا جديدًا اسمه الجَرْحُ والتَعْدِيلُ ، وذلك لتوثيق الحديث والحكم على صِحَّتِهِ ، ومدى عدْلِ الرُّواة ، وتسلسلهم ، ومن رواه لمن .. ومتى رواه .. ومتى قابله ... الخ ، ومن المعروفِ عن " الإمام البخارى" رَضِىَ اللّه عنه أنَهُ كان لايُوَثِّقُ حَدِيثًا ولايُدَوِّنُهُ إلا بعد التوثيق الكامِلِ لمَتْنِ الحديث ، والتأكد من أن الرواة عُدُولٌ .. ثم بعد كل هذا يصلى ركعتى الاستخارة لتدوين ذلك الحديثِ ....

وكذلك كَلَّفَ " الإمام علىٌّ " كرَّم اللّه وجهَهُ .. " أبا الأسود الدؤلى " ، ليضع قواعد النحو والصَّرْفِ للغة العربية ، تيسيرًا للأعاجمِ الذين دخلوا فى الإسلام ، خِلالَ الفُتُوحاتِ الإسلامية وحفاظاً على كتاب اللّه تعالى تلاوةً وكتابة ...

وبانتشار الصحابة فى الأمصار المفتوحة بدأ ظهور علماء " الفقه " وبدأ تبويبه فى نهضة عظيمةٍ ... وظهر النبوغ فى رجال الأمةِ الإسلامية ، ... وأسست المدارسُ والجَامِعاتُ ، وكانت بدايتها كلها فى المساجد سواء فى المدينة المنورة أو فى العراقِ ، والشامِ ، ومصرَ ، والمغربِ ، والأندلس..

وكان الذين يتعرضون للتدريس والتعليم يُجَازُونَ أولاً من مشايخهم فى هذا الفن الذى يدرِّسُهُ كُلٌ منهم لتلاميذه ... فهذا فى تلاوة القرآن الكريم .. وهذا فى رواية الحديث عن رسول اللّه ﷺ .. وذاك فى الفِقْهِ وأبوابه .. وآخر فى اللغة وفنونها ... وكلهم يتصل بسلسلة مشايخه وأساتذته إلى رسول اللّه ﷺ .... فالقرآن وتلاوته إلى رسول

اللّـه .. والأحاديث ورواياتها إلى رسـول اللّـه .. والفقه وأحكامه إلى رسـول اللّـه ﷺ إمَّا قـولاً .. وإمَّا فعلا .. وإمَّا تقريراً.. والتقرير معناه أن الرسول ﷺ رآه فأقرَّهُ ، ولم يعترض عليه ....

فـالجميع شـيخهم هـو رسـول اللّـه ﷺ ... ومنتهـى علمِهـم إلى رسولِ اللّه ﷺ ...

وهذا ميراثه ، الذى يعملون فيه وبه .. وكانوا -عليهم رِضْوانُ اللّه - يروون الأحاديثَ النَّبَوِيَّةَ بأسانيدها .. فيقولون حدَّثنا فلان .. عن فلان .. عن فلان عن رسول اللّه ﷺ ، أنه قال أو فعل كذا وكذا .

وفـى نهاية القرن الثانى الهجرى .. وكان العالم الاسلامى قد توسَّع واستقرَّت أركانه .. ، وازداد دخله وتوسَّع الناس فـى معيشتهم ودنيـاهم .. فظهـر مـن ينـادى بالزهـد ، ويـتكلم فـى المعـارف الإلاهية والأمور التربوية النفسية ، والأنوار الروحية ، وكانوا ينتسبون فى شأنهم هذا إلى سلسلةٍ متصلةٍ إلى رسولِ اللّه ﷺ من خلال " أبى بكر الصديق " و "على بن ابى طالب " و " سلمان الفارسى " وغيرهم من الصحابة ، فلما عرفوا بالزهد وكثرة الذّكر المجرد للّـه تعالى والورعِ والصّلاحِ .. وكان عهد الصحابة قد انقضى وكذلك التابعين ، فقد أطلق الناس على أصحاب هذا المنهج مسمى " الصوفية " ... إمَّا نسبة إلى أهل الصُفَّةِ زمن رسول اللّـه ﷺ الذين كانوا شِبْه متفرغين للعبادة والجهاد مع رسول اللّه ﷺ .. وإمَّا نِسْبَةً إلى الصفاء الروحى الذين كانوا يعيشون فيه ويتحدَّثون عنه ... ، وإمَّا نسبة إلى لِباس الصوف الخشن ،

الذى يُعتبرُ عنواناً ودليلاً على زهد لابسِه فى الدنيا وزينتها ....

وكان بينهم الحكيم " محمد بن على الترمذى " ، و " الحسن البصرى " و " جعفر الصادق" و " موسى الكاظم " و " ابن سيرين" و"حبيب العجمى" و"داوود الطّائى رفيق أبى حنيفة النعمان" و " ذوالنون المصرى الأخميمى" و" الحارث المحاسبى " والإمام " القُشيرى " و " معروف الكرخى " صاحب الإمام " أحمد بن حنبل " ...، وغيرهم ...

ثـم ظهـر مـن أعلامهـم الإمـام "الجُنَيْـد " و " الـسُهرَوَرْدِى الكـبير والصغير " .. وبهما مع " الـسرَّاج الطوسـى " بـدأوا فـى تـدوين منهجهم ليكون موثقاً لهم .... رضِى اللّه عنهم جميعًا

ثم جاء من بعدهم من شطح فى كلامه ، وتحدَّث عمًّا يقولون عنه "وحدة الوجود" و " الحلول والاتحاد " ، وأمثال هذه الفلسفات ، التى كانت سمة عصرهم ، حيث ظهر عُلماء الكلام .. وأهل المناظرات والجدل ... فى كُلِّ نواحى الحياة الثقافِيةِ الإسلاميةِ آنذاك ..... ، مما حدا ببعض علماء عصرهم أن يحاربوا من شَطَحَ منهم ، وتعرض الكثير منهم لمحنٍ وابتلاءاتٍ ، حصاداً لكلامهم ، وفلسفتهم ، ورمزيتهم فى التعبير ، وكناياتهم الخفيَّة فى الحديث ..

فأخذ العلماء عاطلهم بباطلهم ، وهاجموا الجميع دون تفرقة بين الغَثِّ والثمين ، ولم يفرقوا بين طوائفهم ، وشاطحهم ، ومعتدلهم ..

وكـان مـن المهـاجمين لهـم الإمـام " إبـن تيميـة الحرَّانـي الدِّمَشْقِيْ " ، .. ولكن تلميذه" ابن القيم " اعتدل في هجومه عليهم .. وخـصَّ مـن شـطح مـنهم بـالقول أو الفعـل بـالاعتراض عليـه ، ووافـق المعتدلين منهم ، ورأى أنَّهم هم أهل السنة والجماعة ...

ويذكر التاريخ مناظرةً مشهورةً بين " ابن تيمية الحرَّانِي الدِمَشْقِي " و" ابن عطاء اللّه السكندرى " بالقاهرة ... ، حيث كان اعتراض " ابن تيمية " على الانحرافات التي حدثت في بعض طوائف الصوفية ، وليست الصوفية نفسها ، وكذلك ليست كل طوائِفِها ... وأَوْضَحَ " بن عطاء اللّه " له فسادَ هؤلاء الشاطحين في أفعالهم ، أو أحاديثهم ، وبَيَّن "لابن تيمية " بعض مقاصد ورموز الصوفية في كلامهم ، وكيف أن لها مغزى شرعيًا صحيحا .. ، مما حدا " بابن تيمية " في النهاية بأن يسلم " لابن عطاء " بصِحَّةِ منهجه .. وتحفظ فقط على الشاطحين من الصوفية ...

وقد كان هذا اللقاء في أواخر سنيِّ حياة " ابـن تيميـة "، وبعد خروجه من السجن ... وراجع كتب التاريخ لمزيد من التفاصيل ...

وقـد أنبتـت هـذه الطائفـة عُلمَـاء أجـلاَّء ، فـي علـوم الـشريعة والحقيقة معاً ، " كابن دقيق العيد القوصي " ، و" العزِّ بن عبد السلام " ، و " ابن عطاء اللّه السكندرى " ، و " أبي الحسن الشاذلي " ، و " الإمام الرفـاعي " ، و "الـسيد أحمـد البـدوى " ، و "أبـو الحجـاج الأقـصرى " ، و "السيد عبد الرحيم القناوى " ، و " أبي العَبَّاسِ المرسى " ، و" إبراهيم

الدسوقى " ... وغيرهم الكثير ...

وكذلك من أشياخ الأزهر القدامى والمحدثين ومن العلماء بالدولة الإسلامية ، ومنهم " ابن عابدين الحنفى الدمشقى " ، والإمام " النووى " ، و " عمر بن الفارض "والإمام " الجوينى " ، والإمام " مكين الدين الأسمر " ، والإمام " الشعرانى " ، والإمام " الفولى اليمنى" ، والشيخ "أحمد الدردير " ، ومن المحدثين مثل الشيخ" عبد الحليم محمود " ، و" إبراهيم ابو العيون " ، و " محمد أبو العيون "، و" الجعفرى " ، و" الشرقاوى " ، و" الشبراوى " ، و" ابن فتح اللّـه " ، و" السبكى "

ومن تركنا ذكرهم خوفا من الإطالة هم أضعاف من ذكرنا ....

ولكن لاحظ أن كل هؤلاء الورثة لابد وأن يكونوا مُجَازين من أهل الإجازة ... وبمعنى أدقّ .. فقد قلنا أن رواة الحديث وقارئ القرآن وأئمة الفقه و كل العلوم الشرعية ، كانوا دائما يذكرون نسبهم الروحى وسلسة أئمتهم حتى ينتهوا بها إلى سيدنا رسول اللّه ﷺ ..

وكذلك هذا ما يجب فى أهل الباطن وحملة الأنوار النبوية و مربىّ الأرواح والأنفس .. فلا بد أن تكون لهم سلسلة تنتهى بهم إلى رسول اللّه ﷺ ... بل ولا بد أن يكون لهم شاهدان عدلان على الأقل على صدق دعواهم ....

فليس كل من ادعى العلم نسلِّمُ لهُ بِعِلْمِهِ ... وليس كل من طلب الكلام فى العلم نُسلِّمُ له بِعلمِه وكلامِه دون سند له فى علمه ...

والتربية الروحية شأنها خطير ... وخطرها جليل ... والخطأ فيها قاتل ومميت للنفس والروح .. فلا بد أن يكون لمُدَّعي هذا الأمر من ثبات وتثبُّتٍ لا يقبل الشك .. وليس بدعواه هو فقط بل بشهادةِ الشهود ...

وفي النهاية كُلٌّ حسابه على اللَّه تعالى .. وهو أعلم بمن اتقى ... والإشارة تغني عن العبارة ... وأهل هذا الفنِّ يفهمون ما أقصده ......

وقد عاصرنا بعضا منهم – من فضل اللَّه علينا – وكلهم رَضِيَ اللَّه عنهم قد ظهرت على أيديهم كراماتٌ وفتوحات تؤيد صدق منهجهم ... وصدق انتسابهم الى جدِّهم الأعلى سيدنا رسول اللَّه ﷺ ... وهل هناك كرامةٌ لِوَلِيٍّ أعظم من هداية اللَّه تعالى للخلق على يديه .. وتغيير قلوبهم إلى حب اللَّه ورسوله عليه الصلاة والسلام !!!

وكل هؤلاء القوم – كما سمعنا منهم أو قرأنا لهم – مذهبهم هو مذهب أهل السنة والجماعة .. وما كانوا يحيدون عن سنة رسول اللَّه ﷺ قيد أنملة ...

ثم تميَّز كُلٌّ منهم بمنهج تربويّ فيه ذكر اللَّه تعالى ، وتربية النفس ، وتقويتها ، وتنقيتها ، وتطهيرها من أدناسها ....

رَضِيَ اللَّه تعالى عنهم جميعا وعنا معهم .. وألحقنا بهم على خير بإذنه تعالى ...

كل هذه الأصناف التى ذكرنا ومن شابههم من الرجال .. هم من ورثة وحملة ميراث وأمانة سيدنا رسول اللّه ﷺ ...

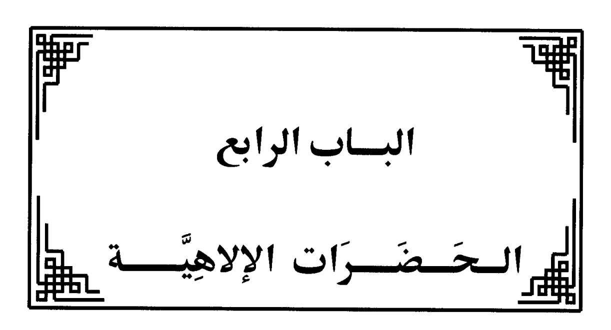
وقد كان لهذه الطرق الصوفية اليد الطولى فى نشر الإسلام فى الهند ، وشرق آسيا ، وأفريقيا ... ، وجهاد السادة الأدارسة والسنوسية فى غرب ووسط افريقيا ، وكذلك نشاط السادة القادرية .. مشهود له فى وسط وجنوب السودان ، بما أقاموا من خلوات فيه ، وكذلك خانقاوات للتعليم ونشر الدين وتعليمه ، وذكر اللّه وعبادته ، وكذلك فى محاربة المستعمرين الأجانب ، وكذلك كان لهم تاريخ مشرف فى الحروب الصليبية على الشرق ... وأرجع إلى كتب التاريخ لمعرفة التفاصيل لمن يريد المزيد ...

وإن كانت بعض هذه الطرق قد انحرفت قليلا عن مسارها الشرعى حديثا ... فان هذا لايدعونا الى تعميم الحكم على الجميع ...

وما الجهل الذى أحاط ببعضهم ، إلاَّ جزءٌ من الجهل والفساد ، الذى ظهر فى الأُمّة الإسلامية كلها .. وهم جزءٌ من الأُمّة يصيبهم ما أصابها ... ، وكما أن الإسلام برئ من هذه التجاوزات ، على مستوى الأمم والشعوب الإسلامية ... ، فكذلك الصوفية بريئة مما حدث لبعض طوائفها من انحرافٍ ... فلا الإسلام نفسه مُتَّهم .. ولا الصوفية نفسها مُتَّهمة .. بل يوجه الإتهام لمن يقومون بالتطبيق ...

ولاتخلو الأرض .. ولن تخلو حتى قيام الساعة من أمثال هؤلاء الورثة .. إكراما لرسول اللّه ﷺ... وتصديقا ، وتأكيدا لدوام رسالته ..

وبركات أنواره ....، رَضِيَ اللَّه عنهم جميعاً ..، وألحقنا بهم نسباً وحسباً.. وأمدَّنا بأمدادهم ، وأنوارهم ، وأسرارهم المستمدة كلها من أمدَادِ وأنوار وأسرار صاحب الشريعة رسول اللَّه ﷺ المبعوث رحمة للعالمين أجمعين ...


الباب الرابع
الحَضَرَات الإلاهِيَّة

- **الحضرة :**

لا نريـد الـدخول فـي تعريفـات فلـسفية .... ولا أن نتَقَيَّـدَ بكلامِ غيرنا ....

لذلك نقول ببساطة ، أن الحضرةَ هى الحضور ... من حضر ... يحضرُ حُضُوراً .. فهو حاضرُ ونحن فى حَضْرَتِهِ ...

والحاضِرُ هو ضِدُّ الغائب ... فَمَنْ حَضَرَكَ فأنت فى حَضْرَته .. وإنْ كان العُرْفُ قد جرى على نسبتها إلى من هو أعلى مقامًا ... فتقولُ أنت فى حضرةِ السلطان ، وليس السلطانُ فى حضرتك ...

وباختصار .. فكلُّ حاضرٍ أعلى منك مقاما فأنت تكونُ فى حضرتِهِ ... وهى كذلك كلمة تعظيم .. فتقول حضرةُ السلطان .. وحضَرَةُ مولانا .... وهى بذلك إشارةٌ لطيفةٌ إلى عظمة مَنْ تصِفُهُ .. ذلك أنَّ عظمة وهيبة من نتحدَّث عنه تتجاوزُ شخصه وتعمُّ المجلِسَ كُلَّه .. وتُسيطِرُ على المكان الذى يُوجَدُ هو فيه ...

وهذا التواجدُ لمن نعنى فى مكانٍ ما .. يجعلُ للمكانِ والمجلِسِ صفاتٍ وخواصًا مستمدّة من صفاتهِ ... من عظمةٍ أو كرمٍ أو عِلْمٍ أو بأسٍ .. وغيرها ..

والغريبُ أن هذا الاحترام للسلطانِ ولحضرته ولمجلسِهِ يكون فى حضور السلطانِ أو فى غيابـهِ ... فلـو دخلـتَ قاعـةَ المُـلْك، ولم يكـن المَلِكُ حاضِراً فيها ، فلا يجوزُ لك أن تجلس على كرسىِّ العَرْشِ ، ولا يجوز لك أن تعبث بممتلكاتهِ فى القاعةِ ... اللّهمَّ إلاَّ فى حدود ما أمر هُوَ ، وَسَمَحَ بِهِ ، لِحِكْمَةٍ هو يراها ...

و المُلْك غيرُ الحضرةِ ... فالمُـلْك هـو كُـلُّ ما بسطَ المَلِـكُ سـلطانه عليـهِ .. ، وأنـت ملـزمٌ بتطبيـقِ قوانينِـهِ وتـشريعاتِهِ فـى مملكتِـهِ .. فلا بُـدَّ مـن طاعتِـهِ .... واحتِـرامِ حُـدودِهِ ... فإن لم تفعل فقد دخلت تحت طائلةِ عقابهِ.

ولكن الحضرةَ غيرُ ذلك ....

فأنت فى الحضرة مطالب بالأدب العالى الذى يناسب حال المَلِكِ ، حتى تنال رضاه عنك ومحبته لك ... وهذا يستلزم منك معرفةً بصفاتهِ وخُلُقِهِ .. فتعرف كيف تسترضيه إذا غضب .. ومتى وكيف تحادثه لتستجلبَ كرمه وإحسانه وعفوَّه ... ومتى تُقْدِمُ ومتى تُحْجِمُ .. وهكذا.

فَمُجالَسَةُ الملوك يلزمها غير اتباع الأوامر والنواهى ، الأدب العالى والذوق والحسُّ المرهف فى حضرة المَلِك ...

والخطأ فى حضرة الملك .. ليس كالخطأ بعيداً عن مجلسه ....، فإن الصغيرة قد تودى بصاحبها إلى الهلاك .. فإن السائر على قمة جبل لاتكون زلة قدمه كالسائر على الأرض ...

وكذلك أهل حضرة المَلِكِ يكونون هم أغنى الناس بعطاياه وهداياه ... ويكون لهم عند المَلِكِ كلمة وشفاعة فى رعيَّته .. ، وكذلك يكونون على خطر عظيم خوفا من أية زلَّةٍ مهما صغرت ....

وخلاصة ما نعنيه ، هو أن أهل حضرة السلطان هم خلاصة قومه .. وأهل الثقة وأصحابُ سِرِّهِ ، وموقع نظره وكرمه ، وهم كذلك أهل المعاناة مع أنفسهم وأرواحهم ، للوصول إلى الأدب العالى اللازم للحضرة ...

هذا ما نعلمه وما جرى به العرف بين أهل الدنيا ....

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (1)

وواضحٌ من هذه الآيات أنَّهُ وإن كانت هذه الآداب يجب أن تلتزم بها المرأة المسلمة على إطلاقها .. فلا تخضع بالقول ، ولا تتبرج ، ويجب أن تتقى اللَّه تعالى ، وأن تطيع اللَّه ورسوله ، ولكنها تَخُصُّ أَهلَ بيت رسول اللَّه ﷺ بمزيدٍ من

(1) سورة الأحزاب آية : ٣٠ - ٣٣

العنايـة والآداب ، ويخـبرهن اللّــه تعـالى ، أنَّهُـنَّ لَـسْنَ كعامَّـةِ النِّسَاءِ .
فـإنَّهُنَّ أهـلُ بَيْـتِ رسـول اللّـه ﷺ ... ويَعِـشْنَ فـى حـضرته الدائمـة المُـنيرة بنـور اللّـه تعـالى ... لـذلك فـالثواب فيهـا مـضاعف والتحـذير أشـدّ .. واللّــه سـبحانه تعـالى أذهـب عـنهن الـرجْسَ ، وطَهَّـرَهُنَّ تطهـيراً إكرامـا لمعِيَّـة وحـضرة رسـولِهِ ﷺ ... ولـذلك فَهُـنَّ لَـسْنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ...

ويقول تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (٢).

ورفع الصوت ينافى الوقار .. وكذلك من يكون فى حضرة رسول اللّه ﷺ فيَجِبُ أن يلتَزِمَ بالوقار والسكينة والأدب اللازم لحضرته ﷺ .. فلا يبدأه بالقول ، ولايرفع صوته ، ولايخاطبه مخاطبة الندّ للندّ ....

كل هذا من آداب الحضور فى مَعِيَّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ ....

ونـستطيع القـول بـأن المجالـسين لحـضرة عظـيم مـن العظمـاء ، يلزمهم الأدب العالى المناسب لمقامه .. فضلا عن أن حواسَّهُم مـن سمع

---

(١) سورة الحجرات آية : ٢ .   (٢) سورة النور آية : ٦٣.

وبــصر وعقــل لابــد وان تكــون حاضــرة ، لــصاحب الحــضرة ... أعينهم عليه ... وأسماعهم معه ... وعقولهم مع أحواله .. ولايصِحُّ ولايجوزُ لَهُـم أنْ يَنْـشَغِلُوا عنـهُ بـأى شـاغلٍ سِـواه ، ولا أن يـصرفوا أنظـارهم إلى موجودٍ غيره ....

فـإذا ذكرنـا أن آل بيـت النبـى ﷺ لهـم ولهـن آداب خاصـة .. وأحكام مخصوصة لحضور حضرته ﷺ لتواجُدِه الشريف بينهم ... فإنّ هذا ينطبق بلا شك على من فتح اللّـه عليه ، وأكرمه برفع الحجب عنه ، واستشعر وجود أنوار رسول اللّـه ﷺ معه ...

وقـد سبق لنـا القـول بـأنّ نـور محمـدٍ ﷺ يـسرى بالهدايـة فـى البـشر أجمعـين ... وأنّـه لا يـصدر فعـلُ بِـرٍّ مِـنْ مَخْلُـوقٍ ، إلاَّ بِـسَرَيانِ نُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ فيه ...

فالــذين يستــشعرون هــذا النــور معهــم ... ويتــذوقون هــذه المعــانى العاليــة .. فهــم فــى الحقيقــة يكونــون فــى أنــوار الحــضرة المحمديــة .. وأســرار الحــضور النبــوى .. فيكــون لهــم أدبٌ خــاصٌ فــى مجالِـسِهِم وحـديثهم ومعـاملاتهم ... وعلــى قــدر حـضورهم فــى هـذه المَعِيَّـةِ المُبَارَكَـةِ ... علـى قـدر مـا يكـونُ سُـمُوُّ أخلاقهـم... وعلـى قـدر مـا يكـون سُـمُوُّ أخلاقهـم ، علـى قـدر مـا يكـون حـضورهم فـى هـذه المَعِيَّـةِ المُبَارَكَـةِ... انظـر إلى الواقعـة المـشهورة التـى يـذكرها كُتَـاب الـسُّنةِ الـشريفة ... حيـث كـان " أبـو بكـرٍ " جالـسًا فـى مجلـس رسـول اللّـه ﷺ .. فجـاءَ رَجُـلٌ وسـبَّ " أبـا بكـر " رضـى اللّـه عنـه .. و" أبـو بكـر "صـامت لا يـرُدُّ .. فلمـا ردَّ "أبـو بكـر" علـى

الرجـل قـام ﷺ وتـرك المجلـس ، فلحـق بـه " أبـو بكـر " ، سـائلاً رسـول اللّـه ﷺ عمَّـا أقامـه مـن مجلسـه .. فقـال لـه ﷺ :
" لَقَـدْ كَانَـتْ المَلائِكَـةُ تَـرُدُّ عَنْـكَ وَأَنْـتَ صَـامِتٌ فَلَمَّـا رَدَدْتَ أَنْـتَ ذَهَبَـت المَلائِكَـةُ وحَـضَرَ الـشَيْطَانُ وَلا أَجْلِـسُ فِـي مَجْلِسٍ يَحْضَرُهُ الشَيْطَانُ "...

فحـضرةُ رسـولِ اللّـهِ ﷺ .. هـي النـور .. والبـرُّ .. والطاعـةُ للّـهِ تعـالى.. والخـير كُـلُّه .. ولايكـون فيهـا الـشرُّ .. ولايكـون لإبلـيسَ فيها مجلس...

فعبادُ اللّـه تعالى الخالـصين المخلـصين .. يعيـشون فـي حـضرة رسـول اللّـه ﷺ .. تحـيطهم أنـوار النبـوة والرسـالة .. وأنـوار الهدايـة والطاعات ... ومن هنا كان قول كثير من الصالحين أمثال " أبى الحسن الشاذلى "و"أبى العباس المرسى " وغيرهم ،" لو غاب عنى رسول اللّـه ﷺ طرفة عين ما عددتُ نَفْسِى من المؤمنين" ...

وكلامهـم هـذا ، يلتـبس علـى بعـض النـاس الـذين يُحَجِّـرُون تفكيرهـم وحـدود عقـولهم بالمادِيَّـاتِ ، وقـوانين الأرض المادِيَّـة .. فهـم يتصورون حضوراً عادياً كحضور البشر .. ويتساءلون كيف لايغيب عنه رسول اللّه .. وأين هو من رسول اللّه !!! مكاناً .. وعصراً ..!!

ولعـل الأمـر الآن قـد وضـح للقـارئ ... ومقـصود القـائلين قـد ظهـر بهـذا الإيـضاح ... بـل أنَّنَـا مِـن حَقِّنَـا أن نتمـادى فـى شـرح هـذا الأمـر .. فـلا نَحْـصُرُ المعنـى المقـصود مـن سـاداتنا أصـحابِ هـذه

المقولة بما قد شرحناه ..

فما المانع أن يكون لحضور رسول اللّـه ﷺ حضوراً آخرَ غيرَ حُضُورِ أنوارِهِ وأنوارِ هدايته .. !!

يقول ﷺ : "مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَسَيَرانِي فِي اليَقَظَةِ وَلا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطانُ بِي"، وهو حديثٌ صحيحٌ ، رواه البخاري ورواه مسلم ورواه أبو داوود وكلهم عن " أبي هريرة ".

فإمكانية رؤية رسول اللّـه ﷺ يقظةً أمرٌ قائمٌ ومحتملٌ بنصِ حديثِ الرسول ﷺ .. وهي بشرى منه ﷺ ما بعدها بشرى ...

ولسنا في احتياج إلى شرحٍ ولاتأويلٍ لهذا النَّصِ الصَّرِيح الواضح ... وقد ألَّفَ الإمام"جلال الدين السيوطي " رضي اللّـه عنه كتابًا باسم" تنوير الحَلَكِ في إمْكَانِ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ والمَلَك"، يمكن للقارئِ الرجوع إليْهِ .. و" الإمام السيوطيُّ "حُجَّةٌ وثَبْتٌ رضي اللّـه عنه ، ولايُنْكَرُ عِلْمُهُ ولا فَضْلُهُ .. وقد أثبت في كتابه إمكان رؤية الملائكة والأنبياء يقظة ، وساق الكثير من الأدلَّة والبراهين على ذلك ...

ولاتنس أننا نتحدث عن مستوىً إيمانيٍّ رفيعٍ .. وأرواح عالية طاهرة .. صَفَتْ وَتَخَلَّصَت من حُجُبِ النفس ، وشهوات الدُّنيا .. واستنارت الأرواح بنور اللّـه تعالى ، فجازَ لها أن ترى ما لايراه غيرها ، من البشر العاديين ، الذين لايتورعون أن تنظر أعينهم إلى حرام .. لذلك فهم يتعاملون مع عوالم أخرى غير عالم الملك والشهادة ...

وقد رأى رسول اللّه ﷺ نبيَّ اللّه " صالح " ونبيَّ اللّه " هود " على حمارين أشهبين ، يحُجَّان إلى بيت اللّه الحرام .. كما رأى" موسى " عليه السلام ، قائما يصلى فى قبره ..

ورسول اللّه الصادق المصدوق لم يُبَيِّنْ كيف رآهم .. بل ترك الكيفية لأهل مثل هذه الرؤى .. ولابد لكل مؤمن باللّه ورسوله أن يُصَدِّقَ قوْلَ الصادق الأمين ﷺ .. ولا يَشُكَّ فى إثبات الرؤية له .. ويبقى على أهل هذه الرؤى أن يشرحوها ، لمن يستوعب عقله هذه التحليلات والتفسيرات .

فنحن نقبل مقولة ساداتنا الكرام على وَجْهَيْ تفسيرها .. وحسابهم على اللّه تعالى ..

وكل ما أردنا قوله باختصار .. هو أنَّ رُوحَ رسول اللّه ﷺ العالية القدر .. السامية المقام .. والتى هى ملئ الكون كُلِّهِ .. ومصدر النور للخلائقِ كُلِّها .. لها أن تتمثل لمن أكرَمَهُ اللّه بهَذا الشرف .. فيحظى بالرُّؤْيَةِ الشَّرِيفَةِ .. ورُبَّمَا بالحديث والخطاب أيضاً ..

ولسنا أولُ مَنْ قال بهذا الأمْرِ .. بلْ هُوَ مُتَواتِرٌ بين الصَّالِحِين ، منذ عهد الصحابةِ رضوان اللّه عليهم وحتى يومنا هذا ...

ومن وافقنا على ما نقول فقد أصاب حقَّ الحقيقة .. ومن أنكره علينا فحسابه وحسابنا على اللّه تعالى ..

وخلاصة قولنا هذا هو أنَّ لروحِ رسول اللّه ﷺ حضرةً عظيمةً فى الكون كُلِّهِ ، تسرى بها وفيها أنوار الهدايةِ ، والتوحيدِ ، والتعظيمِ ، والتقديسِ لرب العالمينَ جَلَّ شَأْنُهُ ..

وهذه الحضرة القائمة ، تسبح فيها الأرواحُ المُحِبَّةُ لرسول اللّه ﷺ .. والتى تستمدُّ أنوارها من أنوار الحَضْرَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، والتى هى بدورها قبس من نور اللّه تعالى ..

فمحمد ﷺ هو رحمة اللّه للعالمين بنص القرآن الكريم ... وهو ﷺ .. هداية اللّه للعالمين .. وهو ﷺ نور اللّه للعالمين .. وهو ﷺ قبل هذا وبعده ، عبْدُ اللّه ورسوله .. وما ذكرنا فى مدحه إلاَّ ما مدَحَهُ بِهِ ربُّ العِزَّةِ جَلَّ شَأنُهُ ، بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ .. صلى اللّه عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ والتابعين وعلينا وعلى عباد اللّه الصالِحين أجمعين ، من أهل السموات وأهل الأراضين ...

- وحُضَّارُ الحضْرَةِ المُحَمَّدِيَّةِ السَّنِيَّة يكتسبون أدبـًا عاليـًا .. وأخلاقـًا ساميةً .. مِن هذهِ المَعِيَّةِ المُبَارَكَةِ .. فالأرواح تسقى بعضها بعضًا .. وتتآلف وتتوادُّ .. وما فى الحضرة المحمديةِ إلاَّ أنوارُ النُّبُوَّةِ والرسالة .. فروح رسول اللّه ﷺ تسقى جُلاَّسَهَا من هذين المعينين الصافيين .. فيصير جُلَسَاؤُهَا من حملة ميراث النبوة والرسالة .. فهم ينهلون من معين نور رسول اللّه ﷺ ، ثم يُشِعُّونَ بدورهم على من حولهم من الخَلْقِ .. فيصير لكل روح منهم جلساؤها أيضاً ..

وحيث أن لكل روح طاقةً ... وقوَّةً ... وصفاتٍ ذاتيةٍ لها .. لذلك يصبح لِكُلِّ روحٍ نوراً خاصًا بها ، يتلون بلون طباعها ، وطاقتها ، وقوَّتها ... ، مثلها كمَثَلِ القِنْدِيلِ المنيرِ فإنَّ لونَ نورهِ يتلونُ بلونِ زُجَاجِهِ ...

والكُلُّ مصدره رسولُ اللَّه ﷺ ... وإن تَبَايَنُوا في الظَّاهِرِ، واختلفوا في المشارِبِ ... ، وتنوَّعُوا في الأنوار ... ولكنهم يجمعهم جميعا إطار شريعةِ رسول اللَّه ﷺ ... ويحيطهم سياجُ سُنَّتِهِ المباركة .. فهم جميعا يقتفون أثر قدم رسول اللَّه ﷺ .. ولايحيدون عنه قَيْد أنملة ..

ولعل السبب في هذا التنوع في المشارب والأنوار ، هو أن روح رسولِ اللَّه ﷺ وهي الروحُ الأعظمُ ، قد حَوَتْ من الأنوار والأسرار ما لاتستطيع روحُ أُخرَى أن تتحمله ... لذلك فَكُلُّ روحٍ تنهل على قدرها وعلى قدر ما هيأها اللَّه له ... فتتشعبُ أنوار النبوة والرسالة فيهم أجمعين .. ، فيصبح لكل منها نورٌ خاص بها ... ، ولكنه في الحقيقة مستمدُ من نور محمد ﷺ الجامع الشامل ...

ولأزيدك إيضاحا ....

انظر إلى عبادة رسول اللَّه ﷺ ... قيامُ بالليل حتى تتفطَّرَ قدماه الشريفتان ... أدنى من ثلثى الليل .. ونِصفَهُ .. وثُلُثَهُ ... وأذكارٌ في الصَّبَاحِ .. وأذكارٌ في الضُّحى .. وأذكارٌ وتسبيحٌ بالعَشِيِّ .. وأذكارٌ وتسبيحٌ عند كل حالة من قيام ، وقعود ، ونوم ، واستيقاظ ، وسعيَ ..

ورضا ، وغضب ، وشكر ، وخوف ، ورجاء .. وصحة ومرض .. ، وغنى وحاجة .. ، وغيرها .

وفى كل حالة من هذه الحالات تجد لرسول اللّـه ﷺ دعوات شتى .. وتسبيحات متنوعة ...

ولايستطيع عابدٌ – مهما بلغ فى عِبَادَتِه – أن يتمثل بجميع ما كان يفعله رسول اللّه ﷺ ... لذلك أمرنا رسول اللّه ﷺ أن نجتنب ما نهانا عنه .. وأن نَكْلُفَ مِنَ الأعمال ما نطيق .. أى أن نأخذ من أعمال البرّ قدر ما نستطيع ...

هذا من جهة الأعمال والأفعال .. وناهيك بأخلاقِ رسول اللّـه ﷺ سمواً وعلواً .. ومن منا يستطيع أن يتخلق بخلقه ، من قال عنه ربه ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ .. !!

فكلٌ يَأْخُذُ من هذا الأخلاق على قدرهِ هو .. من كرم .. ، وحياء .. ، وسخاء .. ، وعفو .. ، وسماحة .. ، وفتوة .. ، وحلم .. ، ورحمة .. ، وصبر .. ، وشكر ... ، وغيرها من حسن الخلق ...

وكُلُّ عملِ برٍّ .. وكل فعل خيرٍ .. فإن رسول اللّـه ﷺ قد قام به على الكمال والتمام كما يُحِبُّ اللّـه تعالى ... وكُلُّ خُلُقٍ سَنِيٍّ قد اكتمل فى رسول اللّه ﷺ .. فما عند رسول اللّه ﷺ .. وما فى رسول اللّه ﷺ لايكتمل فى غيره ، بل كل من سواه يأخذ منه على قدره .. سواءً كان نبياً أو وليّاً أو مُؤْمِنًا ...

فمن تَمَيَّزَ من البشر بِكَثْرَةِ الصلاةِ مثلاً .. فقد استمدَّ من رسول

اللّـه ﷺ من أنوار الصلاة .. ومن تميز بكثرة التسبيحِ والتقديسِ للّـه تعالى ، فقد استمدَّ مِنْ رسولِ اللّـه ﷺ بعض هذه الأنـوار .. ومنْ تَمَيَّـزَ من البشرِ بكثرةِ الصيام .. أو بقيام الليل .. أو بحسن الدعوة إلى اللّـه تعالى .. فقد أخذ من هذه الأنوار في رسول اللّـه ﷺ ..

وكـذلك كـل مـن تَخَلَّـقَ بخُـلُقٍ مـن خُلُـقِ الرسـول عليـه الصلاةُ والسَّلام .. أحاطتـه أنـوار هـذه الـصفةِ مـن رسـول اللّـه ﷺ .. فللكـريم نـوره .. وللحيـيِّ نـوره .. وللعـالِمِ نـوره .. وللزاهِدِ نوره .. وللصابرِ نوره .. وللشاكرِ نوره ..

لـذلك تتفـاوت الأنـوار وتتميـز فـي ورثـة رسـول اللّـه ﷺ .. كـلٌّ علـى قـدر ذاتـه وأعمالـه وأحوالـه .. ولكنَّهـا كُـلُّـها مُجْتَمِعَـةً تـصير إلى نور محمدٍ ﷺ الجامع لِكُلِّ هذه الأنوار ...

وقـد سـبقت الإشـارة إلى أنَّ النُّـورَ العـادى تـراه أنْـتَ شـفافاً لا لـون لـه .. ولكنـه إذا مَـرَّ خِـلالَ المنـشور الزجـاجى ، خرجـت منـه أنـوار ذات ألـوان مختلفـة منهـا الأصـفر ، والأحمـر ، والأخـضر .. فـإذا عدت وجمعتها معا عادت نورًا لالون له ... فافهم رَحِمَك اللّـه ...

- وهنا لفتةٌ دقيقةٌ نذكرها ...

فمن المعلوم أن أعمالَ البرِّ في الدنيا .. تترجم يوم القيامة إلى أنوارٍ لأصحابها ، كما ورد في القرآن الكريم ...

وكـذلك مـن المعلـوم أنَّ لِكُـلِّ عمـلِ بـرٍّ وفعـل خـيرٍ .. ثـوابٌ محـددٌ فـي الجنـة .. وقـد وردت بهـذا المعنـى أحاديـثٌ نبويَّـة كـثيرة،

تبين ثواب هذه الأعمال .. فمن قال لا اله إلا اللّه ، كان له كذا وكذا ، ومن قال سبحان اللّه والحمد للّه ، فله في الجنة كذا وكذا ، ومن صام .. ، ومن صلى .. ، ومن تزكى .. ، ومن تصدق ...، وانظر إن شئت إلى كتاب " المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح " لمؤلفه " الحافظ الدمياطي " رضي اللّه عنه ..

إذاً فالجنّة تعمرُ و تتسعُ وتتفرعُ ثِمَارُهَا بأفعال البرِّ من العِباد .. ويبني اللّه فيها الغُرَفَ والقُصُورَ على قدرِ أفعال العباد الصالحة ...

ومَنْ أكثر فعلا للبر .. ومَن أتمُّ عملا بالصالحات من رسُولِ اللّه ﷺ !!! ومَنْ مِنَ العِبَادِ أو الأنبياء مِثْلُهُ عَمَلاً وخُلُقًا !!

فمن يكون له في الجنة مثل محمد ﷺ !! بل إنَّ كُلَّ نعيمِ الجَنَّةِ هو ثمرة لأفعالِ رسولِ اللّه ﷺ الجامعةِ الشاملةِ لعبادةِ اللّه تعالى حقَّ عبادته ..

فالجنة كُلُّها وما فيها من نعيمٍ هي من نور أفعالِ رسول اللّه ﷺ .. ، ثم يأتي بعد ذلك كلُّ نبيٍّ ، وكُلُّ مُؤْمِنٍ ، وكل عابِدٍ ، ليأخذ قدرًا من هذا النعيم الذي أساسه وأصله هو عبادة رسول اللّه محمد عليه الصلاة والسلام ..

وانظر إلى ما اكرم اللّه به نبيه في مضاعفة أجر الأعمالِ وأوجهِ البرِّ ...

يضاعف الثواب للعاملين يوم الجمعة .. وفي رجب .. وفي شعبان .. وفي رمضان .. وفي العشر من ذي الحجة .. وفي أيام التشريق .. وفي الحجِّ .. وفي ليلة القدر التي هي خيْر من ألفِ شهرٍ ..

وكُلُّ هذا الإكرام من اللّه تعالى هو إكرامٌ لرسوله محمد ﷺ .. ولأمة محمدٍ ﷺ.. فإن كانت حياة رسول اللّه ﷺ في الدنيا قصيرة بالنسبة لطول حياة غيرهِ من الأنبياء .. فقد بارك اللّه له في حياته .. وفي أعماله .. وجعل كل ليلة قدرٍ تساوي ما يزيد عن الثمانين عامًا من حياة البشر ..

ويقولُ ﷺ "من دعا إلى هدى كان له من الأجرِ مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا " ... وهو صحيح رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي والترمذي وابن ماجة ، وكلهم عن أبي هريرة .

ومعنى هذا الحديث أن كل فعل برٍّ يقوم به من تبع محمدا ﷺ فله أجره من اللّه تعالى ، وكذلك يكون لرسول اللّه ﷺ مثل نفس الأجر ، فأي أجرٍ وأي ثوابٍ يكون لرسول اللّه ﷺ ... !!!

وكل هذا الإكرام من اللّه تعالى ، ترجمته ونتيجته أنْ تَتَسِعَ الجَنَّةُ وتتنوع أَنْوَارُها ويزداد جمالها .. وتعمُرَ بالنَّعِيمِ ثوابًا من اللّه تعالى لرسوله ﷺ .. ومن تَبِعَهُ في بعض أفعالِهِ فلهُ في الجَنَّةِ نصيبٌ ، على قدرِ عمله من نصيب إمامِهِ وقدوتهِ ﷺ ..

فإذا سَمِعْتَ أيُّها القارئ الكريم مِن بعض الناس مَنْ يقول

إنَّ الجنَّـةَ قـد خلقـت مـن نـور الرسـول ﷺ .. فـلا تتعجَّـلْ وتـستَنْكِرَ هـذه المقولـة .. وقـد عرضـنا عليـك وجهـًا مـن أوجُـهِ شَـرْحِهَا .. بالعقـلِ والمنْطِـقِ الـذى تـدين بـه .. ومـا أسـرفنا ومـا غالينـا .. ومـا شـطحنا ولا تجاوزنا كلام اللّه وحديث رسولِهِ ...

ونعود إلى حديثنا .....

يقول ﷺ " مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَـلِّمُ عَلَـيَّ إلاَّ رَدَّ اللَّـهُ عَلَـيَّ رُوحِى حَـتَى أرُدَّ عَلَـيْهِ السَّـلام " رواه أبو داوود عن " أبى هريرة " ..

فـإذا صليت أنـت علـى رسـول اللّـه ﷺ وردَّ عليـك الـسلام .. ألا يكـون هـذا حـضورًا منـه ﷺ !! وألا تكـون أنـت فـى حـضرته ، وأنـت تـصلى وتـسلِّم عليـه ..!! فكيـف يكـون الحـال وأنـت وكُـل المـسلمين تقولـون فـى وقـت كـل صـلاة فـى التـشهد فـى الفـرائض والـسنن " الـسلام عليـك أيهـا النبـى ورحمـة اللّـه وبركاتـه" ...! ألا يعنـى هـذا حـضوراً روحيـاً دائمـاً لرسـول اللّـه ﷺ والكـل يـسلم عليـه سلام الحاضِرِ ...!!

فإن شئت أن تعرِفَ حَقَّ الحقيقة ..

فاعلم أنَّك وكُلُّ الكَوْنِ فى حضرة رسول اللّـه ﷺ ... ولاتعجب من هذا القول رحمك اللّه ...

فقـد سبق القـول بـأن رسـول اللّـه ﷺ ، يمثـل جانـب الخـير والنـور والهـدى مـن رب العـالمين للعـالمين .... بينمـا يمثِّـلُ الـشيطان جانـب الـشر والغوايـة للعـالمين ، وأوائـل جنـوده الـنَّفْسُ والهـوى ...

والشيطان يسيح فى الكون .. ويحضر كل مجلس .. ويوسوس لكل مخلوق .. ولاينزجر إلاَّ بذكر اللَّه تعالى وحضور الملائكة فى هذه المجالس ...

وضدُّ هذا الظلام هو نور محمد ﷺ .. أفلا يكون من العدلِ والصواب أن يملأ نوره ﷺ كل الكون .. ويكون حضوره واجبا ، ليكون فى مواجهة الشرِّ والظلام !!

ونحن نتحدث إلى من سَمَت أنفسهم بأنوار أرواحهم إلى عوالم الجبروت والملكوت .. ولسنا نتحدث إلى من حبس نفسه فى إطار عالم الملك والشهادة ، فيظن أن حضرة رسول اللَّه ﷺ هى حضورُ مادىٌّ بحيث يرى كل الحاضرين صورة ويسمعون صوتا .. فهذا أمر غيرُ واردٍ لدينا ، فإن الشيطان لايُرى بالعين .. والملائكة لاتُرى بالعين .. فنحن نتحدث عن عوالم النفس والروح فلا يختلط كلامنا فى ذهن القارئ ...

ولكى أزيدك إيضاحًا لِبَعْضِ خصائص درجة قدر رسول اللَّه الرفيعة العالية .. فاعلم أن رسول اللَّه ﷺ قد وُلِدَ فى الثُلث الأخير من ليلة الاثنين كما هو معروف .. وهذا وقتٌ مباركٌ فى السماء والأرض ، وفى الحديث الشريف أنَّ اللَّه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فى الثلث الأخير من الليل ، فيقول هل من مستغفر فاغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، إلى آخر ما ورد فى الحديث الصحيح الذى ذكره مسلم وأحمد عن" أبى سعيدٍ " و" أبى هريرة " معًا ...

فهذه الساعة المباركة كانت هى ساعة مولده ﷺ ....

ونحن لانزيد على كلامنا حرفاً واحداً حتى لايُساء فهمه .. ولكنى أطلب من القارئ أن يتنبَّهَ إلى بركة ساعة مولده عليه الصلاة والسلام ...

ويقول ﷺ " **إنَّ فِى الجُمْعَةُ لَسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى يَسْأَلُ اللَّه فِيها خَيْرًا إلاَّ أَعْطَاهُ إيَّاه** " حديثٌ صحيحٌ ، رواه عن " أبى هريرة " مالك ومسلم والنسائى وابن ماجة وأحمد ... وفى روايةٍ أخرى لم يذكُر فى الحديث " وهو قائم يصلِّى " ...

وأيـًّا مَا كانت أقوالُ شُرَّاحِ هذا الحديث ، واجتهادهم فى تعيين هذه الساعة المباركة فنحن نقول لقد كان رسول اللَّه ﷺ يخطب الجمعة .. ويدعو فى الخطبة الثانية منها .. أفلا تفتح أبواب السماء لدعاء رسول اللَّه ﷺ فى هذه الساعة !!! أوَ لا تكون هذه ساعةً مباركةً يستجيب اللَّه تعالى لِكُلِّ داعٍ فيها !!!

فإن قلت أنَّ الحديثَ الشَّرِيفَ يذكُرُ أنَّهُ لا يوافقها عبد مسلم ، وهو قائم يصلى ، ووقت الخطبة ليس وقت صلاة .. فنقول لك أنَّ رسول اللَّه ﷺ قد أخبرنا أيضاً أن المنتظر للصلاة كمن هو فى الصلاة .. ولذلك نَهَى رسول اللَّه ﷺ عن اللغو والكلام لمن يحضر خطبة الجمعة ، بل وقال عليه الصلاة والسلام أنَّ مَنْ عَبَثَ بالحصى فقد لَغَى ، وأنَّ من قال لجاره ، والإمام يخطب

" أَصْـمُتْ " فقـد لَـغَى .. وهـذا معنـاه الحـضور التـام ، والإنـصات للخطبة ، وعدم الانشغال بغيرها كأنّه في الصلاة ..

واعلـم أَنَّـهُ كمـا تـدور سـاعة الثلـث الأخـير مـن الليـل علـى البـلاد والقـارات ، ففـى وقـت تكـون فـى الحجـاز مـثلا .. وتكـون فـى مـصر بعـد سـاعة .. وفـى المغـرب بعـد سـاعة أخـرى ، وهكـذا .. فكـذلك تـدور سـاعةُ الجمعـة المـستجابُ فيهـا الـدعاءُ فـى الأقـاليم والبلدان ..

وحتـى بعـدما انتقـل رسـول اللّـه ﷺ إلى الرفيـق الأعلـى .. فـإن بركـة هـذه الـساعات ظلـت فـى الكـون تـدور فيـه كيفمـا يـشاء اللّه تعالى ...

كـذلك ليلـة نـزول القـرآن قـد جعلـها اللّـه تعـالى ليلـة القـدر .. وشرَّفَها وأعلى ذكرها وبارك فيها.

ومـا ذكرنـا لـك هـذه المعـالم الروحيـة إلا لِتَتَنَبَّـهَ إلى عظمـة رسـول اللّـه ﷺ وإكـرام ربِّـهِ جَـلَّ وعَـلا لَـهُ .. فـساعة مولـده سـاعةٌ مباركـةٌ .. وساعة دعائـه سـاعةٌ مباركـة .. وليلـة نـزول القـرآن عليـه ليلـة مباركـة .. وكـل مـا يتـصل برسـول اللّـه ﷺ مـن قريـبٍ أو بعيـدٍ هـو مباركٌ ميمون ، وله عند اللّه سِرٌّ وخصوصية ..

واللّه تعالى أعلى وأعلم مهما قلنا واجتهدنا ..

ونحـن نكـرر ونقـول أن رسـول اللّـه ﷺ هـو عبـدُ اللّـه ورسوله .. ومـا تجاوزنـا حقـه فـى المَدْحِ والإطـراء .. بـلْ إِنَّـنَا لا نُوَفِّيـهِ

حَقَّـهُ العظـيم .. ولا قـدره الجليـل عنـد اللّـه تعـالى .. ولكنّـهُ ﷺ العبد الكامل .. وخير خلق اللّه تعالى..

فـانظر أنـت إلى مـا مَيَّـزَ اللّـه بـهِ بعـضَ خَلْقِـهِ مِـنَ الملائكـة وغيرهـم ... ثـم اعلـم أن رسـول اللّـه ﷺ أعلـى مـنهم قـدراً .. وأعظـم ميزة ... وكل ذلك من فضل اللّه تعالى عليه .. وإكرامه له ...

تقول السيدة عائشة عن رسول اللّه ﷺ .. " كان يرى بالليل فى الظُـلْمةِ كما يرى بالنهار فى الضوء " ذكره ابن عَدِيٍّ فى الكامل ، والبيهقى فى الدلائل عن " ابن عباس " ، وهو حديثٌ حسن ...

ويقـول ﷺ " **إنَّ اللّـه تَعَالَى خَـلَقَ خَلْقَهُ فِى ظُـلْمَةٍ ، فَألْقَى عَلَيْهِمْ مِـنْ نُـورِهِ ، فَمَـنْ أَصَابَـهُ مِـنْ ذَلِك النُّـورِ يَوْمَئِـذٍ اهْتَـدَى وَمَـنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ** " وهو صحيح ، رواه ابن عمرو ، وذكره أحمد فـى مسنده ، والحاكم فى مستدركه ، وكذلك الترمذىّ ..

ولاشـك أنَّ كُـلَّ مَـنْ أَصَـابَهُ نُـورُ اللّـه تَعَـالى ، قَـدْ اهْتَـدَى عَلَـى قـدر مـا أصـابه مـن هـذا النـور ، فَتَـفَاوَتَتْ الأقْـدارُ منـذ ذلـك العهـد ، وظهـر التَّـابع والمتبـوع ، وأهـل النبـوة وأهـل الرسـالة ، وأهـل الولايـة ، وأهـل التقـوى ، وأهـل الإيمـان .. واللّـه سـبحانه وتعـالى يخلـق مـا يـشاء ويختـار ، ويـرزق مـن يـشاء بغـير حـساب ، ويجتبـى إليْـهِ منْ يُحِبُّ ويرضى ، ولا معقب لحكمه جَلَّ شأنه ..

ولأزيدك تأكيداً أنك تعيش فى حضرات روحية لا تدركها ، إلا إذا فـتح اللّـه عليـك ، وخرجـت مـن نطـاق ماديتـك وبـشريتك ومنطقـك

المادى الترابيّ ، أذكرُ لك لفتةً دقيقةً ...

يقول تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1] .

والآية معناها واضحٌ ... كُلُّ مخلوقٍ للّه تعالى يُسبِّحُهُ جَلَّ وعَلا ، ونحن لا نَفْقَهُ هَذا التسبيحَ ولانفهمه .. وابن آدم على إطلاقه جاهلٌ بهذا التسبيح .. ومقصِّرٌ فى تسبيحه هو للّه تعالى ، فمرَّة يذكره ، ومرة ينساه .. واللّه سبحانه حليم على جهلنا ، وغفور لتقصيرنا ....

ثم يتساءل العلماء ويختلفون .. هل هذا التسبيح من الكائنات هو بلسانِ " الحال " أم بلسان " المقال " . !!!

والتساؤل نفسه لامجالَ له ، ولامعنى لمناقشته ... فما هو الحال وما هو المقال !! فهل كل تسبيح للّه تعالى لابد وأن يكون بلسان وشفتين ، وكلام ككلامنا ، وأصوات كأصواتنا !!! وإذا كان لبعض الكائنات لسانٌ وشفتان ، فإن هذا ليس للجماد وللسموات ولا للأرض ... وحتى ما كان له لسان وشفتان فنحن لانفهم كلامهم ، إلا إذا علَّمَنَا اللّه تعالى كلامهم ...

يقول سيِّدنا " سليمان " عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾[2] .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٤٤.

(٢) سورة النمل آية : ١٦.

فمـا تكَـلَّمَ " سـليمان " مـع الهدهـد ، ولا فَهِـمَ كـلام النملـة ، إلاَّ بمـا عَلَّمَـهُ اللَّـه مـن منطـق الطـير وغـيره ، فَلِكُـلُّ أُمَّـةٍ مـن الأمـم المخلوقة لغةٌ وحديثٌ وكلامٌ وتسبيحٌ من جنس كلامهم ..

أمَّا أن نتصور أن كُلَّ مُسَبِّحٍ للَّـه تعالى لابد وأن يسبِّحَ باللغة العربية ، وبكلام تسمعه آذاننا ، فهذا تصور مردودٌ على صاحبه .. ولامعنىً أبدًا لمناقشة لسانِ الحالِ ولسانِ المقالِ ، فنزيد القارئين حيرة وتساؤلاً ...

ورسـول اللَّـه محمـدُ ﷺ رُوِىَ عنْـهُ أنَّـهُ قـد خاطـب الـضبَّ ، والغزالة ، والجمل ، والشجر ، والحجر ، وغيرهم .. وما هذا إلاَّ بعلمٍ من اللَّه تعالى علَّمَهُ إيَّاه.

وكيف قال الضبُّ لرسول اللَّـه ﷺ " أشهدُ أنَّكَ عَبْدُ اللَّـه ورسُولُهُ " !!! ومن أدرى الضبَّ بذلك ، وهو يعيش في الصحراء والرمال، ولا يعاشر الإنس !!!

ومَنْ أعلَمَ جِذْعَ النخلة الذى كان فى مسجد رسول اللَّـه ﷺ .. وكان يستند إليه فى خطبته قبل صنع المنبر ، وصار للجذع خوار سمعه المصلون .. حتى ضَمَّهُ رسول اللَّه ﷺ وكأنَّهُ يطمئِنُهُ ويحنو عليه !!!....

وكيف باضت الحمامة وكيف نسج العنكبوت على غار " ثور " ، بعد أنْ دَخَلَهُ رسول اللَّـه ﷺ خلال الهجرة ، تعْمِيَّةً للكفار عن مكان رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام .. وحماية له . !!! وهل تبيض الحمامة وينسج العنكبوت ، إلا فى مكان يكون منعزلاً عن الإنسان ، وبعيداً عن الحركة أماناً لهما !!!

ألا يَدُلُّ كُلُّ هذا –وغيره كثير وكثير – على أنَّ نُبُوَّةَ محمد ﷺ ورسالته معلومة للخلائق كلها ، من أرض وسماء ومخلوقات في البراري والصحاري ، لم تصلها الرسالة على لسان مُبَلِّغٍ ولا نَاقِلٍ !!

فإن قلنا لك أن لرسول اللَّه ، محمد ﷺ حضور وحضرة في الكون كله ، تشعر به المخلوقات جمعاء ، وتتأثر بأنواره وأنوار روحه العليَّةِ ، عَجِبْتَ وتعجَّبْتَ من قولنا ، والآيات كلها أمامك تُحَدِّثُكَ وَتُعَرِّفُكَ وتشهد بذلك .!! وأنت غافل عنها ...

فافتح رحمك اللَّه وإيَّانا – بصرك وبصيرتك .. وتنبَّه إلى هذه المعاني ، التي ما أَلِفْنَاها ولا استحدثناها .. بل هي موجودة أمامك ، ومسطورة في بطون المراجعِ والكُتُبِ .. وطوبى لمن يتأمَّل .. ويتفَكَّر .. ثم يتدبَّر .

ومن هذه الحضرة المحمديّة .. وهذا الحضور النبويّ .. تلتقي أرواح المؤمنين بروح رسول اللَّه ﷺ .. إمَّا يقظة وإمَّا مناماً .. كُلٌّ على قدره وقدر روحه ونفسه ، فيُعَلِّمُهُم ... ويُهَذِّبُهُم .. ويأخذ بيد من يحب منهم ، ويجيز ﷺ مَنْ هو أهلاً للإجازةِ بالإرشاد والدعوة إلى اللَّه تعالى ... وسبحان الفتاح العليم ....

وسِيَرُ الصالحين مليئة بهذه الأخبار الروحانية العالية .. إمَّا يقظةً وإمَّا مناماً ، وقد ذكر طرفا منها الإمام الحكيم " محمد بن على الترمذيّ " في كتابه الجليل " بدْوِ شأن أبي عبد اللَّه الترمذي " ، والمنشور في بداية كتابه " ختم الأولياء " ، كما ذكر

مثلــه الــشيخ " عبــد الوهــاب الــشعرانى " ، وكــذلك الــشيخ " عبــد العزيز الدباغ المغربى " ،

وآخر من قرأتُ له فى هذا الشأن هـو الـشيخ " محمـد عبادة بـن صالح الحسينى العدوى " فى كتابه" البرهان والتأييد فى علم التوحيد " والذى ألَّفَهُ عام ١٣٧١هـ/١٩٥١م وَ نُشِر بالقاهرة ..

و كُلُّهـم ذكـروا بعـضاً مـن هـذه الـرؤى يقظـة ومنامـاً .... رَضِـيَ اللّـه عنهم ...

فحديثنا ليس فلسفة نظرية .. بل هو واقعٌ تؤيده الوقائع .. ولكنها لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ....

● فـتح اللّــه علينـا وعليـك .. وأفـاض علينـا وعلـيكم مـن نـور نبيـه ﷺ مـا يجعلنـا أهـلا للانتـساب لحـضرته العليـة .. وحـضوره الـسنىّ .. ورزقنـا الأدب الـلازم لهـذه الحـضرة المباركـة ، وجمعنـا علـى رسـول اللّــه ﷺ يقظـة ومنامـاً .. حـالاً ومـآلا .. صـلّى اللّــه عليْـهِ وعلـى آلـه وصـحبه والتـابعين وعلينـا وعلـى عبـاد اللّــه الـصالحين أجمعـين ، مـن أهل السموات ، وأهل الأراضين ....

- **الحضرات الإلهية :**

سبق القول بأن معنى توحيد اللّه تعالى وتقديسه ، هو أنّهُ لاموجود بحقٍّ إلا اللّه تعالى .. فهو واجبُ الوجودِ بلا علةٍ ولاسببٍ ، جَلَّ وعَلا ... وكل ما سواه مفقود .. وكل ما سواه له وجود عارض ، له بداية وله نهاية ... وكل الذى فوق التراب .. تراب ...

وقلنا كذلك أن أفعال اللّه تعالى تظهر فى الكون بمخلوقاته ... فالأفعال تنسب إليهم .. وحقيقتها من اللّه تعالى .... كما قلنا ان هذه الأنوار ، إنَّمَا هى نتيجة لتجليات صفات اللّه تعالى على الكون كله .. فجعل اللّه تعالى هذه الدنيا هى عالم الأسباب والنتائج .. واللّه سبحانه هو مسبب الأسباب وواهب النتائج ... فهذا يرزق ذاك .. وهذا يقْتُل ذاك .. واللّه فى الحقيقة هو الرزاق .. وهو المحيى المميت ....

وقلنا كذلك أنَّ لِكُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللّه تعالى أنوار وأسرار وجنود وحضرة وتجليّات ... وأن هذه التجليّات على قلوب العباد وأرواحهم تكون هى المسببات الدافعة لأعمالهم .. وكُلُّ نَفْسٍ وروحٍ منهم تلتقط من هذه الحضرات ما يناسبها فى كل وقْتٍ وفى كل حال ..

فأفعال العبادِ ، إنَّما هى نتيجة لتجليَّات الحق سبحانه وتعالى عليهم .. وحضرات الأفعال هى نتيجة لحضرات الصفات والأسماء الإلاهيَّةِ ...

كما أنّنا نَعْلَمُ أنَّ صفات اللّـه تعالى لاتتعطَّلُ ولاتَتَوَقَّفُ أبدًا .. مع ملاحظةِ أنَّ أسماء اللّـه تعالى وصفاته ، غير محصورة فى التسعة والتسعين اسما المذكورة فى حديث " أبى هريرة " رَضِيَ اللّـه عنه ، الذى رواه إبنُ حِبَّان والترمذى والحاكم والبيهقى ، وَحَسَّنُوهُ ، وهناك روايتان أُخْرَيَتَانِ : رواهما " أبو هريرة " أيضاً ، وذكرهما الحاكم وأبو نعيم وأبو الشيخ وإبن مردويه وابن ماجة ، وذكر فيهما الإسماء التالية والتى لم ترد فى ما رواه أبو هريرة فى الرواية الأولى .. ومنها :

الفرد	الأحد	الكافى	المنيب
المحيط	الجميل	الصادق	الدائم
القديم	الوتر	الفاطِر	العلاَّم
المليك	الأكرم	المالك	الشاكر
المدبِّر	الرفيع	ذو الطول	ذو المعارج
ذو الفضل	الخلاَّق	الكفيل	البرهان
الربُّ	السامع	الأبد	العالِمُ
المنير	التـامُّ	القديم	الوتر
القائم	المعطى	الراشد	البَارُّ
البديع	النصير	المبين	القاهر
الواقى	ذو القوة	الحافظ	الكافى

ومن أسماء اللّـه تعالى المتداولة بيننا : الشافى ، الستَّار ، العاطى ، المنعم ، الجابر ، الناصر ، الرازق ، المحسن ، والجوَّاد .. وغيرها ...

كمـــا أن قـــول اللَّـــه تعـــالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

دليـلٌ علـى إطـْلاقِ أحـسنِ الأسمـاءِ علـى اللَّـه تعـالى .. فالأسمـاءُ الدالَّـةُ علـى الكَمَـالِ فـى أيَّـةِ صِـفَةٍ ، تليـق بجنـاب اللَّـه تعـالى ، فـلا مانع من إطلاقها على الذات الإلاهية ...

وقوله ﷺ : " اللَّهمَّ إنِّى أسْألُكَ بِكُلِّ إسمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أو أنْزَلْتَهُ فِى كِتَابٍ مِنْ كُتُبِكَ ، أو عَلَّمْتَهُ أحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ " يدلُّ على أن أسماء اللَّـه تعالى ليست كلها معلومة لدينا ، فإن منها ما استأثر اللَّه بهِ فى علمه ، ومنها ما اختصَّ بِهِ عبْدًا من عباده ، ومنها ما أنزل فى كتاب من كتبه ، لِذلِك فالإحاطـة بأسمـاء اللَّـه تعـالى وصـفاته مـستحيلة ، وكـذلك الإحاطـة بحضرات هذه الأسماء والصفات مستحيلة ، وكل مخلوق يأخذ منها على قدره ، ولايحيط بشيئ من علم اللَّه تعالى إلا بما يشاء هو ، جَلَّ شأنه ...

وتنبَّـــهْ إلى أنَّ هَـــذِهِ الحـــضراتِ لاتخُـــصُّ الإنـــس والجـــن فقـط .. بـل تـشمل كـل المخلوقـات والأكـوان .. مـن الأفـلاك إلى الحـوت فـى قـاع البحـر ، إلى الـوحش فـى الفَـلاة ، إلى الجبـال والـشجر والـسحاب والريـاح وجميـع المخلوقـات .... فاللَّـه تعـالى قـد تجلـى للجبـل وجعلـه دكًّـا .. ومِـنَ الحِجـارَةِ مـا يهـبِطُ مـنْ خـشيةِ اللَّـه ، ويـسبح الرعـدُ بحمـده ... ، والـنجم والـشجر يـسجدان ، وإنْ مِنْ شَيئٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحمده جَلَّ شأنه ...

كل مخلوق كما قلنا يلتقط من هذه الحضرات ما يناسب طبعه

وخِلْقَتَهُ وحاله ونفسه وروحه .. وينتقل من حضرة إلى حضرة .. وتصدر منه الأفعالُ بما يناسب وجوده في كل حضرة ...

يقول تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1] ..

فطبيعة المخلوق .. وروحه ونفسه وأدبه ينقله من حضرة إلى حضرة ، فتصدُرُ منه الأفعال بما يناسب أنوار هذه الحضرات ...

وكل هذه الحضرات مجموعة في الحضرة الكبرى الشاملة الجامعة .. وهي حضرة " الفَرْدانِيَّة " العظمى ، وفيها ومنها تنبعث الحضرات الأخرى ..

ومن ساداتنا من يسمي الحضرة الجامعة حضرة " الواحدية " ولكنّي أميلُ إلى إطلاق مسمى " الفَرْدانِيَّة " لأسباب كثيرة لامجال لذكرها هنا...

وهناك نوع من الحضرات العليا .. ذات التنزيه الخالصِ للّه تعالى .. فالقدوس .. والرحمن مثلاً ، هي من الحضرات التنزيهية العظمى ، الشاملة داخلها للكثير من الحضرات ، ومن دخل في أنوار هذه الحضرات ، فإنَّهُ يخرج من دائرة الأكوان كُلِّهَا ، ويصبح مغيباً في الأنوار الإلاهية على قدر ما تلتقط روحه ... ، وربما تذْهلُ نفسه وجوارحه عن أفعاله ، حيث يتولى اللّه رعايته وتسديده ، وهو في هذا الحال فيحفظ عليه شرعه وشريعته ...

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨٤.

ونزيد أن حقيقة كل حضرة من حضرات الأسماء والصفات ليست قاصرة على أنوار هذه الصفة فقط ، ولكن المبتدئ فى أول حالة يَظُنُّها كذلك ، فإذا ثبت وتعمق ، وأراد اللّه له المزيد - وهذه أرزاق من اللّه تعالى لعباده - رأى داخل حضرة الصفة الواحدة ، أنواراً تأتى من الحضرات الأخرى والصفات المتباينة .

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾[1] .

فالأمر بالقتل قد صدر إلى العبد الصالح من باب الرحمة بالوالدين ، وكذلك رحمة بالغلام فمات قبل أن يصبح مُكَلَّفاً ...

والبلاء يُصَبُّ على المؤمن فيُثَابُ عَلَيْهِ .. غفراً للذنوب ورفعاً للدرجات ..

وظاهرُ الأعمال فى الحالتين القُوَّةُ والبطش ... ومصدرها الرحمة والشفقة ...

ويقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]

وصدق اللّه تعالى ، فإنَّ القِصَاصَ بما فيه من ظاهر العنف والألم ، لهو كفَّارَةٌ للذنب كما قال جمهور العلماء ... فقد استوفى الدين حَقَّهُ ممن أقيم عليه الحد ، وصارت له بذلك حياة كريمةٌ فى الدار الآخرة ، ولو لم

---

(١) سورة الكهف آية : ٨٠ ، ٨١ . (٢) سورة البقرة آية : ١٧٩ .

يقم عليه هذا القصاص لَعُذِّبَ بِهِ فى الآخرة ....

- وبعض العلماء يُقَسِّمُ أسماءَ اللّه تعالى إلى أربعة أقسام :-

الأول : مَا دَلَّ على الذّات ... مثل : الرحمن .. الحىّ .. القهّار .. القيوم ... الخ .

الثانى : مَا دَلَّ على الصِّفاتِ ... مثل : القوى .. القادر .. اللطيف.. الودود ... الخ.

الثالث : مَا دَلَّ على الأفعال ... مثل : المصور .. الخالق .. البارئ .. المنتقم ... الخ .

الرابع : مَا دَلَّ على التنزيه ... مثل : العزيز .. القدوس .. السلام .. العلىّ ... الخ.

- وبعض العلماء يُصَنِّفُهَا إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الأسماء الجلالية ... وهى الدالَّةُ على القوة والبطش والجبروت وغيرهم .

الثانى : الأسماء الجمالية ... وهى الدالَّةُ على الرحمة والفضل والجود.. وغيرهم .

الثالث : الأسماء الكمالية ... وهى الدالَّةُ على التنزيه والتقديس .

وأيًّا ما كانت هذه التصانيف الوضعية بمسمَّيَاتِها ، فهى لاتفيدنا فى مجال حديثنا هذا ، فإن اهتمامنا بالمعنى والجوهر ، واللّه سبحانه وتعالى له الجلال كله .. والجمال كله .. والكمال كله ...

وحتى من يتكرّم اللّـه عليه من عباده فيصفه بصفةٍ من صفاته العليَّةِ كالمؤمن .. والوليّ .. والرؤوف .. والرحيم .. فشتّان ما بين معنى هذه الصفات اذا ما اطلقت على المخلوق ، وبين معناها اذا أطلقت على الخالق جَلَّ وعلا ... فكُلٌّ على قدره ... والمخلوق عَبْدٌ مهما سَمَا وعلا ... واللّه جَلَّ جلاله ليس كمثله شيئُ وهو العليُّ العظيم ..

● ونعود إلى حديثنا فنقول إن كُلَّ الكون وكائناته هم في حضرات الأفعال والصفات والذات ... سواءً أدركوا هذا أم لم يدركوه ... فاللّه سُبْحانَهُ وتعالى هو القيوم المهيمن على أجسادهم وأنفسهم وأرواحهم .. وكُلُّ شَيئٍ عنده بمقدار .. عالم الغيب والشهادةِ الكبير المتعال .. سواء منكم من أسرَّ القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخفٍ بالليل ، وساربُ بالنهار ... فالجميع في قبضة اللّه تعالى .. ، والكلُّ تحت عظمة سطوته وقهره جَلَّ شأنه العظيم ..

وغفلة الناس عن هذه الحضرات - رغم وجودهم فيها وسيطرتها عليهم - أمرٌ ليس بالعجيب ... فإنَّ العقل للإنسان هو وسيلة الإدراك والمعرفة .. وما خلق اللّه تعالى خَلْقًا أحبَّ إلَيْهِ من العقل ، كما ورد في الحديث الشريف .. ولكِنَّهُ وإنْ كان وسيلة للإدراكِ والمعرفةِ إلاَّ أنَّهُ أيضا حجابُ بين العبد وبين ربِّهِ ..

ذلك أنه بالعقل يهتدى الإنسان إلى ربِّه خالقِ السموات والأرض ... وبالعقل يكون التدبُّرُ والتفكُّرُ فِي اللّه تعالى .. وأهلُ

التدبّر والتذكّر محمودون من اللّه تعالى ... ولكن هذا التدبّر والتفكّر إذا حُجّر على قدر العقل فقط .. وبتفكيره ومنطقه المادى ، فقد قَصَّر صاحبه فى حقّ اللّه تعالى .. وصار عقله حجابًا له عن ربه .. فاللّه سبحانه وتعالى لايَحدُّه عَقْلٌ ولامنطقٌ .. وما عرفه مخلوقٌ حقّ معرفتهِ .. ولاذكره حقّ ذكره ، ولاقدر اللّه حقّ قدره ... جَلَّ جَلالُ اللّه ...

فأنت إذا عرفت اللّه بعقلك .. فلن تعرفه إلاّ على قدر عقلك أنت .. أما اذا عرفت اللّه تعالى باللّه .. فحينئذ ينوِّرُ اللّه عقلك ، ويزيده اتساعاً وإدراكاً ، بما لاحدود عليه منك ..

ولذلك فهناك فرق بين الشهادة والشهود ... فالشهادة بالبصر .. وترجمانها العقل لما يرى البصر .. أما الشهود فبالقلب والفؤاد ، وترجمانهما البصيرة والروح ... وقوانين البصيرة والروح ، غير قوانين العقل والمنطق.

ولكن اعلمْ أنَّ هناك فرق بين حجاب العقل عن اللّه تعالى .. وحجاب الجهل والانشغال عن اللّه تعالى ... فالأول حجاب نورانيّ فيه بعض المعرفة والجهاد والتفكّر ... أما الثانى فهو حجاب ظلمانيّ من الأكوان والأغيار ....

ففرقٌ بين جهل وجهل .. وفرق بين علم وعلم ...

واعلم كذلك أن حضرات الأفعال .. هى حُجُبٌ عن حضرات الصفات .. كما أن حضرات الصفات هى أيضاً حُجُبٌ

عـن حـضرات الـذات ... وكمـا سـبق القـول بـأن حـضرات الأفعـال .. تعــيش فيهــا ببــصرك وحواسّــك ... وحــضرات الــصفات تحــضرها بقلبك.. أما حضرات الذات فلا تحضرها إلاّ بروحك ....

والسياحة فى هذه الحضرات السَنيَّة .. منها ما هو مكتسب بجهدك وذكرك .. ومنها ما هو موهوبٌ من اللّـه تعالى بفضله وكرمه ... والفضل كله للّهِ تعالى فى الحالتين ، فما التوفيق والهدى إلا من اللّه تعالى ...

وأمّا المُكْتَسَبُ بالجهد ، والذكر ، والإخلاص للّه تعالى ، والتفكر والتدبر .. فان الكسب فيه يكون على قدرك .. وعلى قدر جهدك ..

أمّـا الموهـوب مـن اللّــه تعـالى فهـو هديـة مـن اللّــه جـل شأنه علـى قـدر مـا يطيقه الموهـوب لـه .. وعطايـا الملـوك اكبر وأجَلُّ وأعظم من طلب العبيد وأمانيهم .

ورغم جهدك ومجهودك وإخلاصك للّـه تعالى ، فإنك لاتتعدى حضرات الأفعال والأسماء ... أمّا حضراتُ الصِّفَات فلا تسبح فيها إلا بفيض اللّـه عليك ، وإكرامه لك ، وإعداده لقلبك ، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن .. ولامالك للقلوبِ إلا اللّـه تعالى .. فهو الذى يطَهِّرُهَا وينيرها ويهديها وينزل السكينة فيها ...

فحضورك حضرات الصفات هو حضورٌ جَبْرِىٌّ من اللّه تعالى على قلبك .. وبهذا الحضور تتفتح بصيرتك ، ويستنير فؤادك ، فتتلقّى من هذه الحضرات النورانية ....

فالـذاكِرُ للّـه تعـالى بِلِـسانِهِ باسـم مـن أسمائِـهِ تعـالى ، مهمـا استغرق فـي هـذا الـذكر .. فإنـه لايتعـدى حـضرات الأسمـاء والأفعـال ... ولاينتقـل إلى حـضرة الـصفة لهـذا الاسـم ، إلاَّ إذا نقلَـهُ اللّـه تعـالى إليهـا فـضلاً وكرمـاً ... وحينئـذ يـسكت لـسانه .. ويـسكن قلبـه ولاينـشغل إلا بنورانيـة هـذه الـصفة .. ولايـستطيع الخـروج منهـا بإرادته ... فلا الدخول فيها بإرادته ، ولا الخروج منها بإرادته ...

وتنبَّـه - رحمـك اللّـه وإيَّـانا - إلى أن الـسابح فـي حـضرات الصفات .. ليس بالضرورة أن يعلم بـسبحاتِه هـذه ... فالحدود والفواصل بين هذه الحضرات ليست كما يتصورها العقل البشرى .

ولكنـه يجـد أثـراً ومـذاقاً لهـذه الـصفة فـي قلبـه وروحـه .. ويشعر بسعادة غامرة قد لايدرى لها سببا ماديًّا عقلياً ... وتتأثر نفسه وأفعاله بأنوار هـذه الـصفة فتفيض عليه .. ويتبدَّلُ خُلُقُـهُ إلىما يناسب هـذه الصفة وخصوصيَّاتها ...

- وليس كـل مستغرق فـي أنـوار صِفَةٍ مِثْلَ الآخَرْ .. بـل كُـلٌّ علـى قدره .. وعلى قدر ما كتبه اللّـه تعالى له ..

وقد ينتقل من صفة إلى صفة .. ومن حضرة إلى حضرة ... فينهل من هذه ومن تلك .....

وتكـون المعانـاة الكـبرى لمثـل هـؤلاء ، هـى لحظـة انتقـالهم مـن حـضره إلى حـضرة ... فقـد يكـون انتقالـه مـن صـفة جماليـة ، إلى صـفة جلاليـة .. مثـل انتقالـه ، مـن صـفة المـودَّةِ والرَّحمـة ، إلى صـفة

الكبريـاء والعظمـة والقهـر .. فتجهـدُ روحـه جهـداً شـديداً ، لتبـاين أنـوار هـذه الـصفات ، وتنـوُّعِ مـذاقها ، وأثرهـا علـى القلـب والـنفس ، وكـذلك علـى الجـسد ، ثـم علـى مـا يـصدر منـه مـن أفعـالٍ تناسـب أنوار هذه الصفة ....

فتراه فى لحظة يصول ويجول باللّه تعالى .. وفى اللحظة التى تليها منكسراً ضعيفاً وَجِلاً ...

فهـو بـين قولـه تعـالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1] ، وبـين قولـه تعـالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [2] ...

واللّه تعالى هو الذى أضحك وأبكى .. وهو جَلَّ شأنه أمات وأحيا .. وهو المُعِزُّ المُذِلُّ ، وهو تقدَّسَتْ ذاته الودود الرحيم .. ذو البطش الشديد ... فما جمع الأضداد فى صفاته إلاَّ الحقّ جَلَّ وعلا .. والعبدُ قائمٌ على أمر سيِّدِه ومولاه ... ومن كان له اختيار مع اللّه تعالى فما دخل بعدُ فى مقام العبودية ... وما ارتقى بعدُ إلى مقام الإحسان .. ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [3]

فـصاحب الـصفة الواحـدة هـو صـاحب " تمكـين " ، وذلـك

---

(١) سورة الرعد آية : ٢٨ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٢ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٦ .

باعتبارِ ثباتـهِ علـى صِـفةٍ واحِـدةٍ ... وصـاحب الـصفات المتباينـة هـو صاحب " تلـوين " كما قلنا سابقاً .. وذلك باعتبار سياحتهِ بين عِدّةِ صِـفاتٍ وقـد يتلـوَّنُ المُـتَمَكِّنُ .. كَمَـا يَـتَمَكَّنُ المُتَلَـوِّنُ ... وفـي الحـالتين يجـب أنْ يكـونَ ظـاهِره ثابتـاً راسـخاً ... وصـاحب " التكوين " فى الحالتين السابقتين هو أعلاهما درجة ومشرباً ...

وصاحب التكوين -لأزيدك إيضاحاً - هو المقصود فى الحديث الشريف " **فَـإِذَا أحْبَبْتُـهُ كُنْـتُ سَـمْعَهُ الـذِى يَـسْمَعُ بِـهِ** ، **وبَـصَرَهُ الـذى يُبْصِرُ بِهِ** ، **وَيَدَهُ التِّى يَبْطِشُ بِهَا** ، **ورجْلَهُ التى يَمْشِى بِهَا** ، **وإنْ سَألَنِى لأُعْطِيَنَّهُ وإنْ استَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ** " .. وقد سبق ذِكْرُ هذا الحديث ...

ومِنْ أخطر ما يعانى السالك إلى اللّه تعالى فى هذه المرحلة ، حِيرته بين الإطلاق والتقييد ... فمرة ينظر إلى أفعال العباد فيرى فيها الخير والشر ... فينسب الخير إلى اللّه تعالى ، وينسب الشرَّ إلى الخلق ونفوسهم .... ، ثم ينظر إلى العباد فيراهم قوالب مُجَـوَّفَـةً ، لاحولَ لهم ولاقوة .. ويرى اللّه تعالى فعالاً فيهم كما يريد .. فينسب الأفعال كلها للّه تعالى ، إيمانا ويقينا بقدرة اللّه وسلطانه ... ولكن أدبه مع اللّه تعالى يمنعه من أن ينْسِبَ أفعالَ العِبَادِ من الشرِّ إلى اللّه تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾.. فيعود على الخَلْق بأفعالِ الشَّرِّ منهم ، أدباً مع اللّه تعالى ...

ولايزال فى هذه الشِدَّةِ والحِيرة .. لايطمئن إلى حكمهِ الأول ، ولا إلى حكمهِ الثانى .. حتى يتفضل اللّه تعالى عليه ، فيلهمه نور سرِّ القَدَرِ فى الأكوان .. فيهدأ ويطمئن و ينتقلَ من هذه الشدة القاتلة ....

وكذلك هو بين الخوف والرجاء .. والهيبة والأنس ... من اللَّه تعالى .. والخوف والهيبة يأتيان العبد من الصفات الجلالية ... والرجاء والأنس يأتيان العبد من الصفات الجمالية ، فلا يَقِرُّ له قرار ولاتهدأ لَهُ نفسٌ ولاروح .. حتى يتفضل اللَّه عليه ، فتأتيه البشرى من اللَّه سبحانه وتعالى فيفرح بفضل اللَّه ورحمته ...

ومن بُشِّرَ من اللَّه تعالى فلم يفرح ولم يقبل هذه البشارة .. فقد أساء الأدب مع اللَّه .... ، وكذلك من لم يُبَشَّرْ من اللَّه تعالى .. ففرح واطمئن .. فقد أساءَ الأدب مع اللَّه تعالى .

ومرة أخرى ، أذكّرُ بأننا نتحدث عن صفوة عباد اللَّه المؤمنين المحسنين ، الذين تعلقت قلوبهم بعرش الرحمن ... وهامت أرواحهم إلى اللَّه تعالى محبَّةً وشوقاً ... ، فهم غير ناظرين إلاَّ إلى اللَّه ، ولايرجون من سواه مدحاً ولايخافون ذماً ، ولاتفتنهم البشرى ولايغرُّهُم باللَّه الغَرُور ... فهم مع اللَّه حيث يُقِيمُهُم ... سَلَّمُوا أمورهم إليْه ، ووجَّهُوا وجوههم إليْه ، وألجأوا ظهورهم إليه ، رهبةً ورغبةً إليه ، وخرجوا من حولهم وقُوَّتِهم ، إلى حولِ اللَّه وقوَّتِهِ ، فدخلوا في مقام العبودية صادقين ... رضى اللَّه عنهم وعنا بهم أجمعين ....

والحديث في هذه المعاني لايؤدى الغَرَضَ على الحقيقة .. فإنَّمَا هى مذاقات ومشارب وأنوار إلاهية على الأنفس والقلوب والأرواح ... واللغة وبيانها قاصران عن إيضاح المعانى والتعبير عنها .. ولكننا أردنا فقط أن نشير إليها قدر ما نستطيع ، واللَّه سبحانه وتعالى يمنُّ على من

يشاء بالفتح والنور والهدى ، فيدرك ما أردنا الإشارة إليه ، وعجزنا عن التعبير عنه ...

- وكل ما ذكرناه آنفاً كان عن حضرات الأفعال والأسماء والصفات .... أمَّا حضرات الصفات القدسية والتنزيهية المطلقة ... فهذه نحن أعجز وأقل من أن نتحدث عنها حتى ولا بالإشارة...

والذين سبقوا بالكلام في هذا الأمر ما زادونا إلاَّ حيرةً .. وجهلاً ...

ومن ذا الذى يتحدث عن قدس اللّه الطاهر المطهر ... ومن ذا الذى يتحدّثُ عن عوالم النور والضياء والجمال المطلق ... ومن ذا الذى يتحدّثُ عن الكبرياء والعظمة والجلال المطلق !!!

إنما قال كل قائل على قدره .. وعلى قدر طاقات روحه وإتساعها ... فما أغنوا ولا أشبعوا ... بل ما شرحوا ولا أوضحوا ..

وسبحان ذى العِزَّةِ والجبروت .. والملك والملكوت .. والعظمة والكبرياء ..

وصلى اللّه تعالى وسلم وبارك على نبينا محمد حيث يقول " **سُبْحَانَكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** "... جَلَّ جلال اللّه .. وعَزَّ جاهُهُ .. وتباركت أسماؤه ...

وهذه التجليّات العليا القدسية .. لاتلتقطها إلا الأرواح العليَّة السامية ، والروح من أمر ربى ... وهو أعلم بها .. وهى أعلم باللّه تعالى من النفس والقلب والفؤاد والعقل وكُلٍّ هؤلاء ...

وللـروح مقـاييسُ تُخـالفُ مـا دَرَجنـا عليهـا وعلمناهـا بالبـصر والتبصُّر ... والعقل والمنطق .. ولايحدُّها زمان ولامكان ...

فسبحان من يتجلى عليها بعظمته وأنواره وأسراره حيث لامكان ولازمان ولاخلق ولا أكوان ...

ومن يصطفيه اللّه تعالى ويكرمه بالمثول فى هذه الحضرات القدسية السنِيَّة، يُعينه عليها .. ويُعينه على استقبال بعض أنوارها وأسرارها ولايرى الحاضر فيها إلاَّ ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[1]، ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[2]، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾[3]

والذى تَصِلُ درجته إلى هذا الشرف الأعلى .. إنما يكـون سيره فـى اللّـه تعـالى ، ووجـوده وفنـاؤه فـى اللّـه تعـالى ، وصـحوه وسـكرُه فى اللّه تعالى ...

- فهناك سائر سالك إلى اللّه باللّـه ... وهـو المستعين بأوامره ونواهيه جَلَّ وعلا ...
- وهنـاك سـائر سـالك إلى اللّـه علـى اللّـه ... وهـو القاصـد وجـه اللّـه تعالىلايحيد ...
- وهناك سائر سالك إلى اللّه مع اللّه ... وهو الخـارج مـن حوله وقوته إلى حول اللّه وقوته...
- وهنـاك سـائر سـالك إلى اللّــه فـى اللّــه ... وهـو المـستنير بنـور

---

(١) سورة البقرة آية : ١١٥ . (٢) سورة القصص آية : ٨٨ .

(٣) سورة النجم آية : ٤٢.

اللّه تعالى .. والغارق فيه ...

والأولُ يعيش في عوالم الملك بالأوامر والنواهي من حضرات أسماء اللّه تعالى ....

والثاني يعيش في عوالم الجبروت الأدنى وحضرات أفعال اللّه تعالى ....

والثالث يعيش في عوالم الجبروت الأعلى مع أنوار تجليات صفات اللّه تعالى ....

أما الرابع فهو يعيش مع عوالم الملكوت الأعلى وأنوار التجليات الإلاهية عليه ....

والفروق بينهم ليست كبيرة في اللفظ .. ولكنها عميقة المعنى .. مختلفة المذاق ....

والأول ... سالكٌ إلى اللّه تعالى خالصا لوجهه الكريم ....

والثاني ... عارفٌ باللّه جَلَّ شأنه ، وخبير بالنفوس ومكائدها ....

والثالث ... ذاهلٌ عن الأكوان ، يضنيه الشوق ويقتله الوصل ...

والرابع ... كامِلٌ .. ويكمِّلُ غيره ، وعلى قدم نبيه ﷺ ...

وأهل هذه الحضرة السامية العليَّة .. لايستغرقهم الحضور أكثر من لحظاتٍ بزماننا وتوقيتنا على الأرض ... ولكنَّها عندهم لاتُقاس بهذا الزمن .. فليس عندهم زمان ولا مكان كما سبق القول .

وانظر إلى رسول اللّه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث رأى قوماً يزرعون في يومٍ ، ويحصدون في يوم ، وكُلَّما حصدوا عاد كما هو ، وهم أهلُ الجهاد في سبيل اللّه ، كما ورد في الحديث الشريف .... وما لبث

رسول اللّه ﷺ فى هذه الرؤية يومين ، بل حدثت كل هذه الرؤى والأحداث ، ورجع رسول اللّه ﷺ إلى مكانه ، وكان مازال دافئاً ....

واللّه سبحانه وتعالى الذى يطوىَ المكان لِمَنْ يحب من عباده ، قادرٌ جَلَّ شأنه على أن يطوىَ الزمان كذلك .. فيقدِّمَهُ ويؤخِّرَهُ بقدرته جَلَّ وعلا ...

ومهما حاولنا الشرح والإيضاح فلن نستطيع تبيان هذه الأمور التى لاتخضع لبيان ولا لغة ...

والإشارة لأهلها .. تغنى عن العبارة ....

- ومن أهل هذه الحظوة السامية ، والإنعامِ السنِيِّ .. يكون " المحَدَّثُون " والذين قال فيهم رسول اللّه ﷺ " **لَقَدْ كانَ فى الأُمَمِ قَبْلَكُم مُحَدَّثُون .. الخ**" وقد سبق ذِكرُ هذا الحديث الشريف ...

ولاتظن أن هذا الحديث للمُحدَّثينَ يَكُونُ بكلمات وحروف وألفاظ ... ولكنها أنوار لها معانى ، تنتقل إلى قلب وروح المُحَدَّثِ .. فيعِيَ الحديث ويدرك المعنى ...

وهو غير " النفث فى الروع " فان الأخير خاصٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

يقول ﷺ " **إنّ روح القُدُسِ نَفَثَ فِى رَوْعِى أنّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أجَلَها ، وَتَستوعِبَ رِزْقَها ، فَاتَّقوا اللّه وأجْمِلوا فِى الطَلَب** " .

رواه أبو نعيم فى الحلية عن " أبى أُمامة " ....

فالنفث في الروعِ .. هو غير الحديثِ .. وكلاهما غير الوحى ....

بل والوحى كذلك أنواع ...

فَوَحْيُ الأنبياء .. هو وَحْى خاصٌ للأنبياء والرسل صلوات اللّـه عليهم أجمعين ... وعادة ما يكون بنزول المَلَكِ على النبيّ، وسماع صوته ... بكيفية لاندركها ....

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (1) .

وقد أوحى اللّـه تعالى إلى ﴿ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (2) وأمُّ موسى ليست بنبيٍّ ولا رسول .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ (3)

فهناك إذا :

وحيٌ خاصٌ لِلأنبيَاءِ والرُّسُل ...

ووحيٌ لِغَيْرِ النَّبيّ أو الرسول ...

ونفث في الروع ...

---

(1) سورة الشورى آية :٥١ .

(2) سورة القصص آية : ٧ .

(3) سورة النحل آية : ٦٨ .

وحديث .... وفيه المُحَدِّثُ .. وفيه المُحَدَّثُ ...

وهؤلاء كلهم .. هم غير أهل السكينة ... وأهل الإلهام ... وأهل الخواطر ...

- وفي كل طبقة من هذه الطبقات تجد داخلها درجاتٍ ومراتب ... ، والناس يتفاوتون في أرزاقهم من الصحة ، والمال ، والبنين ، والعقل ، والحكمة ، وكُلِّ نِعَمِ اللّه عليهم ، ومنها هذه الدرجات الروحية ، حتى وإن كانت كُلُّ طَبَقَةٍ منهم تتميَّزُ بميزةٍ خاصَّةٍ بهذه الطبقةِ ، إلاَّ أنَّ التفاوتَ يظَلُّ قائماً بين أصحاب الطبقة الواحدة ، وتحت نفس المسمى ....

ولذا فقد يتعرَّف بعضهم على بعض ، وقد لايعرفون البعض وهو منهم كذلك ... بل قدْ يُنْكِرُ بعضهم على بعض .. لِبُعْدِ البَوْنِ بين ما فيه هذا وما فيه ذاك ... فإنَّ من في أسفَلِ الدَّرجِ لا يرى منْ هُوَ في أعلى الدَّرجِ ، وكذلك لاتساع سبحاتهم في الصفات والأسماء المتباينة ، وحيرتهم بين الإطلاق للّه تعالى ، والتقييد لخَلْقِهِ جَلَّ شَأْنُهُ .. ، وهم في ذلك تحت القانون الإلهي ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ...

كُلُّ هذا فضلاً عن أنَّهُم مشغولون باللّه تعالى لابخلْقِ اللّه وأكوانه ، فلا يلتفتون ، إلى هذا ولاذاك ، إلاَّ ما يهيئ اللّه لهم معرفته ...

ولكن العارف باللّه الكامل .. الثابت على قدم رسول

اللّـه ﷺ يكـون مـؤهلاً لمعـرفتهم والائـتناس بهـم ... فهـو قـد مـرَّ بـأحوالهم ، وذاق مـشاربهم ، خـلال زمـن تربيتـه واسـتكماله ، لمـا صـار إليـه مـن فـضل اللّـه تعـالى عليـه ... ، كمـا أنَّـهُ قـد يكـون لـه معهم شُغْلٌ وأوامرٌ وعلاقة ما ، كَيفَمَا يُريدُ اللّـهُ سبحانه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1] .

ويقول جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[2] .

ويقول جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[3].

ويقول : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾[4].

وواضح من هذه الآيات المباركة :

* أنَّ الإمامة والريادة لأهل الخير والصلاح مستَحَبَّة عند اللّـه تعالى .

* أنَّ الإمام الداعي للخير في الدنيا ، مسئول عمن اتبعه يوم القيامة.

* أنَّ الهـدى كلـه مـن اللّـه تعـالى .. للإمـام وأتباعـه .. ، ومـن لم يكتـب اللّـه لـه هـدى منـه – والعيـاذ باللّـه – فلـن يجـدى معـه ولي ولامرشد ولا إمام ..

* أنَّ للّـهِ تعـالى فـي خلقـه أئِمَّـةً داعـين إليـه ، عـارفين باللّـه تعـالى أكثر مـن غيرهـم ، وهـم الخبـراء الحكمـاء الـدالُّون علـى اللّـه

---

(١) سورة الفرقان آية : ٥٩ .

(٢) سورة الكهف آية : ١٧.

(٣) سورة الفرقان آية : ٧٤ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٧١ .

باللّه ، السائرون بعباد اللّه إليه ....

يقول ﷺ "حَبِّبُوا اللّه إلى عِبَادِهِ يُحِبُّكُم اللّه " وهو صحيحٌ ، رواه الطبرانى فى الكبير ، وكذلك الضياء عن " أبى أمامة " ...

وَدَقِّقْ فى معنى هذا الحديث الشريف .... فليس فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنَّهُ أمرٌ من رسول اللّه ﷺ بجمع الخلق على مَحَبَّةِ رَبِّهِمْ .. وهل يكون هذا إلا بتعريف الخلق بصفات اللّه تعالى وتذكيرهم برحمته .. ولطفه .. ووده .. ورأفته .. وعفوه .. وفضله ... وستره .. وقُرْبِهِ .. وإحسانه .. وجوده .. وكرمه .. وعظمته .. وقدسه .. ونوره وكماله وجلاله وجماله !!!

وهل يدعو إلى هذا إلاَّ مَنْ كان عارفاً باللّه تعالى .. متذوقاً سَابِحاً فى أنوار هذه الصفات السنية القدسية المطهرة !!!

وهذا شأنه غير شأن الداعى إلى اللّه تعالى ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالترغيب والترهيب .

وكلاهما خير ... وكلاهما مطلوب .. ولكن لكل منهما وسائله .. وخزائنه .. ونتائجه ...

- والأنوار الإلاهية ، والتجليَّات الربَّانيَّة ، والحضرات القدسية ، يكون لها على النفس والروح ثِقلٌ مادىّ يسرى أثره إلى الجسد ، ويختلف قوة وضعفًا وزمنًا .. وهو فى هذه الحالةِ لا يَشعُرُ شُعورًا كامِلاً بما هو فيهِ من حياتِهِ العاديَّةِ.. بل تراه كالمبهوتِ .. يميل للعزلة

عـن الخلـق .. دائـم الـصمت .. طويـل الحـزن .. غريبـا عـن الخلـق ، لايسايرهم ، إلاّ على قدر الضرورة ..

وهـو عـادة لايعـرف سبحاته ولا أيـن استغراقه .. إلاّ بعد أن يعـود الى ما كان فيه .. فيجد في قلبه وروحه ونفسه معانٍ وإدراكاتٍ جديدة يستتبعها تغيير في خُـلُقِهِ وأدبه مع اللّـه تعالى ومع عباد اللّـه ...

فهو كالغواصِّ في البحر يجمع الصدف ولايعرف ما فيه ، إلا بعد أن يعود إلى الشط ... ذلك أن هذه السَبَحاتِ هي للقلب والروح .. والتجليّات إنّما تكون عليهما .. فيطبع سبحانه وتعالى فيهما ما قضاه أزلاً .. حتى إذا قضى اللّـه تعالى أمره ، ظهر الأثر على الجوارح والحس والشعور ...

ولأقرب لك المعنى أقول ..

عندما نادى " عمر بن الخطاب " رضى اللّـه عنه ، وهو يخطب الجمعة بالمدينة المنورة " الجبل يا سارية الجبل " في القصة المعروفة عنه ، سأله الصحابة بعد الخطبة ماذا فعلت وماذا قلت ، فقال رضى اللّـه عنه "ما أدرى ولكنّى أبصرت سارية وجيشه ، والعدوُّ يلتف حولهم ، ورأيت أنَّ منجاتهم إلى الجبل فناديت " ...

" فعمر " لايدرى كيف جاءته هذه الرؤيا .. ولاكيف ينادى على " سارية " من المدينة ليسمعه وهو خلف أرض العراق ..!! ما كان هذا بعقله ولا تفكيره ...

و " أم موسى " عليه السلام ... ما كانت لتلقى وليدها في اليم بين الأسماك والوحوش البحرية والأمواج والتيارات المائية وغيرها ..

وهى فى كامل وعيها الدنيوى ... ولذلك بعد أن فعلت ذلك - وحياً من السماء - وعادت إلى منطقها وشعورها البشرى المعتاد .. يقول القرآن الكريم : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾[1] .

فهى قد أنفذت أمر اللّه إليها ، بإلقاء إبنها فى النيل ، دون تفكير ولاتدبُّر بل بالأمر والوحى .. حتى وإن كان يخالِفُ العَقْلَ البشرى ..

فوقت إتصال الأنوار الإلاهية بالقلب البشرى ، يكون وقتاً عصيباً بالنسبة للجسم .. وتتفاوت هذه المعاناة على قدر هذه التجليّات ، وكذلك على قدر تحمُّل الجِسم المادىّ .... يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] .

ولذلك فإن الذين يُصَنِّفُونَ عِبَاد اللّه .. ، فيقولون هذا فى مقام كذا ، وذاك فى مقام كذا .. قد جانبهم التوفيق ، وما حكموا إلاَّ بما علموا ، من ظواهرهم ومظاهرهم التى يرونها منهم ..، وهى ليست مقياساً صحيحاً للحكم والتصنيف .

وأصحاب هذه السَبَحَات نادراً ما يتحدثون عنها ، وإنْ تحدَّثُوا فرمزاً وإشارة ..، وما استفادوه من هذه الفيوضات لاينقل

(١) سورة القصص آية : ١٠.　　(٢) سورة سبأ آية : ٢٣ .

إلى غيرهم من تلاميذ بالكلام والحديث ، بل تفيض بهذا قلوبهم وأرواحهم ، فتتلقى هذه الفيوضات الأرواح التى تحبهم ، والقلوب التى تتآلف معهم ... لا بالحديث والكلام .. ، بل بالمحبة الخالصة للَّه تعالى ورسوله والسارية بين أرواحهم .. والأبُوَّةِ والبُنُوَّة الروحية التى جعلها اللَّه بينهم ... ولايورِّثُ المورث إلا ورَثَتَهُ وأهلَ بَيْتِهِ .. وقد يتصدق على من يحب ...

فالذين وقعُوا فى هذا التجاوز فى التصنيف لعباد اللَّه ، هم الذين حَدَّدُوا مواصفاتٍ للبوارق واللوامع والأحوال والمقامات حسبما سمعوا ، وظنوا أنَّهُمْ فهموا وأدركوا .... أو حسبما ذاقوا وعرفوا على قدرهم .. فوضعوا القواعد والأسس على قدرِ ما رأوا وذاقوا ... وحسابهم على اللَّه ....

ونحن ما قصدنا من حديثنا فى هذه الأمور إلا لفت النظر إلى الجانب الروحى العظيم القدر ، الخطير الأثر فى عالم الأرواح والأجساد .. وحتى يخرج الناس من مادِيَّتهم وقوانينها .. إلى قوانين اللَّه تعالى ، وَسَعَةِ رحمته ، وعظيم مَنِّهِ وفضْلِهِ ... وحتى يتنافس المتنافسون ... ويفرح الفارُّون إلى اللَّه ورسوله .. وتنبيها لهم لما قد ينتظرهم من أنوار وتجليّات ، إذا أخلصوا للَّه تعالى فى سيرهم وسلوكهم... وألا تلتبسَ عليهم أحوال غيرهم ، من المخلّطين وأصحاب البدع والرياضات ....

وكل ما قلناه ونقوله إنَّما هو على قدر ما علمنا ... وما أقلَّهُ وما أصغره .. بل إنَّهُ واللَّه إلى الجهل ، أقرب منه إلى

العلم.. وكل ما نقول ، وما نفعل لايسوى عند اللّـه جناح بعوضة .. وما حجَّرْنا فضل اللّـه الواسع على عباده .. ولا ألزمناهم بكلامنا.. ولاحبسناهم على عِلْمِنا ... بلْ للّـه تعالى الأمركُـلُّهُ .. والحُكْـمُ كُـلُّهُ .. ولا يُسْأَلُ عمَّا يفعل .. وليس كلام أحد من خلقهِ حُجَّة عليه سبحانه .. وهو الفعَّالُ لما يريد ولامعقِّب لحُكْمِهِ جل وعلا ...

وكما أن حضرات اللّـه تعالى لاتنتهى .. فكذلك الكلام عنهالاينتهى .. وعجائبها لاتنقضى ، وكُلُّ مَنْ ذاقها وتشرف بها أدلى بدلوه .. وتحدث عما رأى وكابد... ولاحاكم على الجميع إلا أحكام الشريعة المحمدية .. والحقيقة النبوِيَّة .. وكل من يخالفها قيد أنملة فلا نسمع له ... والشريعة هى باطن الحقيقة ، وليست الحقيقة هى باطن الشريعة كما يقولون .. فكل حقيقة يصل اليها العبد إن لم يكن لبُّها ومنبعها الشريعة فلا يُعْتَدُّ بها .. فكل أمرٍ باطنىٍّ يأتيك .. وكل معنى باطنىٍّ تصل إليه ، إن لم يكن مؤكدًا ومؤيدًا بأحكام الشريعة فلا وزن له ....

وإلى من يتحدَّثون فى هذا الأمر .. نقولُ لهم أنَّ ظاهِر ما فَعَلَهُ العبدُ الصالحُ بقتل الغلام كان مخالفًا للشرع .. وهو ملتزم بالحقيقةِ كما يقولون ، ولولا أنَّهُ صَدَرَ إليهِ أمرٌ باطِنِىّ بالقتلِ .. لَمَا قَتَلَ ....

إذا فالحقيقةُ عندَه كان باطنها الشرِيعة .. فالأمرُ صدرَ إليهِ بالقتلِ ، وهذا هو الشريعةُ فى باطن الحقيقة .. هذا ما قصدنا ....

ونكتفى بما قدمنا فى هذا الحديث ، حتى لانطيل على

القـارئ ، ومـا لم نـذكره أضـعاف أضـعاف مـا ذكرنـاه ، وعلـى اللّـه القبول والنفع ، بما نعلم لكاتبه وقارئه ....

واستغفر اللّـه وأتـوبُ إليـهِ مـن كـل قـول يخـالف شـرعَهُ وسنَّةَ رسـوله ﷺ بقـصدٍ أو بغـير قـصدٍ ، وأرجـوه المغفـرة والعفـو ، عـن كـل معنـى فهمـه قـارئ ، يخـالف مـا رجـوت أن يـصل إليـه رمـزاً أو إشـارة، ويكـون فيـه مـا لايرضـى عنـه اللّـه ورسـوله ... فمـا قـصدنا إلاّ وجـه اللّه تعالى ورضاه ... ، وما رجونا إلاّ محبَّةَ رسوله ﷺ وشفاعته .

• **الحب الإلهى :**

وَرَدَ الحُبُّ الإلهى فى القرآن الكريم على صورتين ...

الأولى : حُبُّ اللّه لعباده ...

والثانية : حُبُّ العباد للّه تعالى ...

ومن الآيات الدالّة على حُبِّ اللّه لِعِبَادِهِ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[2] .

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[3] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[4] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[5] .

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[6] .

ومن الآيات الدالة عدم حب اللّه لبعض عبيده وأفعالهم :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[7] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[8] .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩٥
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٢.
(٣) سورة آل عمران آية : ٧٦ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٥٩ .
(٥) سورة المائدة آية : ٤٢ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٤٦ .
(٧) سورة البقرة آية : ٢٠٥ .
(٨) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾[1] .

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[3] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[4] .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[5] .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[6] .

ومن الآيات الدالة على حب العباد لله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[7].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[8].

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[9] .

وقال ﷺ " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِين " وهو صحيح ، رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة عن " أنس " .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٦ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٥٧ .

(٣) سورة النساء آية : ٣٦ .

(٤) سورة النساء آية : ١٠٧ .

(٥) سورة الأنعام آية : ١٤١ .

(٦) سورة النحل آية : ٢٣ .

(٧) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٨) سورة البقرة آية : ١٦٥ .

(٩) سورة المائدة آية : ٥٤ .

● والحُـبُّ هـو الميـل الطبيعـى مـن المحِـبِّ إلى المحبـوب، والأئتنـاس بـه ... ، بحيث لايجـد سـعادته وراحتـه إلاَّ بمعرفةٍ .. أو وصل .. أو امتلاك للمحبوب ...

الحب يلزمـه مُحِبٌّ ومحبـوب .. فالمُحِـبُّ بـدون المحبـوب .. ناقصٌ .. مغتربٌ .. وحيدٌ ...

والحب مكانه القلب كما نعلم ... والقلب محل التقاء النفس بالروح .. لذلك يأتى الحب على أنواع :

- حُبٌّ نفسيٌّ مادىٌّ أو معنوىٌّ ...
- حُبٌّ قلبىٌّ نفسى...
- حُبٌّ قلبىٌّ روحىّ ...

- والأول حُـبٌّ نفسـىٌّ مـادىٌّ أو معنـوى ... مثالـه الحُـبُّ بـين العـوامّ ... فـالنفس تميـل إلى قـضاء شـهوتها ولـذتها .. ووسـيلتها فـى ذلـك الجسد ... فتتعلـق الـنفس بـالمحبوبِ ، حيـث تقـضى حاجتها منه ، وتنال بذلك سعادتها ...

وكـذلك تتعلـق الـنفس بمـا يرفـع شـأنها بـين النـاس ، فتحـب الرياسـة والجـاه والـسلطان والمـال والعلـم أيـضا .. وبهـذا تنـال شـرف الرياسة بين الخلق ...

- والثـانى : حُـبٌّ قلبـىٌّ نَفْـسىٌّ ، اختلطـت فيـه بعـض أنـوار الـروح بـالنفس فاعتـدلت الأخـيرة .. وتعلَّقَـتْ بـالمحبوب مـن بـاب

الأنس ، والتآلف ، والمماثلة ، والتجانس ، وصارت سعادتها فى التشبُّهِ والتخلُّقِ بأخلاقِ وصفات المحبوب والأنس به ..

- والثالث : حُبٌّ قلبىٌّ روحىٌّ ، طَغَتْ فيه أنوار الروح على القلب .. فصار هَمُّهُ وهمُّهَا الرىَّ والسُّقيا وزيادة الأنوار والتجليات عليهما ...

والحُبُّ لايكون لمجهول تماماً .. بل لابد من نظر أو سماع بداية .. فيتكونُ فى الخيال صورةٌ لما رأى أو سمع ... وتَدْفَعُهُ هذه الصورة المتخيَّلة إلى استجلاء الحقيقة فيما سمع أو رأى .. وبذلك يحدث التعلُّقُ .. والشوق ... فاذا اقترب منه المحبوب ، فوجده كما كان يتصور فى خياله ، ازداد له حباً ... وكان الوصل له شفاءً وسعادة ... فينشأ فيه بعد ذلك الاشتياق ...

إذاً فالحب ميلٌ وطلبٌ لشئٍ ليس بالمعلوم كليةً ولا بالمجهول كليةً ...

ويليه الشوق إلى المحبوب للارتواء منه والراحة والسعادة معه .. وهو منه بعيد ....

وَيَلِيهِ الوصل بالمحبوب لتمام سعادته .

وَيَلِيهِ الاشتياق للمحبوب .. ويكون فى حالة القرب ، وبعد الوصال ...

والعشق هو شدة الحب ... والوَلَهُ هو شِدَّةُ العِشْقِ ..

ومن كان الوَصْلُ له دواءً وشِفَاءً .. فإنَّ هذا لِنَقْصٍ فيه أو فى محبوبه ... فان المحب الصادق لايشبع .. ولايزيده الوصل إلا اشتياقاً

وحُبًّا ... فهو لا محالةَ مقتولٌ بين البُعْدِ والهَجْرِ بِشَوْقِهِ .. وبين القُرْبِ و الوَصْلِ باشتياقه ...

– لذلك نحن نقول لمن يقول أنه شرب كأساً من الحب فاطفأت ظمأه وسعد بها وارتوى واكتفى ... يا مسكين .. ما عرفت الحب ولا المحبين ...

فواللّه لوشرب المحب بحاراً تلتها بحارٌ من المحبوب .. ما ارتوى .. ولا اكتفى ...

فإذا تكلمنا عن الحب الإلهى وتعلُّقِ الروح به سُبْحَانَهُ .. فماذا نقول .. !!!

● لقد ضرب اللّهُ لنا فى حياتنا أمثلةً لكل شهوةٍ ولذة ترتوى بها النفس وتسعد بها .. والدنيا ترابية فانية .. ناقصة لا أمان لها ولا فيها .. ولكن اللّه تعالى يقرب إلينا المعانى العلويَّة السامية حتى ندركها بأرواحنا العالية ...

راحة النفس فى الدنيا .. بالأمن والأمان ... واللّه تعالى هو المؤمن .. السلام ...

وسعادة النفس فى الدنيا .. بدوامها بالشراب والطعام ... وفى الجنة طعام وشراب ...

وسعادتها فى الدنيا .. بالزواج والنكَاحِ .. فجعل الحُورَ العين فى الجنة ....

وسعادتها فى تمام صحتها وأُنسها .. وجعل نعيم الآخرة ليس فيهِ نصبٌ ولا لُغُوب ...

وراحتها فى حب الامتلاكِ والغنى .. فأغناها اللّـه فى الجنة وملّكهَا من نعيمه ...

فكل شهوة لها فى الدنيا ... وعدها اللّه بمثلها فى الآخرة ....

وكل ما تكرهه فى الدنيا ... أمّـنَهَا اللّـه منه فى الآخرة ...

ولكن ما أبعد الفرق بين سعادة النفس فى الدنيا الفانية الزائلة .. وبين سعادتها فى الآخرة .. وبما وعدها اللّه به ، من نعيم مقيم من أنوار اللّـه تعالى الدائمة العليّةِ .... فنحن إذا تكلمنا عن الحُبِّ للأنْفُسِ .. وكان هذا الحُبُّ لمخلوقٍ أيًا كان ... وهو ترابيٌّ فانٍ .. ما بين زوجةٍ .. أو ولدٍ .. أو أى حُبٍّ دُنيوىٍّ ... وما يجده المحب من لوعة وشوق يعذّبُهُ ويضنيه ، وبين وَصْلٍ يُسْعِدُهُ .. ورضاً من المحبوب يرضيه وينعّمُهُ .. ولكنَّهُ فى النّهَايَةِ حُبٌّ ليس بالدائم .. ووصلٌ ليس بالمُطْمَئنِّ إليْهِ .. ومحبوبٌ فانٍ مآلهُ إلى تراب .

فكيف إذا تعلقت النفس والقلب بالجمالِ كُلّهِ .. والكمالِ كُلّهِ .. والطُهْرِ كُلّه والعظمة كلِّهَا .. والأزلية المطلقة .. والأمن والأنس الدائم .. والسلام الذى ليس بعده خوف ولانصب !!!

يقـــول تعـــالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٤ .

فاللّه سبحانه وتعالى ضرب لك مثلا لحبك وسعادتك بما وبمن تحب في الدنيا ، ولكنه يرفعك من الترابية الفانية .. إلى الأنوار القدسية الخالدة الخالية من كل عيب.. الكاملة في صفاتها وسعادتها ...

وهذا التعلق للأرواح بربِّها وحبها له ، قد نشأ منذ أن خلقها اللّه تعالى وخاطبها " ألست بربكم " يوم العهد والميثاق الأول ...

واللّه سبحانه وتعالى كلامه منَزَّهٌ عن الصوت والحرف والكلمة بمفهومنا .. فالكيفية مجهولة ، ونحن نسلم بها إيماناً وتصديقاً ...

ولكنَّ اللّه تعالى الجميل .. خالق النعيم .. ورب النعم .. فيه الجمال كله والجلال كله .. والكمال كله .. فاهتزت الأرواح طَرَبًا وسعادة بهذا النداء العلوى المقدس .. فبدأ عندها الحب والشوق ، وتمنى الوصال والسقيا من هذه الأنوار القدسية والجمال الأبدى ....

ثم كانت الحجب في البرزخ .. وفي الأرض .. فصارت الأرواح أشد شوقاً ومحبة للّه تعالى ... وعلمت النفس معنى الحُبِّ والأُنس والسعادة ...

ولكن النفس لها وجه إلى الروح أو القلب .. ولها وجه إلى الجسد الترابيّ .. فجعلت النفس تبحثُ عن سعادتها .. ووسيلتها في ذلك الجسد ... وتفكيرها محصور في عالم المادَّة ، التي تعيش فيها ... فبدأت تُمَارِسُ ألوانًا من الحُبِّ بحواسِّ الجسدِ ومشاعره ، لِمَا ومَنْ حوله من الكائنات ..

ولكنها في النهاية سوف تَجِدُ أنَّ حُبَّهَا للدنيا وما فيها هو كالسراب .. وما فيه من حقيقة ولا خلود ...

فـإذا ارتفعـت الـنفس بـأنوار الـروح ، ومالـت عـن عـالم الجـسد .. بـدأت تبحـث عـن سـعادتها بـالأنس والائـتلاف بـالأرواح الأخـرى المتـشابهة معهـا ... وظهـر نـوع مـن الحـب أسمـى مـن الأول ، لخروجه من عالم المادة ...

فـإذا مـا كـشفت الـروح عـن بعـض حُجُبِهَـا .. وصُـقِلَت الـنفس بأنوارها .. علمت النفس حقيقةً أنَّهُ لامحبوب يستحق المحبة .. وتجد به سعادتها وسلامها وأمنها .. إلا اللّـه تعالى .. الجمال والجلال والكمال المطلق .. وجَلَّ جلال اللّـه ، وعز جاهُهُ ، وتقدست أسماؤه وصفاته ....

● وللحب الإلاهى درجتان .. كما أن للعبودية درجتان ....

فالعبودية إما أن تكون " عبودية افتقار " وهى التى تكون بين الخوف والرجاء .. وإما أن تكون " عبودية اختيار " .. وهى التى تكون لعظمة اللّـه تعالى وتقديسه ومَحَبَّتِهِ ..

وكذلك الحُبُّ للّـه تعالى ....

فإما أن يكون حباً للّـه تعالى ... لِما يتفضل اللّـه به تعالى على عباده مِن نعمٍ وأفضال ...

وإمـا أن يكـون حُبـاً لجميـلِ صـفاتِهِ .. وطُهْـرِ قدسـه .. وعظـيم كمالِـهِ .... والفـرق بينهمـا واضـح ... فـان الأول معلـول .. وللـنفس فيـه نصيبٌ وطلبٌ ... أمَّا الثانى فهو حب تنزيه للروح وبالروح .

والأول للعموم .. والثانى للخصوص النادر ... والنادر لاحكم له .. ولايقدر عليه كل البشر ..

ولــذلك يخاطــب رســول اللّــه ﷺ عمــوم المــسلمين والمـؤمنين ويعلمهـم حـب اللّـه وحـب رسـوله ، بقولـه ﷺ " **أَحِبُّـوا اللّـه تَعَـالى لِمَـا يَغْـذُوكُمْ بِـهِ مِـنَ نِعْمَـةٍ ، وَأَحِبُّـونِى لِحُـبِّ اللّـه ، وَأَحِبُّـوا أَهْـلَ بَيْـتِي لِحُـبِّي** " وهــو صــحيح ، رواه الترمــذى والحاكم فى مستدركه عن " ابن عباس " .

فرسول اللّه ﷺ يُذَكِّرُ النَّاسَ بأفضال اللّه عَلَيْهم .. ونِعَمِهِ عَلَيْهم ظاهرةً وباطنةً .. ويدعوهم إلى محبة اللّه تعالى صاحب الفضل والمِنَّـةِ عليهم ... ، تَمَامًا كَما يدعوهم إلى العمل الصالح ، والترغيب فيه بحسن الجزاء من اللّـه تعالى ، ويخوِّفهم بعذابه وعقابه .. ، وهذا حال عموم الخلق ... يرجون ويرهبون ... ويتاجِرون وينتظرون المكسب والربح ... فحببهم اللّه تعالى إلى ذلك .. وبشرهم بأنها تجارة لاتبور أبداً ...

أما الحب الخالص للّـه تعالى .. ولكماله ولجماله ولعظمته .. فذلك تجده مُغَلَّفًا بالإِشارةِ إليْهِ ، لايدْرِكُهُ إلاَّ من شاء اللّـهُ تعالى لهُ أن يلتقط هذا المعنى السامى والإحساس العالى ...

يقول ﷺ " **إنَّ اللّه جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَال** " وهو صحيح رواه مسلم والترمذى عن " ابن مسعود " ، والطبرانى عن " أبى امامة " ، والحاكم عن " ابن عمر " وغيرهم ..

وَمَنْ مِنَ الخَلْقِ لا يُحِبُّ الجمال !! ومن منهم لا يُحِبُّ الكمال!!

● ومن خواص المحبين أن يعللوا أفعال محبوبهم بأحسن تعليل ... ويقبلون منه كل ما يقول ويفعل .. فهو عن محبوبه راضٍ

دائماً .. وفى شوق إليه مستمر .. ولله سبحانه المثل الأعلى .. فمن أحب اللّه تعالى ، رَضِيَ بِكُلِّ قضائه وقدره ... لا استسلاماً لقضائه وحكمه .. بل رضًا ومحبةً .. وما رأى فى قضاء اللّه تعالى إلاّ الجمال والكمال .. فكان من العبد الشكر والرضا بأفعال ربِّهِ ....

يقول تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (1) .

ويقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ (2) .

ومَنْ أحبَّ اللّه تعالى .. أحبَّ عِباده .. وأحبَّ خَلْقَهُ .. وأحبَّ كُلَّ شيئٍ يُذَكِّرُهُ بِمَحْبُوبِه .. هُوَ يُحِبُّ ذِكْرَ اللّه تَعَالَى .. ويُحِبُّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ اللّه تعالى من الصالحين وعباد اللّه ... وكل ما فى الكون يذكره بِمَحْبُوبِهِ .. وَبِعَظَمَتِهِ .. وصِفَاتِهِ .. لذلكَ تَراهُ مُنْفَعِلاً بالكون وبالمَخْلُوقَات .. ويرى فيهم أَثَرَ مَحْبُوبه ، وقدرته ، ولطفه ، وصفاته العلية كلها ....

ويحق عليه قول ربنا : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (3) .

أى ترى أثراً لِقُدْرةِ اللّه .. ورحمةِ اللّه .. ولطفِ اللّه .. وصفات اللّه جمعاء ...

فإذا رأيت الآثار .. فكأنك أدْرَكْتَ الصِّفَات .. وإذا عشت فى

---

(1) سورة البينة آية : ٨ . (2) سورة سبأ آية : ١٣ .

(3) سورة البقرة آية : ١١٥ .

الصِّفَاتِ .. فأنت في حضرتها .. وكذلك حضرةِ صاحبها جَلَّ وعَلا ...

- والآيـة الكريمـة التـي ذكرناهـا الحـين : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .. فيها صنفان من أهل المحبة الإلاهية ...

الأول : مُحِبٌّ للَّه تعالى ...

الثاني : محبوب عند اللَّه جَلَّ شأنه ...

والأول : صاحب جهدٍ .. وسعيٍ .. وتَقَرُّبٍ .. وانتظارٍ وَتَرَقُّبٍ ...

والثاني : صاحب رضًا .. وإشراق ... وإنعام سنيّ عليه من اللَّه سبحانه ... فإنْ صار العبد ممن يحبهم ويحبونه .. فذلك من درجات الكمال ....

وقد سبق ذكر الحديث القدسي أنَّ اللَّهَ تعالى إذا أحب عبداً صار يده التي يبطش بها .. ورجله التي يمشي بها ... الى آخر هذا الحديث ...

وهذا معناه أنَّ اللَّه تعالى يُلْقِي على من يحبه من الخلق بعض صفاته العلية ، على قدر ما يطيق هذا العبد ... فَيَتَخَلَّقُ بصفات سيده التي هي للتخَلُّقِ .. ويزدادا حبًا وتقديسًا لِصِفاتِ سيده التي هي للتعلُّق ... وصارت له عند اللَّه كرامة وإكراما .. فاذا سأل اللَّه تعالى .. أعطاه من فضله .. وقضى حاجته ...

وعلى الجانب الآخر فان العبد إذا وصل الى هذه المرتبة السنِيَّة .. فإنَّهُ يستحي من اللَّه تعالى حقَّ الحياءِ .. ويغلبه

أدبه على حاله وحاجته .. فلا يطلب من اللّه ، إلاّ ما يرضى اللّه. ولا يسأل اللّه الأشياءَ ، إلاّ إذا عرف أنّهُ مأذونٌ لهُ بالسؤال ، ويحقق قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] .. فمشيئة العبد حينذاك هى تحت مشيئة اللّهِ تعالى .. وبتوجيه اللّهِ تعالى له ...

ولاتقل لى كيف ... فنحن نتحدث عن أهل الدرجات العليا عند اللّه تعالى .. أهل الإحسان وأهل الرؤيا .. وأهل السكينة .. وأهل التأييد ...

يقول رسول اللّه ﷺ " **مَنْ أحَبَّ لِلّهِ ، وَأبْغَضَ للّهِ ، وأعْطَى للّهِ ، وَمَنَعَ للّهِ ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإيمَانَ** " وهو صحيحٌ ، رواه أبو داوود والضياء عن " أبى أمامة " ...

ومن استكمل الإيمان فقد أتقنه وأحسنه .. ودخل فى مقام الإحسان .. ومقام القُرْبَةِ إلى اللّهِ جَلَّ شأنه .. الذين يقول اللّهُ فيهم ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] .

ولعل سائلاً يسألُ لماذا لم يظهر هذا الحُبُّ الإلاهى مع الصحابة و التابعين ولماذا لم يتحدَّثُوا به ..!!

أمَّا الجواب عن الشِقِّ الأول ...

---

(١) سورة التكوير آية : ٢٩ .	(٢) سورة الزمر آية : ٣٤ .

فانظر إلى أفعال الصحابة رضى اللّـه عنهم وحبّهم لرسول اللّـه ﷺ وحبّهم للجهاد لاعلاء كلمة التوحيد ،

وانظر للمهاجرين كيف تركوا أموالهم وديارهم ..

وانظر الى الأنصار كيف أحَبُّوهُم وبذلوا لهم أموالهم وديارهم ...

وانظر كيف كانوا يفدون رسول اللّـه ﷺ بأرواحهم وأنفسهم ، فى الغزوات وغيرها ..

وانظر كيف كانوا يتدافعون ، لينالوا من بركته عليه الصلاة والسلام ، ومن آثاره وآثار جسده الشريفة ، من شعيرات أو قُلامَةِ ظُفْرٍ أو قطعةٍ من ثوبٍ أو غيرها ...

وكيف كانوا يلجأون إليه عليه الصلاة والسلام ، فى كل شئونهم ، لجوء الإبن إلى أبيه .. والمُحِبِّ إلى حبيبه ، شوقًا ولهفة واعظاماً وإكباراً .... فى حياته وبعد انتقاله للرفيق الأعلى ....

وانظر إلى ما ذكره المؤرخون وأصحاب السِيَرِ عن الصحابة والتابعين ، وكيف كان حبهم لرسول اللّـه ﷺ ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

يقول " السمهودى " فى وَفَا الوَفَا " لَمَّا قَدِم " بلال " رضى اللّـه عنه ، من الشام ، لزيارة رسول اللّـه ﷺ أتى القبر الشريف ، فجعل يبكى عنده ويمرغ وجهه عليه " ...

ويذكر "ابن عساكر" فى تحفته " قال على إبن أبى طالب : لمَّا رُمِسَ رسول اللّـه ﷺ جاءت فاطمة رضى اللّـه عنها

فوقفت علـى قـبره ﷺ وأخـذت قبـضة مـن تـراب القـبر ، ووضـعت على عينها وبكت " ...

ويذكر الحافظ " الزبيدى " فى شرح الإحياء (الجزء العاشر) ، أنَّ السيدة عائشة رضى اللّـه تعالى عنها ، عندما حضرتها الوفاة ، دعت بخرقة من قميص رسول اللّـه ﷺ وقالت " ضعوا هذه على صدرى ، وادفنوها معى ، لعلى أنجو بها من عذاب القبر " ....

وذُكِـر فـى كتـاب كـشف الأسـتار عـن زوائـد البـزَّار (الجـزء الأول) أن " أنـس بـن مالـك " رضـى اللّـه عنـه ، كانـت عنـده عُـصَيَّةٌ لرسول اللّـه ﷺ فلما مات ، دفنت عصاه بين جيبه وقميصه ....

وذكـر الحـافظ الزبيـدى فـى " الإتحـاف " (الجـزء العاشـر) بـأنَّ " معاويـة بـن أبـى سـفيان " كـان يحـتفظ فـى خزانتـه بقمـيص لرسـول اللّـه ﷺ وقُرَاضَـةٍ مـن شـعره وأظفـاره ، فـأمر عنـد وفاتـه بـأن يجعلوا كُلَّ هذا فى كفنه ، وعلى جسده مباشرة ....

ويـذكر "ابـن كـثير" فـى البدايـة والنهايـة (الجـزء العاشـر) أن الإمـام "أحمـد بـن حنبـل" كـان يحـتفظ بـشعيرات لرسـول اللّـه ﷺ مصرورة فى ثوبه ...

ويذكر الذهبىّ فى كتاب السير (الجزء الحادى عشر) . قول " عبد اللّه بن أحمد بن حنبل " : رأيت أبى يأخذ شعرة من شعر النبى ﷺ فيضعها على فِيهِ ويُقَبِّلُهَا ، ويضعها على عينيه ، ويغمسها فى الماء ويشربه ويستشفى به ...

وقد قال " ابن تيمية " فى كتابه " اقتضاء الصراط المستقيم " ما

نَصُّهُ : فقد رَخَّصَ أحمد بن حنبل ، وغيره فى التمَسُّحِ بالمنبر ، والرمانة التى هى موضع مقعد النبى ﷺ ويده .

وراجع كتاب " المقالات السنيَّةِ " للحافظ المعاصر " عبد اللّه الهرَرِى" ، وكذلك مؤلفات الحافظ المعاصر " الغُمَارى المَغْرِبى " ، وكذلك أمهات الكتب والمراجع التى صدرت فى القرون الهجرية الأوائل بعد القرن الثالث ....

وذكَرَ " ابن كثير " فى موسوعته البداية والنهاية -الجزء السابع- ما رواه البيهقى بإسنادٍ صحيح قال : " أصاب الناس قحطٌ فى زمان عمر بن الخطّابِ ، فجاء رجلٌ إلى قبر رسول اللّهِ ﷺ فقال يا رسول اللّه استسق لأُمَّتِكَ فإنَّهُم قد هلكوا " ، فرأى الرجلُ رسول اللّه ﷺ فى المنام وقال له " أقرئ عمر السلام وأخبره أنَّهم يسقون ، وقل له عليك الكَيْس الكَيْس " فأتى الرجُلُ " عمر " فأخبره فبكى " عمر " وقال : " يارِبّ ما ءالوا إلا ما عَجَزْتُ "

وهذا الصحابى هو " بلال بن الحارث المزنى "

وقد ذكر مثله فى " فتح البارى - الجزء الثانى "وقد رواه " ابن أبى شيبة " عن " أبى صالح السمَّان " عن " مالك البزار " خازن " عمر بن الخطّاب ".

وقد ذكَر القِصَّة " سيف بن عمر " عن " سهل بن يوسف السلمى " عن " عبد الرحمن بن كعب بن مالك " ، وزاد عليها أن ذلك كان عام الرمادة ، فى أواخر عام ١٧ هـ ، وبداية

عــام ١٨ هــ ، وأنَّ "بــلال بــن الحــارث المزنــي " قــال لعمــر بــن الخطــاب " أنــا رســولُ رســولِ اللــّهِ إليــكَ ، يقــول لــك رســولُ اللّــهِ ﷺ " لقد عهدتك كيِّسًا ، وما زلت على ذلك ، فما شأنك "

فـدعا عمـر إلى صـلاة الاستـسقاء ... واسـتغاث بالأمـصار للعـون بالمؤونة ...

وذكـر " الحــافظ بــن الجــوزى" فــى كتــاب" الوفــا بــأحوالِ المـصطفى " .. عـن " أبـى بكـر المِنْـقِّرى " الروايـة التاليـة ، وكـذلك ذكرها الحافظ "الضياء المقدِسى" :

قــال المِنْقّـرى : كنـت أنـا والطبرانـىّ وأبـو الـشيخ فـى حـرمِ رسـول ا للّـهِ ﷺ ، وكنّـا علـى حالـةٍ ، فـأثّر فينـا الجـوع ، وواصـلنا فمـا أكلنـا ، فلمـا كـان وقـت العـشاءِ حـضرتُ قـبر النبـىِّ ﷺ فقلـتُ : يـا رســول اللـــهِ .. الجــوع .. الجـوع .. وانـصرفت .. والطبرانـىّ جــالسٌ ينظُـرُ فـى شـيئ .. فحـضرَ عَلَـوِىٌّ ، ومعـه غلامـان ، ومـع كُـلِّ غُـلامٍ زنبيلٌ فيه طعام .. فجلس وأكلنا .. وترك ما تبقى منّا ...

فلمّـا فرغنـا قـال العَلَـوِىُّ " يـاقوم أشـكوتم إلى رسـول ا للّـهِ ﷺ ؟؟ فـإنى رأيـت رسـول ا للّـهِ ﷺ فـى المنـام ، فـأمرنى أن أَحمِـلَ بشئٍ إليكُم " ..

فهـل تـدلُّ كـل هـذه الروايـات وأمثالهـا إلاَّ علـى شِـدَّةِ الحُـبِّ لرسول اللّه ﷺ وشِدَّةِ الحُبِّ للّه تعالى !!!

فكـل هـذه الوقـائع وغيرهـا صـدرت مـنهم مـن بـاب الحُـبِّ

والمحبَّـةِ .. وليـست مـن بـاب الأمـر والنهـى .. ولامـن بـاب العبـادة وانتظار الجزاء ...

أمـا لمـاذا لم يتحـدث الـصحابة والتـابعون عـن هـذا الحـب الإلاهى .. وهو الشِقُّ الثانى من السؤال .. فالجواب عنه ..

أنهـم كلـهم كـانوا كـذلك .. فمـع مـن يتحـدثون .!! ولمـن يشرحون !!! وكلهم أصحاب حب ومذاق ورؤية وإحسان !!! ..

ولم يكـن فـى ذلـك الزمـان مجـالس متخصـصة فـى تفـسير القـرآن .. وأخـرى فـى الفقـه .. وغـيره .. بـل كـان همهـم ذكـر اللّـه تعـالى .. ومجـالس علـم يتـذاكرون فيهـا حـديث رسـول اللّـه ﷺ ويجمعـون الحـديث .. ويدَوِّنونـه ويوثّـقُونَهُ ويـستنبطون الأحكـام ، ويجيبـون كـل سـائلٍ عـن مـسألَتِه .. وجُـلُّ الـصحابةِ قـد انتـشروا فـى الأمصار يجاهدون فى سبيل اللّه ...

وما ظهر تنـوع المدارس والمجالس ، إلاّ بعد أنْ صَنَّفَ " أبـو حنيفة " والإمام "مالك " رضى اللّـه عنهما ، أسس علم الفِقْه .. وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى .. ، وتبعهما " الشافعى " و "ابـن حنبل" وغيرهم ... وبدأت مصنفات الحديث النبوى تظهر كذلك .... وبدأ تنوّع المجالس مع بداية القرن الثالث ... ومن أوائل من تكلم فى هذا الفن .. الإمام الحكيم "الترمذى" رضى اللّه عنه .. وكذلك " أبـو طالب المكىّ "

- ونعود إلى حديثنا فنقول :

إن المحبوب عند اللّه تعالى وعند رسوله .. لايعلم أنَّهُ محبوب .. اللّهمَّ إلاَّ إذا بُشِّرَ بذلك ... فمَنْ بَشَّرَهُ اللَّهُ ورسوله بهذا المقام .. فليس له أن ينكره ... ومنْ لمْ تَصِلْهُ البُشْرَى .. فليس له أن يتطلع الى هذه المرتبة ....

ولنا في صحابة رسول اللّه ﷺ الأسوة والقدوة ... فلا شك أنهم خيار خلق اللّه تعالى ، وخير القرون ... ومنْ بَشَّرَهُم رسول اللّهِ ﷺ بأنهم من أهل الجنة ، فقد سُعِدُوا وفازوا .. وليس لهم أن يردوا هذه البُشْرَى ، بدعوى التواضع أو إنكار الذات .. أو الخوف من اللّه تعالى .. فهذه عَطِيَّةٌ وهَدِيَّةٌ من المَلِكِ .. وليس من الأَدَبِ رَدُّهَا .... ومن لم يبشر بها .. فليس له أن يدّعيها .. وَحُقَّ له أن يتطلع إليها ...

وأما قول سيدنا " أبي بكر الصديق " رضي اللّه عنه : "لو أن إحدى قدميَّ داخل الجنة ، والأخرى خارجها ما أمنت مكر اللّه " فهذا قول - إنْ صحَّ عن " أبي بكر الصديق " - فلا يحمل أبدا على معنى المكر ، الذى يفهمه الناس ..

فاللَّهُ تعالى ليس "بماكر" .. فإن المكر من الصفات الذميمة .. وحاشى للّهِ تعالى أن تُنْسَبَ إلَيْهِ ... ولكنَّ المكر الذى نَسَبَهُ اللّهُ تعالى إلى نفسه في القرآن الكريم ، هو غير المعنى الذى نفهمه وإنَّمَا يمكُرُ العبيد بأنفسهم .. ﴿ وَلَا يَحِيقُ

ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1] .. كما قال القرآن الكريم ..

وذلـك قريـب مـن قولـه تعـالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾[2]، فما كاد الكفار إلاَّ لأنفسهم وهم لا يشعرون .. وما كان كيد اللّه تعالى ، إلاَّ عين كيدهم لأنفسهم بجهالتهم وكفرهم ...

هـذا عـن المحبـوب عنـد اللّـهِ تعـالى ... أمَّا المُحِـبُّ للّـهِ تعالى ، فقد يعلم ويشعرُ بحُبِّهِ للّـهِ تعالى ولِرَسُولِهِ ... إذا عرف كيف لايُخْسِرُ الميزان ...

ومقصودنا بالميزانِ هنا .. هو ألا يخلط بين قيامه للّه تعالى بما يجب ، وبين ميل قلبه وروحه وذاته للّـهِ ولرسوله .. صحيحٌ أنَّ فى كِلا الأمرين خير .. ولكنْ لِكُلٍّ منهما أدبٌ وحالٌ مع اللّه تعالى ....

ولكننـا نتـساءل ومـاذا يفيـده أن يعـرف أولا يعـرف !!! إنمـا هـو خاضـع للّـه سـبحانه فـى كـل أحوالـه .. وراضٍ بكُـلِّ تجليـات مولاه عليه .. فيُقيمُه حيث يُقيمه ...

– وحقيقة الحُبِّ أنَّهُ هَدِيَّةٌ مِنَ اللّـهِ تعالى للعبد .. فهو فى الحقيقـة لايـستطيع أن يـصنعه أو يقـصده ، فيحقِّقَـهُ لنفـسه وذاتـه ... بـل هـو واقـفٌ مـع ربِّـهِ فـى مقـام العُبُودِيَّـة .. مستـشرفٌ لأنـواره وتجليَّاته وصدقاته وإحسانه .. مفتقراً .. خاضعاً راضياً ...

والمـولى جَـلَّ وعـلا يقـول : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

---

(١) سورة فاطر آية : ٤٣ .

(٢) سورة الطارق آية : ١٥-١٦.

وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ .. فَمَنْ جَاءَ إِلى اللَّـهِ تَعَالَى بنفسه وما فيها من هـوىً واختيار ... فما وقف موقف الفقراء ولا المحتاجين ولا المساكين ...،

ومن جاءه جَلَّ وعلا بعمله وحسناته معتمدًا عليها .. فقد مَنَّ على اللَّـه بعمله وبرِّهِ .. وهذا منه سبحانه حقًا ويقيناً ... وما جاءه مفتقراً ....

أما من جاءَهُ سبحانه قاصداً وجْهَهُ .. منتظراً عطاياه وهداياه وفضله ورحمته بتسليم مطلق .. ورضًا كامل ، مُسَبِّحًا .. مُقَدِّساً عظيم صفاته .. متعلقاً بها .. دائراً في كمالها .... فقد عَرَّضَ نفسه للنفحات .. ولخزائن الملك الوهاب ...

والمحب دائمًا ذاكرٌ لحبيبه .. يشعر به في غيابه .. فما بالك إذا كان المحبوب لا يغيب .. وحضراته لاتنقضي ... وصفاته تملأ الأكوان !!!

والمحب غيورٌ .. يغارُ على من يحب .. فلايسمح لمن لايعرفه حق المعرفة أن يتحدث عنه .. فقد يصدر في حديثه نقصٌ لايليق بمحبوبه .. أو لايستطيع أن يوفيه حقَّهُ من الإجلال والتعظيم ...

لذلك فالمحب يغار على حبيبه مِمَّنْ جَهِلُوهُ .. ويغارُ عليه كذلك مِمَّنْ يُحِبُّونَه .. أمَّا إن كان حبهم لحبيبه كحُبِّهِ هو له .. حينذاك يَأْتَنِسُ بهم .. ويميل إِلَيْهِم ... ويشكو بعضهم إلى بعض .. ويناجي بعضهم بعضا على ذكر حبيبهم ....

- والحقيقة أن كُلَّ خَلْقِ اللَّـهِ محبوبون من اللَّـه تعالى .. فكل صانع يُحِبُّ صنعته .. واللَّـهُ سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته

ونِعَمِـهِ يـدعوهم الى دار الـسلام .. ويـدعوهم الى خَيْـرَى الـدنيا والآخـرة .. ويـرزقهم علـى كفـرهم وجحـودهم وإشـراكهم .. فـان رجعـوا إليـه فـرح بهـم وغفـر لهـم .. فمـا أبعـد العبـاد عـن ربهـم إلاَّ الحُجُـب الظلمانيـة والنورانيـة ... فـاذا مـا بـدأت هـذه الحُجُـب فـي الـزوال ، وازدادت معرفـةُ العبـدِ بِرَبِّـهِ .. فلابُـدَّ أنْ يُحِبَّـهُ ... وعلـى قدر معرفته بربّه سبحانه على قدر ما يكون حُبُّهُ لسيده ...

فما عرف اللّه تعالى منْ لمْ يُحِبَّهُ .... وما أَحَبَّهُ منْ لَمْ يَعْرِفْهُ ....

وما نبت شوقٌ في قلب العبد إلى اللّـه تعالى إلاَّ من باب بعض معرفته بربِّهِ جَلَّ وَعَلا ... ومَا كَان اشتياقُ مِنَ العَبْدِ إلى ربِّهِ إلاَّ بعد أن ذاق من أنوار جماله وجلاله وكماله ... وانتشى بها .. وغاب فيها .

وخلاصـة مـا نقـول أنَّ المُحِـبَّ لِلَّـهِ تعـالى .. غـارقٌ فـي أنـواره تعـالى وأنـوار صـفاتِهِ وأسمائِـهِ ... لايقـع نظـره مـن الكـون كلـه إلاَّ ويرى فيه للّه تعالى أثراً ، وحكمة ، ولُطفًا ، وقدرة ...

يُحْيِيـهِ إشـراقُ الأنْـوارِ عليـه ، ويقتلـه حِجَـابُ الأكـوانِ وغيرهـا عـن اللّـه تعـالى ... غـير طالـبٍ لدرجـةٍ ولامرتبـةٍ ... يـضيقُ بِجَسَدِهِ ونَفْسِهِ ، لأنَّهُما له سِجْنٌ عن الملكوت الأوسع ...

أُنْسُهُ باللّهِ تعالى ... مستوحشٌ منْ كُلِّ مَنْ ومَا سِواهُ ... متذللٌ علـى الأعْتَـابِ ... إنْ قُـرِّبَ تَـأَدَّبْ ... وإنْ أُبْعِـدَ تَقَـرَّبْ ... وبـين الوَصْـلِ والبُعْدِ لايَهْدأُ وَلايَطْمَئِنُّ .. ولايرتوي من فضل اللّه تعالى ...

• الشعر فى الحب الإلهى :

الشعر فى اللغة العربية هو أرقى تعبيرٍ عن الإحساس والوجدان ، فاللغة العربيةُ تعتزُّ بالشعر وشعرائها ، وتتغنى بأشعارها ...

وقولُ الله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (1) ، إنَّما يتحدث عن شعراء الصنعة من مدحٍ وهجاءٍ وفخرٍ وغيرهم ، مِمَّا كان عليه العرب آنذاك والذين كانوا يقولون " إنَّ أبلغ الشعر أكذبه ".

ورغما عن ذلك ، فقد استثنت الآية الكريمة من الشعراءِ أولئك الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات.

أمَّا قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (2) إنَّما تنفى عن سيدنا رسول اللـه ﷺ هذه الصناعة والفن ، ذلك لأن انبهار العرب ببلاغة القرآن الكريم جعلت بعضهم يتهم القرآن بأنه قول شاعرٍ مبدعٍ عظيم ، حيث كان

---

(1) سورة الشعراء آية : ٢٢٤ -٢٢٧ . (2) سورة يس آية : ٦٩ .

الشعر كما قلت عندهم هو أبدع ما يقال فى اللغة العربية ..

فنفى الله تعالى عن رسوله ﷺ هذا الاتهام ، وبين سبحانه أنَّه قرآنٌ كريمٌ ، ليس بالشعرِ ... وأنَّ رسوله ﷺ ما ينبغى له أن يقول الشعر ، كما أنَّه ﷺ أراد له سبحانه أن يكون أمِّيًّا ، لا يقرأ ولا يكتب .. فما علمه ربُّهُ القراءة ، ولا الكتابة ، ولا فن الشعرِ...

وما علَّمه إلاَّ من عنده تعالى .. وما أقرأه سبحانه إلاَّ ما شاء له من الآيات والذكر الحكيم .....

يقول ﷺ " إنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا ، وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكماً " ، رواه أحمد فى مسنده وأبو داوود عن " إبن عباس " .

ومنذ القدم ، والشعراء يتغنون بالحبيب ... ويعبرون عما فى قلوبهم من شوقٍ ولهفةٍ بالشعر ...

وقد كان الشعراء زمن رسول اللَّهِ ﷺ يتبارون فى مدحه، والدفاع عن الإسلام ، والرَّدِّ على المشركين ، وكان رسول اللَّهِ ﷺ يستمع إليهم ، ويدعو الناس إلى استماعِهم ، ويكرِّمُهم بالعطايا والهباتِ ويدعو لهم .... وكان يضعُ " لحسان بن ثابت " كرسيًا يجلسُ عليهِ فى المسجِدِ ، وهو يقولُ شِعره .

وممن أنشد الشعر بين يدى رسول اللَّهِ ﷺ وفى مسجده وفى غيرِ مسجده ، " حَسَّان بن ثابت " و " عبداللَّه بن رواحة " و "كعب بن زهير " و " العباس بن عبد المطلب "و "عمرو بن

سالم الخزاعى " و " فُضَالةُ الليثى " و " العبّاس بن كرداس " ، " كُلَيْبُ بن أسيد الحضرمىّ " و "مالِكُ بن النمْط "و " قُرَّة بن هُبَيْرة " و " قِيلَة بنت الحارث " أخت " النضر بن الحارث ".

وممن رثا رسول اللّهِ ﷺ من الصحابة شعرا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى – وهم أكثر مِنْ أنْ يُحْصَوا :-

" أبو بكرٍ الصديق " و "عمر بن الخطاب " و " عثمان بن عفَّان " و " على بن أبى طالب " ، و" السيدة فاطمة الزهراء " و " السيدة صفية بنت عبد المطَّلب " و "أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب " ...

وانظر إلى سير الصحابة لتعرف المزيد...

وميزة الشعر هى القدرة على التعبير المعجز المقتصر للمعانى العريضة .. ، وكذلك موسيقاه الداخلية والخارجية وما يحتويه من فنون التعبير من تورية .. واستعارات وكنايات وغيرها . كل هذا فضلاً عن تَقَبُّلِ الناس للشعر والتغّنى به ، مما يؤَثِّرُ فى الإحساس والوجدان والقلب والروح .. ويجعله محبوباً ، سريع الانتشار بين الناس ..

وقد جرى أهل العشق الإلاهى على هذا النمط .. وانتَحَوا هذا المنحى .. فصارت لهم خزائنهم الشعرية ... وثروتهم الروحية ...

ويلجأ شعراء هذا الفَنِّ إلى رموز وإشارات متداولة بينهم فى أشعارهم حتى لايدركها إلا أهلها وأصحابها ...

وجميعهم تقريباً يتحدثون عن " ليلى " ... وإشراقها .. وحجابها .. وبرقعها .. وخمارها .. وعيونها .. وسهم لحظها ... وشرابها .. وكأسها .. ووصلها .. وهجرها ....

وهم فى كل هذه العبارات يشيرون إلى الأنوار الإلاهية . والإشراقات العالية .. وحضرات الأسماء والأفعال والصفات والذات .. وما يمُرُّ بهم من حالات الحضور ، والغيبة عن الأكوان .. ويصفون إحساسهم ومشاعرهم ، خلال كل هذه المراحل ...

ولايخلو بعض شعرهم من " شَطْحٍ " عندما يغلبهم حال من هذه الأحوال ، فيستغرقون فيه .. فتضيق بهم أنفسهم وذواتهم .. فينطلقون بأرواحهم ، متحررين من قيودهم ...

فلا يخلو شعرهم من بعض المبالغة ، على قدر ما يشعرون به ....

وقد يكون سبب هذه المبالغة والشطح ، هو عجزهم عن التعبير الدقيق ، لتصوير ما هم فيه ، وما يكابدونه ويعانونه ....

وجمال الشعر عموما فى صُوَرِهِ وكناياته واستعاراته ... فهذا الأمر لايؤخذ عليهم ، ممن يستشعر ، ما هم فيه ...

ولايجوز لنا أن نأخذ شعرهم على ظاهر معناه .. بل كما قلنا إنما هى كنايات واستعارات ... ولذلك وقع الكثير فى سوء فهم أشعارهم ، وحملها على محمل بعيدٍ كُلَّ البُعْدِ عن مقصد من يقولونه ...

والشعر عموما هو مَلَكَةٌ فى النفس المرهفة الحساسة ، تليها قدرة على التعبير الموسيقى المنتظم...

فليس كُلُّ من قرأ شِعرًا يستطيع أن ينظِمَهُ ، وليس كُلُّ من قرأ شِعرًا يستطيع أنْ يفهَمَهُ ...

فلا يجب أن يكون حكمنا على الشعر حكمًا عقلانيًا محضًا .. بينما هو أصله ومصدره الإحساس والشعور ....

- أما لماذا يلجأ هؤلاء الشعراء إلى هذه الكنايات والاستعارات بالذات وهى أمثال " ليلى" .. والخمر .. والكأس .. وغيرها !!

- نقول أن كل مُحِبٍ فى الكون مهما كان مستوى حُبِّهِ مادياً أو معنوياً - هو فى الحقيقة ما أحبَّ إلا وجهاً من أوجه خلق اللّه تعالى .. وفيه أثرُ قدرته وأثر عظمته جَلَّ شأنه ...

وكل خلق اللّه تعالى لايصلون الى الكمال .. ولابد أن يكون فيهم نقص ما ... - وان لم يكن فيهم نقص جدلاً - فإنهم فانون .. ترابيون ..

والكمال كله للّه تعالى ... وما كَمُلَ منْ خلقه إلا محمدٌ ﷺ ....

وقد جرى عُرْفُ الناس وقانون الطبيعة البشرية ، على أن يكون بين الرجل والمرأة جذبة طبيعية ، واحتياجٌ شديدٌ ، يتم بهما لقاؤهما .. ولو لم يتم هذا الالتقاء لانتهت الحياة البشرية .. وفنى الجنس البشرى كله ...

فهذه العلاقة هى أصل الحياة على الأرض ... وفيها

الأخـــذ والعطـــاء .. وفيهـــا الـــسالب والموجـــب .. وفيهـــا الفعـــل والانفعـــال.. وفيهـــا التكامـــل والتـــوازن .... فالـــشاعر عنـــدما يلجـــأ إلى الرمـــز بليلـــى وغيرهـــا .. فمـــا هـــذا إلا تعـــبير منـــه عـــن شـــوقه وانفعالـــه .. وسكنه ... وأنسه .. وغير ذلك مما يجرى على ألسنة المحبِّين ...

وكـــذلك مـــا يكـــون فـــى المـــرأة مـــن جمـــال .. ودلال .. وحجـــاب.. ونقـــاب وغيرهـــم ، يـــساعد الـــشاعر علـــى اســـتعارة هـــذه المسميات لِمَا يمرُّ به من حَجْبٍ ومَحَبَّةٍ وغيرهما .

ولـــو سمعنـــا شـــاعراً رجُـــلاً يَتَغَـــزَّلُ فـــى رجـــلٍ مثلـــهِ لاســـتهجناه ، وعِبْنا عليه شعره !!!

وكذلك شعر الشعراء عن الخمر والكأس والشراب ....

فالخمر يصل بالشارب إلى السكر .. والنشوة .. وينسى ما هو فيه من أحواله ... وما يعانيه فى واقعه ... فالخمر يذهب العقل .. ويطيش بالفؤاد ...

ومـــا علـــم الـــشعراء مُـــسْكِراً آخـــرَ غـــير الخمـــر يفعـــل بهـــم هـــذا ... وهـــم مـــا أرادوا مـــن تـــشبيهاتهم هـــذه ، إلا أن يوصـــلوا للقـــارئ والـــسامع مـــدى نـــشوتهم .. وغيبـــتهم بـــالأنوار عمـــا هـــم فيـــه مـــن واقعهـــم ... وهـــم ما شربوا الخمر ولامدحوها كما يفهم بعض الناس ....

وهذا ليس دفاعاً عنهم .. ولكنه فهمٌ وإدراك لما قصدوه .. وهم ما مدحوا إمرأة .. ولاشكروا فى الخمر المعروف ... إنَّمَا هو خيال الشعراء وإحساسهم .... وأسلوب تعبيرِهِم رمزاً وكنايةً لا غير ....

وعلى العموم لَوْ خَلا شعرهم من هذه المشبهات لكان أفضل لهم .. بدلا من تحمُّلِهم لغمز الغامزين .. وقدح القادحين ...

ونختتم كلامنا بشعر " لبيد " وبيت الشعر الذى كان يتمثل به رسول اللّـهﷺ كثيراً ويقول أنَّـهُ أصدق ما قاله الشعراء .. ألا وهو :

أَلا كُلُّ شَيْئٍ مَا خَلا اللَّهُ بَاطِلُ ∴ وَكُلُّ نَعِـيمٍ لا مَحَـالَةَ زَائِـلُ

فسبحان من حياة كُلِّ شيئٍ بتسبيحه ... ودوامُ كُلِّ حَيٍّ بِتَقْدِيسِهِ

سبحانه وتعالى لانحصى ثناء عليه ...

وله الحمد فى الأولى والآخرة

والحمد للّه رب

العالمين

وبعـــــد ...

فقد عَرَجْنا فى ملكوتِ السموات والأرض .. وسَمَوْنا عن عوالم الحُجُب ... وسَبَحْنا فى بُحُور التوحيد ... وتعرَّضْنا لِنَفَحاتِ اللـــــهِ تعالى وأنواره ... وخُضْنا فى عوالم أسمائِه وصِفاتِهِ ... وطُفْنا حَـــوْلَ أنوار رسول اللـــه ﷺ ... محاولين جاهدين أن يكون لنـــا شـــرف الانتهال من هذا المعين الذى لاينضب ... عسى أن يكون لقارئه دليلا له إلى ربِّهِ .. وعسى أن يكون لقارئه خيرًا مما كان لكاتبه ...

ويعلم اللـــهُ أنّنا ما قصدنا إلا وجه اللـــه تعالى فيما كتبنا.. ولولا الأمر ما سَطرْنا منه حَرْفًا .. واللـــهُ على ما أقولُ وكيلٌ ...

ووقفنا على أبواب الكريم .. بـــلا علـــم ولاعمـــلٍ ولا حـــولٍ ولا قوةٍ ... وقفة الحائر .. الفقير .. العاجز .. المستجير .. اللاجـــئ إلى اللـــه باللـــه .. العائذ باللـــه من اللـــه ...المستشفع إلى اللـــه بحبيب اللـــه "محمد " ﷺ أشرف خلق اللـــه .. وأكرمهم على اللـــه ....

راجيـًا عفو اللـــه عن ذنوبٍ نعلمها ولانعلمها .. مِنْ فعلٍ ، أو قولٍ أو نيَّـــةٍ لاتُرْضِى اللـــه ...

تائباً إليه سبحانه .. عن كل ما سواه ....

نادمًا مستغفراً عن كل لحظة شُغِلْنا عنه بغيره جَلَّ شـــأنه .... ومستجيرًا به سبحانه عن كل قاطع عنه سواه ...

معترفا مُقِرًّا له سبحانه وتعالى بجهلى وتقـــصيرى وعجـــزى وظلمى وغفلتى ...

غير يائس من رحمته التى وسعت كل شئ ... وغير قانط من فضله الذى غمر كل شيئ ...

قصدتُ وجهك العظيم ... ورجوت فضلك العميم .. بحَقِّ صفاتك العظمى ... وحَقِّ أسمائك الحسنى .. وحَقِّ طهْر قدْسِكَ الأقدس .. ونور نبيك الأعظم ..

أن تجذبنى إليك جذبةً لا أفيق منها حتى ألقاك .. وأن تُمِدَّنى بأنوار ذاتك القدسية وأنوار حبيبك النبوية ..

تنير بها ذاتى ونفس وروحى .. وأنْ تجعلنى نورا بين خلقك وعند موتى .. وفى قبرى .. وعند حشرى ..

وفى معيَّتِكَ ومَعيَّةِ رسولك عليه الصلاة والسلام ، وألاَّ تحجبنى عن مقام كرَّمتَهُ فيه .. وأنعمت عليه به ..

يا أعظم من سُئِلَ .. ويا أكرم من أجاب ..

ولك الحمد فى الأولى والآخرة .. ولك الحكم وإليك يرجع الأمر كله .. وإليك المنتهى ولاحول ولاقوة إلاَّ بك ..

وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله و الحمد لله رب العالمين .

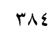
عبد الله

خادم الطريق

صلاح الدين القوصى



الجـــزء الثـــالث



محتويات الكتاب

رابعـــــــاً : الباب الثالث : حول نُبُوَّة رسولِ الـلَّــه ﷺ صفحة :١٦٣

خامسًـــا : الباب الرابع : الحضرات الإلاهية صفحة :٢٩٥

صدر للمؤلف

١- أركان الإسلام (دليل العبادات)

طبعة أولى	١٩٧٣
طبعة ثانية	رجب ١٣٩٧هـ - يوليو ١٩٧٧ (مزيدة منقحة)
طبعة ثالثة	المحرم ١٤١٠هـ - أغسطس ١٩٩٠

٢- قواعد الإيمان (تهذيب النفس)

طبعة أولى	المحرم ١٤١١هـ - أغسطس ١٩٩١

٣- الأسير (ديوان شعر)

طبعة أولى	جماد الآخر ١٤١١هـ-يناير ١٩٩٢

٤- المتيق (ديوان شعر)

طبعة أولى	المحرم ١٤١٦هـ-يونيو ١٩٩٥

٥- الأوراد والأذكار:

أ-راتب الاسم الأول	رجب ١٤١٥هـ-٤ ديسمبر ١٩٩٤ (أربع طبعات)
ب-راتب الاسم الثاني	رجب ١٤١٥هـ-٤ ديسمبر ١٩٩٤ (ثلاث طبعات)
ج-راتب الاسم الثالث	رجب ١٤١٥هـ-٤ ديسمبر ١٩٩٤ (ثلاث طبعات)
ء-الحضرة	رجب ١٤١٥هـ-٤ ديسمبر ١٩٩٤ (أربع طبعات)

٦- مقدمة أصول الوصول شعبان ١٤١٦هـ- يناير ١٩٩٦ (ثلاث طبعات)

٧- أنوار الإحسان (أصول الوصول) رمضان ١٤١٨هـ- يناير ١٩٩٨

٨- الطليق (ديوان شعر) تحت الطبع

هذه المؤلفات وقف للّهِ تعالى لاتُباع
وتطلب من المؤلف

رقم الإيـداع : ٣٣٨٦ / ١٩٩٨
الرقم الـدولى : ISBN 977-19-5490-3